يدا أبي

مايرون أولبرغ



ترجمة:
مازن معروف

نبذة عن المؤلف:

كاتب نال استحسان النقاد. وحاز جوائز تكريماً لإنتاجه من أجل الأطفال. يعيش برفقة زوجته في سانتا مونيكا وبالم سبرينغز في كاليفورنيا. من مؤلفاته: التحليق فوق بروكلين، الكلب الطائش ماكغرو، ليمويل الأبله، عامل الطباعة، أبي.. جاكي.. وأنا.

نبذة عن المترجم:

من مواليد عام 1978. لاجئ فلسطيني يعيش في بيروت. كتب للعديد من الصحف والمجلات في لبنان والعالم العربي وأوروبا. وهو يعمل حالياً ناقداً شعرياً ومسرحياً. صدرت له في بيروت مجموعتان شعريتان «الكاميرا لا تلتقط العصافير» (2004) و«كأن حزننا خبز» (2000). وله مجموعة شعرية ثالثة قيد الطبع. ترجمت بعض قصائده إلى الإنجليزية والسويدية، كما والفرنسية مؤخراً. شارك في مهرجانات شعرية دولية بين فرنسا والمملكة البريطانية. وضع قراءة نقدية لستة كتب مسرحية شبابية صدرت في بيروت. وهو حاصل على بكالوريوس في الكيمياء من الجامعة اللبنانية.

مايرون أولبرغ

يدا أبي

ترجمة: مازن معروف

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

HQ759.912 .U4512 2011
Uhlberg, Myron.
[Hands of my father]
يدا أبي / تأليف مايرون أولبرغ؛ ترجمة مازن معروف.- أبو ظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص 294 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Hands of my father: a hearing boy, his deaf parents, and the language of love.
تدمك: 978-9948-01-953-4
1 - Uhlberg, Myron -2 الآباء و الأبناء.
3 - الآباء المعوقين. 4 - الأطفال المعوقون – تربية.
أ-معروف، مازن.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Myron Uhlberg
Hands of My Father: A Hearing Boy, His Deaf Parents, and the Language of Love

This translation published by arrangement with Bantam Books, an imprint of the Random House Publishing Group, a division of Random House, Inc.

كلمة KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 171 6576 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

يدا أبي

المحتويات



الإهداء:

إلى ذكرى والديّ

لويس أولبرغ

1975 −1902

وسارة أولبرغ

2001 −1906

تنويه

كان لي والدان أصمان، تكلما باستخدام يديهما، موظِّفَين الإشارات عوضاً عن الكلمات. وقد غدت اللغة التي استعملاها آنذاك معممة اليوم تحت اسم: اللغة الأمريكية للإشارات. وانطلاقاً من إخلاصي للحقبة الزمنية في الرواية، آثرت ذكر اللغة المستعملة بينهما كـ«إشارة» (دلالة على استخدام شخصي) وليس «الإشارة» (بالمعنى الأكاديمي للغة الإشارة). كما أذكرهما على أنهما أصمان، بحسب حالتهما الفيزيولوجية العضوية فقط، تعارُضاً مع ما هو متعارف عليه اليوم حول كلمة «الصمم» والتي يشار بها إلى كثافة مجتمع الصم وتعقيداته وامتداداته.

أخيراً أقول، إن اللغة الأمريكية للإشارات، هي لغة بصرية إيمائية؛ ولذلك، فقد نسخت أحاديث أبي وأمي وحولتها من حروف تلك اللغة إلى الحروف الإنجليزية. تلك الأحاديث المنطوقة قبل ستين أو سبعين سنة– وأستعرضها في الكتاب، إصطلاحاً، تحت أقواس كلامية– لا تعني ما قيل أداءً كلمة بكلمة، بل تعكس جوهر ما نطقت به أيديهما ومغزاه.

كما قمت بتغيير بعض الأسماء لأسباب شخصية.

في مذكراته الرائعة، *اللوح الممسوح*، يطلعنا غور فيدال على رؤيته فيقول: «المذكرات هي الكيفية التي نسترجع بها حياتنا»، ويضيف: «حتى الذاكرة الخمولة، بإمكانها استعادة أكثر الأحداث تأثيرا وأهمية». وفي هذه المذكرات، ثمة هذه الكيفية التي أستذكر بواسطتها نشأتي بين والدين أصمين، ولم أدّخر أدنى جهد لاستعادة الأكثر تأثيراً وأهمية من بينها. وهذا أقل ما يستحقانه مني، أنا، ابنهما.

م. أ

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يبصر النور لولا دعم بعض الأشخاص لي.

إلى سوزان شولمان، وكيلة أعمالي وصديقتي التي أشارت عليّ بضرورة نشر هذا الكتاب، والتي بعد أن أنجزته، قالت: «أميِّز دوماً الكتاب الذي أحبه».

إلى إميلي أوري، التي بتشجيعها ونصائحها في المراحل الأولى للكتاب، ساعدت بتكوينه.

إلى بِث راشبوم، ناشرتي، التي رأت في مخطوطتي اليدوية كتاباً محتملاً، وبصبرها الواسع، ونواياها الطيبة، ونصائحها الممتازة وعزيمتها الداعمة، تحولت تلك المخطوطة المفككة إلى كتاب تحمله عزيزي القارئ بين يديك. أنا مدين لكِ أكثر مما يمكن قوله.

وإلى مساعدتها، أنجيلا بوليدورو، لاستجاباتها المتقدة والسريعة تلبية لكل سؤال طرحته.

شكر خاص كذلك إلى فرجينيا نوري، لتصميمها هذا الكتاب بأسلوب دافئ.

إلى سو تارسكي، الصديقة القديمة، التي ظهرت مجدداً في حياتي، لتشير إلى أنه بإمكاني متابعة مسيرتي ككاتب مرة ثانية (وثالثة)، فتخرج وتساهم، دون إبطاء، ببيع مؤلفيَّ الأول والثاني للأطفال. غيَّرتِ حياتي.

إلى مارغاريت كوينلين، صديقة عزيزة وروح لطيفة، موزِّعة الحكمة في الشؤون الأدبية وسواها، والتي منذ البداية، أيدت خياري ككاتب.

إلى إيلين دبليو ليرو، إلينور غارنر، ميلي لي «الأخت الكبرى»، أدريان فوغلين، وأخص، بوب وساندي وينتروب، الكتّاب والأصدقاء المخلصين، الذين لجأت إليهم التماساً لاقتراحاتهم، نصائحهم وتشجيعهم.

إلى ساندرا يون وبات ليندساي، للطفهما، إلى هيلين فوستر هاريس لدعمها منذ البداية، وإلى نانسي فريتزال، أمينة المكتبة المفضلة لدي.

إلى رفاقي في جمعية كودا (أبناء الصم)، الأصدقاء الطيبين، توم بول، جويس ليندن، وألين بتانكورت، لمشاركتي قصص نشأتكم بين والدين أصمين، وتشجيعي في كل خطوة قمت بها لأطلع الناس على قصتي. وإلى جميع الإخوة والأخوات في كودا، أحترمكم جميعاً وأحبكم.

وإلى فرقة برانديز للأخوة، منذ ستين عاماً ونيّف، إيدي ماينييللو، تشارلي هيرمان، ديك بالداتشي، ليو سوريت، جيم ستيلين، بيل اورمان، لاري غلايزر، تومي إيغان، رون رانيير، مايك لونغ، بات سيركس، روجر مورغان، ديك برغل، دايڤ بورمان، راي ديفو، رودي فيندرسون، ميل ناش، وفي الذاكرة، هانك ثونهورست، فيل غولدشتاين، تشارلي نابولي، موري ستاين، وجاك كيركوود.

إلى جو «بيغ رد» اوكونّور، الذي أصغى بأناة وعطف إلى مشكلة واجهتني خلال إعدادي للكتاب، فاقترح علي بهدوء، كيفية حلها.

وإلى أعز الأصدقاء، الرجل الذي أخصه بأطيب التمنيات، بيل ماكينا، وإلى الذكرى المباركة، لكل من بوب دوموزيتش وديك كولينز، اللذين التقيا بوالديَّ لأول مرة في برانديز، وألحّا عليَّ خلال السنوات التالية بضرورة إتمام كتاب عنهما؛ لأنه بحسب قولهما سيكون جديراً بالقراءة.

وإلى الصديقات في مجتمع الصم التعليمي، ميشيل غيناوي، جينيفر ستوري، ونانسي بون اللواتي أخبرنني خلال كتابتي لهذه القصة، بأنها قصة من الواجب أن تروى.

إلى مدربيّ في كرة القدم: هاري اوسترو في مدرسة لافاييت الثانوية، وإرف هللر في جامعة برانديز. وإلى ذكرى بيني فريدمان الطيبة، الذي اختير مرتين في

منتخب الجامعات لكرة القدم، وضُمَّ إلى قاعة مشاهير كرة القدم الأمريكية، وهو أول مدير رياضي وأول مدرب كرة قدم في جامعة «برانديز»، وإلى هاري ستين، مساعده المحبوب. التقيتكما فتى، وأرشدتماني لأصبح رجلاً.

إلى سيندي بومان، لصداقتها، ودعمها غير المحدود، ولشجاعتها الحقيقية التي قل نظيرها.

إلى أصدقائي في بروكلين، ليني ليفكوفيتش، تومي لاسبادا، فيكو كونفينو، وفي الذاكرة، سام مارك، الذين احتجت إليهم مراراً في معرض إتمامي للجزء المتعلق بطفولتي في بروكلين، من الكتاب، للتأكد من توافق ذاكرتي مع ما يتذكرون بدورهم.

إلى لاري أورباخ وروبرت ساكس، صديقان عزيزان دعماني في كل مرحلة من مراحل إنجاز الكتاب. وتقدير خاص لصداقة ونصائح أقدم أصدقائي، إيڤا وسام بللر جورج وسالي ماكغلينين.

كما تدين هذه المذكرات، وبشكل كبير، لخالي ميلتون وولف، الذي أطلعني قبل سنوات من وفاته، على ذاكرته– وأسفه– لنشأته مع أخته المصابة بالصمم، سارة.

إلى سوزان وولف، ابنة خالي ميلتون، التي شاركتني ذكرياتها حول والدها المنطوي على نفسه، وذكرياتها عن الجدة سيليا التي امتثل بها ميلتون بالقدر نفسه. وإلى ابنيّ عمتيَّ، جيري بوسنر ودايڤيد وروبرتا تراجر، لإخباري ما يتعلق بوالديهما، وإلى إيرفينغ بوسنر، الذي أطلعني على قصص تتعلق بجدي دايڤيد وجدتي ريبيكا.

إلى أولادي، إريك وروبن وكين، الذين أحبوا جديهما الأصمين، والذين أفخر بهم، وإلى حفيدتيَّ أليكس وكيلي، وحفيديَّ ماكس ومايلز، الذين سيقراون الكتاب يوماً ما، ويفهمونه.

كما أنني ممتن لأخي، إروين، الذي استشرته مراراً خلال كتابتي هذه المذكرات، لاستعداده ورغبته في إطلاعي على ما حفظته ذاكرته، وعلى مشاعره العميقة لنشأته بين والدين أصمين.

وإلى زوجتي الرائعة دائماً، كارين، الصديقة الأقرب، وقارئتي الأولى، التي ألجأ إلى نصائحها الموثوقة في كل ما يتعلق بالشأن الأدبي وسواه، والتي في لحظة حيرتي، قالت: «لِمَ لا؟». قرأتِ كل فصل، ثم وبمعرفتِك بوالدي وحبِّكِ لهما، أخبرتِني، وبصدق لا ريب فيه، وبكلمات مقتضبة، بأنني عدلت في كتابة قصتهما. لذلك، والكلمات عاجزة عن التعبير، فإنني ممتن لك إلى الأبد.

«الصامت في الأب ناطق في الابن،
ولطالما وجدت في الابن سراً
للأب، مكشوفَ النقاب».

فريديريك نيتشه

تمهيد

في لغة الصم، تُستهَل إشارة «أتذكُر» بإشارة «أعرف»: فتتلامس أطراف أصابع اليد اليمنى مع جبين الوجه.

لكن لا يُكتفى بهذه الإشارة، إذ تُستتبع بإشارة «تبقى»: وهنا يلمس إبهام اليد اليمنى إبهام اليد اليسرى، وفي وضعية التلامس هذه، يُحرَّكُ الإبهامان إلى الأمام، باتجاه المستقبل. وبالتالي، فمعرفة تغنم بها، لا تُفقد، وتبقى إلى الأبد: طيّ الذاكرة.

أكثر ما يتجلى بوضوح في ذاكرتي، هما يدا أبي.

نطق أبي بيديه. كان أصماً. كان صوته في يديه.

ويداه مستودع ذكرياته.

-1-
رنين الصمت

أول لغة تعلمتها، كانت النطق بالإشارة.

ولدت بعيد منتصف ليل الأول من يوليو عام 1933، طفلاً بكراً لأبويَّ. ولئن كانت إحدى قدميَّ تخطو نحو النصف الثاني من ذلك العام المشؤوم، فإن القدم الصغيرة الأخرى كانت تغادر مترددة، نصفه الأول. كان تاريخ مولدي، عند منعطف الروزنامة، استعارة لما ستكون عليه حياتي المقبلة، فأحظى بقدم مسحوبة بشكل دائم، إلى الوراء، إلى ذلك العالم الأصم، عالم أبي وأمي التي دلفتُ من رحمها، وقدم أخرى تحاول الخطو هرباً بي نحو العالم الأكبر، عالم السمع، العالم الذي قُدِّر لي الانتماء إليه.

وسأدرك بعد سنوات عديدة، كم كانت مسألة إنجاب طفل، بالنسبة الوالديّ الأصمين، تعبيراً عظيماً عن تفاؤلهما، إذ تزامن ذلك مع الانحسار المؤقت لظلال الكساد الكبير[1] السوداء التي عصفت بالمجتمع الأمريكي ككل.

أقمنا في بروكلين، بالقرب من كوني آيلند، وكانت الرياح في بعض أيام الصيف، تهبّ في الجوار، فتتيح نافذةُ المطبخ المشرعة، والستائرُ المسحوبة للأعلى على بكرات، لأنفي، التقاطَ رائحة الملح الآتية من المحيط، فأتخيلها مكسوة بطبقات من غاز الخردل، وقطع النقانق المشوي (وقد يكون ذلك صنيع مخيلتي فقط).

تألفت شقتنا من أربع غرف، في الطابق الثالث من بناية من القرميد الأحمر

(1) الكساد الكبير: أزمة اقتصادية بدأت عام 1929 في شارع وول ستريت في الولايات المتحدة الأمريكية لتمتد إلى العالم أجمع حتى أواخر الثلاثينيات، وتساعد على نشوب الحرب العالمية الثانية. في عام 1933، شهدت السلع الزراعية في الولايات المتحدة انخفاضاً في الأسعار بلغ أفضل مستوياته بالنسبة للناس معيشياً لكنه لم يلبث أن ارتفع مجدداً.

شيِّدت حديثاً. وقد رُصِّعت البناية من الخارج، بسلالم برتقالية اللون، خصصت للهروب في حال نشوب حريق. لاحظ والداي هذه البناية وهما يتمشيان ذات يوم في الحي. وعلى الرغم من أن المالك كان صحيح السمع، ضيق الصدر، إلا أن هذا لم يحل دون تفاوضهما معه بشأن استئجارها. وبالفعل، تمكّنا من إتمام المسألة بمفردهما، رغم اعتراض أهلهما على الأمر، إذ اعتبر آباؤهما أنهما «لن يتمكّنا من تدبر الأمر» كونهما «أصمين ومعاقين» و«عديمي الحيلة» و«يمكن تعرضهما للغش بسهولة». لكن والديَّ كانا قد عادا للتو من شهر عسل أمضياه في واشنطن، وتزامنت عودتهما مع تبرعم أزهار شجر الكرز، ذلك التفتح الصامت الملوّن، الذي دفع أمي لاعتباره فألاً مناسباً لزواج أصمين سوف يتوَّج لاحقاً بالنجاح.

ستظل الشقة «3– أ»، المنزل الوحيد لأبي، الذي لن يعرف سواه مسكناً طوال حياته الزوجية. وستبقى غرفه الأربع، المكان الأوحد الذي سيعيش فيه، ويحبّ زوجته الصماء، ويربّي طفليه صحيحي السمع، قبل أن يغادره ذات يوم، بعد أربعة وأربعين عاماً على وصوله إليه، في سيارة إسعاف، دون عودة.

أخبرتني يداه في أحد الأيام، وبأسى وحزن، بقصة إصابته بالصمم. كان قد لملم أجزاء تلك القصة من وقائع كشفتها له أخته الصغرى روز، خلال فترة إقامته في كنف العائلة. وكانت روز بدورها، قد سمعت القصة عن أمهما. إلا أن اطّلاعه على تفاصيل قصة إصابته بالصمم، عن طريق أخته صحيحة السمع، كان موضع امتعاض دائم له في حقيقة الأمر.

فقد ولد أبي عام 1902 طفلاً يتمتع بحاسة سمع سليمة، إلا أنه أصيب في سن مبكرة بالسحايا الذي ضرب جهازه العصبي، مما دفع بوالديه دايفيد وريبيكا– اللذين كانا قد وصلا حديثاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية قادمين من روسيا، للإقامة في حي برونكس– إلى الاعتقاد بأن وفاة طفلهما وشيكة.

عبثت الحمى بجسده الصغير أكثر من أسبوع. غير أن التغطيس المتكرر بالمياه الباردة خلال النهار، إضافة إلى الخرق المبللة والشبيهة بالأكفان التي غطّت جسده ليلاً، تكفلت جميعها بإبقائه على قيد الحياة. فانحسرت عنه الحمّى في نهاية المطاف، إلا أنه كان قد أصبح أصماً. ومنذ تلك الحادثة، أضحى الطفل الصغير فاقداً تماماً لإحدى حواسه: لا صوت سيتناهى إلى سمعه طيلة سني حياته المتبقية. إعاقته العضوية هذه، سترسم وبصورة دائمة، خلال مرحلة شبابه، سؤالاً راسخاً في ذهنه حول إصابته وحده، دون أفراد العائلة جميعاً، بالصمم.

أنا الابن المتمتع بحاسة سمع الصحيحة، اختلست النظر ذات مرة إلى يديه وهما تومئان بكرب في الهواء: «هذا ليس عدلاً».

أما والده، فبالكاد استطاع التواصل معه. وبالكاد نجح الابن وأبوه في أن يتحادثا معاً باستخدام الإشارة. فلم يتخطّ قاموسهما المشترك حدود الإشارات الإيمائية «كُلّ» «اهدأ» و«نم». وهي جميعها إشارات إن دلت على شيء، فعلى فعل الأمر. أخفق الاثنان في إيجاد إشارة للتعبير عن المودة بينهما، ففارق جدي الحياة من دون أن يتمكن من إتمام محادثة واحدة معه تنطوي على قدر من الأهمية، علماً بأن أبي هو مولوده الأول، ابنه البكر.

أما أمه وبخلاف أبيه، فقد استحدثت إيماءة خاصة بها، للتعبير عن حبها له. وكانت غالباً ما تستعملها، فهي من ابتكرها بنفسها داخل المنزل. وقد علمتُ منه في ما بعد، أن أحاديثه مع أمه، وعلى الرغم من قلّتها خلال سنوات حياته، إلا أنها تميزت في الوقت عينه بوفرة محتواها وعمقها. لكنّ مجموع الإشارات المتفق عليها بينهما، لم يشكّل الوسيلة الحقيقية التي اعتمدتها أمه للتواصل معه. كان ثمة بريق خاص في عينيها، يتلألأ كلما نظرت إليه، فيشكل الإلهام الأبرز لتفاهمهما معه. ونظرتها تلك، ستكون الشيفرة الخاصة بهما، الشيفرة التي

سيحتفظ بها وكأنها ملكه وحده.

وكما كان الأمر مع والديه، فإن شقيقه الأصغر ليون، وأختيه الصغيرتين روز وميلي، لم يتلقّ أيّ منهم أي تعليم حول مفردات الإشارة الأساسية. فكانوا حاضرين خلال سنوات حياته، كأغراب لا إخوة. وحين توفي والدي، وقف شقيقه ليون على قبره وصرخ لافظاً اسمه، وكأن أخاه المتوفى، الأصم، قد مُنح في تلك اللحظة القدرة على سماع اسمه منطوقاً على شفتي أخيه.

في عام 1910، أرسله والداه إلى مدرسة فانوود الداخلية، ولم يكن يتجاوز من العمر حينذاك ثمانية أعوام. وفانوود هذه مدرسة ذات نظام عسكري، مخصصة للأطفال الصم. مما جعله يظنّ أن والديه يضمران سوء نية تجاهه، وأن القصد من فعلتهم تلك، نبذه، وأنهما قاما بذلك تخففاً من عبء الاعتناء بطفل «معيوب». في الأيام الأولى من إقامته هناك، لم يكن يعرف النوم سبيلاً إلى عينيه، إلا وهما مبللتان بالدموع. غير أنه أدرك لاحقاً، وببطء أكثر من أي وقت مضى، أن انتسابه لفانوود، لم يكن سببه تخلي والديه عنه، بل لأنهما أرادا من خلال ذلك، إنقاذه. في تلك المدرسة، انتابه شعور لم يسبق أن عرف مثله قبلاً، فللمرة الأولى في حياته، يرى نفسه محاطاً بأطفال يشبهونه تماماً. فيفهم أخيراً أنه ليس وحيداً في هذا العالم.

وعلى أي حال، فإن التعليم الذي حظي به في فانوود، كان أشبه بمزيج من التبريكات. إذ كان الأطفال الصم، في تلك الفترة، وعلى غرار أغلب المدارس المخصصة لذوي الحاجات السمعية، يتلقون تعليمهم على يد أساتذة يتمتعون بحاسة سمع سليمة. وكانت مهمة أولئك المدرسين تلقين التلامذة لغة شفوية. فالمصابون بالصمم، ليسوا خرساً بالضرورة، إذ يتمتعون بالأوتار الصوتية، ويمكنهم الكلام أيضاً. لكنّ مشكلتهم تتمثل في أنهم لا يستطيعون التحكم بأصواتهم المنطوقة، وبالتالي فإن تلقينهم لغة الأشخاص العاديين، مسألة في

غاية الصعوبة. وقد بذل أبي وزملاؤه في الصف، قصارى جهدهم للتعاون مع معلّميهم، إلا أن أحداً منهم لم يتمكن على الإطلاق من التكلم بالشكل الذي يؤهله لأن يكون مفهوماً لأي شخص متوسّط السمع على الأقل.

وزيادة على كون تلك التمارين المدرسية، عقيمة ومصدر كدر للأولاد الصم، فقد حظر على الصغار في الوقت نفسه، وبشكل صارم، استخدام لغة الإشارة. ولطالما اعتبر الأساتذة، أن لغة الإشارة وسيلة بدائية للتواصل، وهي غير ملائمة إلا لمعدومي الذكاء.



والدي، أبواه، أخته روز، وأخوه ليون عام 1907

لم يكن قد أقر في الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام 1960، مرسوم «آي. أس.أل» International Sign Language (اللغة العالمية للإشارات) الذي منح تلك اللغة شرعية تامة وخصوصية. لكن أطفال فانوود بمن فيهم أبي، لم ينتظروا

حتى صدور ذلك التشريع، إذ استطاعوا، وقبل ذلك بوقت طويل، أن يخلصوا إلى تلك اللغة بأنفسهم. في عنبر النوم، كان الأولاد الأكبر سناً يلقنون نظراءهم الأصغر، لغة الإشارة التي تعتمد على البصر فحسب لا على قراءة الشفاه.

ومع تعلمه الإشارات، تلاشت الحدود التي كانت تحيط بكونه الذهني الأصمّ، وتعزله. كانت كل إشارة جديدة يتعلمها، تتراكم في ذهنه بجانب إشارة أخرى، موسِّعة من حجم فضاء ذلك الكون المغلق، إلى أن يتخم ذلك الفضاء وكأنه يريد أن ينفجر ابتهاجاً بقدرة صاحبه على الفهم.

«في فتوّتي، أُرسلت إلى مدرسة الصم، لم يكن في جعبتي في ذلك الوقت، أي إشارة بالمعنى الفعلي للكلمة»، قال لي ملوحاً بيديه في الهواء وهو يستعيد صوراً من ماضيه، «لم أكن أعرف سوى النزر اليسير من الإشارات التي كانت بطبيعتها ذات اختراع منزلي. كانت تلك الإشارات أشبه بظلال على حائط. أي منها لم يكتنفه معنى حقيقي. لذلك، ألفتُني متعطشاً في مدرسة الصم لتعلم لغة الإشارة. فالرموز والإيماءات جميعها بدت جديدة بالنسبة لي. ومثّلت الإشارات قوتاً تغذيت منه، قوتاً لعينيّ وذهني. كنت أستوعب بنهم كل إشارة لأجعلها ملكاً لي».

كان والدي نهماً للتواصل. تلك الحاجة التي لم ينقطع أوارها على مدار يومه، والتي لم تُخمد مع انطفاء أضواء عنبر النوم ليلاً. حتى الظلام لم يمنعه من استخدام الإشارة. كان يومئ لنفسه الإشارة الخاصة بالنوم. وادّعى أنه ما إن كان يدخل في النوم، حتى تراوده أحلام، إنما بالإشارات.

تمكن والدي من تعلم حرفة الطباعة في مدرسة الصم. الحرفة المثالية للرجل الأصم، كما كان يُظن في ذلك الوقت، نظراً لضجيج الآلات المؤلم والذي قد يصم آذان الناس الطبيعيين. فالمعلمون في فانوود لم يعتبروا الأولاد الصم أذكياء أو نبهاء لتعلم أي مهنة مرموقة. وهؤلاء بالنسبة لهم يفتقرون لقدرة الأولاد

صحيحي السمع. هذه هي الرسالة الوحيدة التي لم يبح بها المدرِّسون علانية في ذلك الوقت. مارسوها فقط بمعنى أنهم لم يتيحوا للصغار، سوى فرص إتقان مهن كالطباعة، أو ترقيع الأحذية أو دهن البيوت، وكلها مهن تستلزم بطبيعة الحال مهارة يدوية.

وبتخرجه في تلك المدرسة عام 1920، سيصبح أبي مؤهلاً للحصول على أول عمل له لقاء أجر محدد، وهو العمل الذي سيلازمه طيلة حياته.

«كنت محظوظاً لحصولي، خلال فترة الكساد الكبير، على وظيفة متدرب في صحيفة نيويورك دايلي نيوز. كنت واثقاً بأن ليس للأمر علاقة بكفاءتي بل بحقيقة أنني محض أصم، فبذلك لن تشكل لي مكابس الطباعة مصدر إزعاج، ولا قعقعة آلات اللينوتايب[1]، لكنني لم أكترث لذلك المعيار. كما لم أكترث أيضاً لحقيقة تقاضي العمال الصمّ أجراً أقل مقارنة بزملائهم صحيحي الحاسة، الكابتن باترسون، رئيس العمال، كان على يقين بأن الأمر لن يثير احتجاجنا، وحتى لو حدث، فبأي وسيلة صوتية سنحتج؟ كان متأكداً من أننا سنكون سعداء بسعادة لنيلنا عمل ما، مقابل أي أجر. كنا صُماً. وكان باستطاعته السمع. كان محقاً. فالعالم لا يقوده سوى أناس صحيحي السمع.

«اتسمت تلك الأوقات بقسوتها عليَّ. وبمرور الأيام، رحت أقدم إلى والدتي جزءاً من راتبي الأسبوعي الضئيل، الذي كنت أتلقاه في مظروف ورقي. بداية، ساهمت بالمال لقاء غرفتي وطعامي، ثم رحت أتكفل بتقديم المزيد لسدّ مصاريف المنزل، وأكتفي بالقليل المتبقي لي بعد كل ذلك. كان والدايَ بوابيَّ البناية التي نسكنها، ولذلك لم يجنيا إلا القليل من المال. وكم تحطم قلبي لرؤية أمي جاثمة على يديها وركبتيها، وهي تتحرك صعوداً ونزولاً بين الممرات، غاسلة الأرضية الخشب بمزيج الماء الحار والصابون، الذي جرّته

(1) اللينوتايب: المنضدة السطريّة، وهي ماكينة لتنضيد الأحرف المطبعية في سطور مسبوكة.

خلفها في دلو خشبي كبير. وكانت يداها دائماً حمراوين مسلوختي الجلد، وصورة يديها المتقرحتين بفعل الفرك لا تفارق ذاكرتي إلى يومنا هذا. لكن، عندما مُنِحتُ في النهاية بطاقة العمال النقابية، تحصّلتُ على راتب جيد، بفعل قانون النقابة، فبتّ أخصّص مبلغاً كافياً لها كل شهر، ولم تعد بحاجة إلى الاستمرار في عملها المضني ذاك. لا يمكنك أن تتخيل مبلغ فخري بنفسي وأنا، ابنها الأصم، أفعل ذلك كله من أجلها».

شرح لي بأنه، بصفته متدرباً، كان عليه أن يغطي وردية الليل. كانت تلك الوردية تعرف باسم «وردية السلطعون» لسبب لم يعرفه حتى يفسره لي. لكنني وباعتباري صبياً، عللت الأمر بأنه إذا كان عليه أن يعمل أثناء الليل، بينما الجميع نيام، بما في ذلك أسماك المحيط، فلا شك بأن من يظل مستيقظاً حتى ساعة متأخرة، هو السلطعون، ومن هنا نفهم التسمية.

وظيفته عامل طباعة، هي الوظيفة الوحيدة التي شغرها طوال حياته، وأحبها. لازم عمله في تلك الصحيفة حتى تقاعده بعد أربعين عاماً. وخلال تلك الفترة الطويلة، تشاطر مهامه جنباً إلى جنب زملاء يتمتعون بسمع سليم، لكنه لم يتمكن من معرفة أي منهم في الواقع. فقد عومل من قبلهم، ومن قبل الكثيرين من العالم السمعي، ككائن غريب– بدائي، يتسم بعجزه عن النطق والتحدث، وافتقاره إلى الفكر: رجل عليهم تجنبه قدر الإمكان، وإن لم يستطيعوا، فليتجاهلوه.

أمضى سنوات عديدة في عمله متدرباً قبل أن يُعطى البطاقة النقابية. ذلك الحدث كان أكثر لحظات حياته مدعاة للفخر، وقد اعتبر نيله البطاقة حجة دامغة على أنه نافع كأيّ امرئ سليم السمع. وفي الأيام المظلمة إبان الكساد الكبير، كان يُصرف من الخدمة عامل واحد من بين أربعة، أما هو وبرغم صممه، فقد استطاع أن يعيل نفسه.

وقد آثر كذلك أن يسوِّغ لي الأسباب التي دفعت به ليصبح معيلاً لزوجة ورب أسرة. فهو تعب من عيشه وحيداً في عالم السَمْع. وفكر بأن الوقت حان كي يضع أسس عالمه الصامت، العالم الذي لا يمكن بدؤه إلا مع زوجة صماء.

وذات يوم شتوي كئيب، كوَّن المطر فيه طبقة جليدية على نوافذ شقتنا في بروكلين، وأثناء تحلقنا حول طاولة المطبخ، شرعت يداه بإخباري بقية قصته، التي ستولد فيها بذرة وجود ولده مايرون:

«كانت سارة شابة يافعة. محاطة دوماً بالكثير من الأصدقاء. ميالة إلى المرح. رأيتها للمرة الأولى على شاطئ كوني آيلند. وكانت فتاة ضحوكاً. افتتن بها الفتيان الصم. بل وحتى أولئك الفتيان الذين يسمعون. وقد اكتظ الشاطئ بالفتيان الوسيمين، ممن تمتعت أجسامهم بعضلات وبشرة سمراء بلون الشوكولا. كان يمكنهم القفز والوثب فوق ظهور بعضهم بعضاً. كما استطاعوا تأدية حركة الوقوف على اليدين.

«وبالمقارنة بهم، كنت أكبرُهم سناً. لم أكن مفتول العضلات، ولا أتقن الوقوف على اليدين وما كنت لأفعل أساساً حتى ولو توقفت حياتي على ذلك. لم تكن بشرتي بنيّة اللون سمراء. وبصراحة، وددت الحصول على هذا، غير أن محاولتي باءت بالفشل، أصيب جلدي بتقرحات من الشمس، وأصبح جلدي أحمر اللون. ثم أخذ يقشر.

ذلك لم يبد مهماً. فالفتيان الوسيمون، سمر البشرة، ضخام العضلات، سعوا فقط للمرح مع سارة. لم يكونوا جادين. إذ لم يحظ أي منهم بوظيفة براتب. لذلك كان لديهم المتسع من الوقت للهو والاهتمام بشد عضلاتهم وإبرازها، واكتساب بشرة سمراء بالاستلقاء في الشمس.

أما أنا، فكنت رجلاً جدياً. كان لدي عمل. عمل جيد. أفضل عمل. لم أعد مجرد عامل طباعة متدرب. فقد مُنِحْتُ البطاقة نقابية، وقد تساويت تماماً

والعمال الذين يسمعون.

لم أسع خلف سارة للهو. أردتها زوجة لبقية العمر. أردتها أماً لأطفالي، شريكة لي إلى الأبد. أردت أن نكون أصمّين معاً في عالم السمع، لنؤلف عالماً خاصاً بنا، عالماً هادئاً، صامتاً.

أردتُنا قويين معاً، قويين من أجل أطفالنا القادمين».

ما إن توقف المطر، حتى قلّمت أشعة الشمس النحيلةُ المنضديةَ، تبسَّم أبي بينه وبين نفسه، ويداه ساهمتان في التأمل..

«ربما كان حرياً بنا أن نحظى ببعض المتعة القليلة قبل إنجاب الأطفال».

يداه، الغارقتان في تفكير حالم، هبطتا الآن ساكنتين على الطاولة، وقد غمرتهما أشعة الشمس الذهبية. جلست مراقباً إياهما صامتتين، منتظراً بصبر أن تستأنفا سرد القصة. فقد أحببت تلك اللحظات العذبة التي أمضيتها مع أبي، وانجذبت إلى القصص التي خبأتْها يداه.

وحين دبَّت الحياة مرة أخرى فيهما، أخذتا تصفان ببلاغة أصيل يوم ربيعي دافئ من عام 1932 في بروكلين.

«عرفت أنه وجب عليَّ تكوين انطباع جيد لديها. لذا كان عليَّ أن أهندم نفسي جيداً. فلبست أفضل بزة لدي. بزتي الوحيدة، في الواقع. كان أثر الكساد الكبير لا يزال عميقاً. وكنت شديد الحرص في كل دولار أنفقه».

يروي لي أن بزته تلك، خيطت من الصوف الخالص، وقد كلفه ثمنها زهاء أسبوعين من العمل في المطبعة. تصميمها الطروب كان من الغرابة بما لم يتفق وذلك الشعور بالفزع، الذي أخذ يتنامى في نفسه ذلك اليوم وهو منطلق نحو الشقة حيث تقطن سارة وعائلتها. فقد كتب لوالدها في وقت سابق يستأذنه القيام بزيارة للعائلة».

يتكشف المشهد شيئاً فشيئاً، بحيوية سينمائية، بفضل يدي والدي وهما



أمي في كوني آيلند

تستعيدان كل خطوة قام بها في سبيل سعيه ذلك اليوم.

فها هو ينزل وسط الحشود، عبر الأدراج، تاركاً خلفه منصة قطار الأنفاق، فيما العرق يرطب إبطيه. ومن المحطة يخرج مندفعاً وسط حراك متسوقي السبت العجولين، المسعورين لإتمام مشترياتهم حتى اللحظة الأخيرة قبل موعد وجبة المساء.

أما رائحة الملح الآتية من المحيط الأطلسي، فتلامس سقيفة المحال التجارية، بل وحتى الأكشاك الموضوعة في الهواء الطلق، مذكِّرة والدي– وكأنه بحاجة إلى من يذكره– بالمسافة البعيدة التي كان عليه اجتيازها في ذلك اليوم الدافئ. فقد قدم من منزله الحميم في القرية الشمالية المورقة أشجارها، الممتدة حتى برونكس، واستقلّ شاحنة كبيرة، ومن بعدها ثلاث محطّات في قطار الأنفاق، ليصل إلى أطراف بروكلين البعيدة، وتحديداً إلى شاطئ هونكي– تونك في

كوني آيلند. قدم إلى هنا في ذلك اليوم الدافئ من فصل الربيع، والعرق ينساب على ظهره متكتلاً أسفل عموده الفقري، قابضاً بإحكام بيديه الرطبتين على باقة الزهور الذابلة التي ابتاعها من من أحد المتاجر، ليقابل بعد الظهر، ولأول مرة في حياته، عائلة الفتاة التي اختارها لتكون زوجة له.

لكن الفتاة التي ستصبح أمي، المنتظرة في المنزل، معتقدة لسوء الحظ، بأنه مملّ إلى درجة قاتلة وكبيراً في السن، بالإضافة إلى إحساسها بأنها لا تزال صغيرة جداً على الزواج، فهناك الكثير من المرح الذي عليها الاستمتاع به برفقة أولئك الفتية الجذابين، الذين يتحلقون حولها، كما النحل حول خلايا العسل، عند نهاية أسبوع على الرمل الحار في الخليج رقم 6، وأيديهم تومئ بجموح في الهواء، كلّ على سجيته، للفت انتباهها بشكل حصري. كما ليس بمقدورها أن تنأى بعقلها بعيداً عن صورة الفتى الأشقر صحيح السمع، الذي



أبي حوالي عام 1932

استمتعت كثيراً لإبدائه اهتماماً بها، والذي قال لها إنه يحبها.

مصوِّبا بعصبيةٍ نظراته الخاطفة على لوحة تحديد الاتجاهات، يسير أبي نحو جادة فسيحة صاخبة، لا تشبه بشيء شارع برونكس الخالي عادة من الصخب. يداه إلى جانبيه، تتدربان على الحجج التي عليه الخروج بها لإقناع الفتاة ذات الشعر الأسود ووالدها، بأنه رجل مناسب لتعهد إليه بمستقبلها. وكان قد دأب على تنظيم هذه الحجج وترتيبها لصالحه، طيلة الأسبوعين الماضيين. لديه عمل ثابت وبطاقة نقابية. وهو ناضج رزين. هو رفيق مخلص وجدير بالثقة، رصين في الحالات الطارئة. يستطيع القراءة. يستطيع الكتابة. يستطيع استخدام الإشارة بطلاقة. وإن قبلت به، فسيحبها إلى الأبد. وجد نفسه متأثراً بهذه المؤهلات لشدة ما كررها على نفسه. إنه واثق من نفسه وها هو آت على قدميه. وإلى جانب مزاياه المهنية، فإن الشعر يغطي جميع أنحاء رأسه، وهو مفروق عند المنتصف تماماً، وله شارب متأنق، مما يجعل منه شاباً ذا هيئة ممتازة.

بعد أن يجتاز من محطة المترو خمسة عشر مبنى ضخماً مكتظاً بالسكان، سيسلك طريقاً اصطفت عليه الأشجار في خط واحد، فيعثر على المبنى السكني، حيث تقطن هي وعائلتها. في واجهته رواق صغير ضيق، يؤدي به إلى طوابق خمسة يصعدها المرء سيراً على الأقدام، في تصميم شبيه بالدمبل تماماً وضعَ الشققَ السكنية مقابل بعضها بعضاً.

يصعد إلى الأعلى، عبر الدرجات الحجرية في رواق البناية. عبر خمس مجموعات متواصلة من درجات السلم الخشبي الإسفنجية. يجتاز الممرات المشبعة برائحة الطبخ وغسيل الثياب، ورائحة المهاجرين المقيمين خلف الأبواب. فور وصوله إلى الباب رقم «5– ب»، يتوقف. مستقبله يكمن خلف هذا الباب الخشبي داكن اللون. يفكر: ماذا لو لم ينل استحسان والديها؟ ماذا

لو صُدَّ طلبه؟ ماذا لو قدّرت العائلة أنه شديد الصمم؟ ماذا لو لم يُمنح سؤاله بركتهم؟ كيف سيصمد إن لم يستطع الحصول على هذه الفتاة الرائعة زوجة له؟ سيفعل أي شيء إذن، ليفوز بموافقتهم. حتى إنه مستعد للانتقال إلى بروكلين، إن كان هذا ثمناً يتوجب عليه دفعه في مسعاه.

يطرق الباب الذي يُفتح عقب ذلك. يستقبله رجل مكتنز الجسم، متأهب بشكل صارم، لا ابتسامة على وجهه. سترته وبنطاله غير متطابقين. يلوح له بكفيه الكبيرتين الملطختين ببقع الطلاء، راسماً في الهواء، مجموعة إشارات خرقاء وسطحية. لا يفهم والدي كلمة مما يحاول الرجل قوله بيديه، لكنه يدرك أنها تحية ما، ودعوة إلى دخول الشقة.

فور دخوله الشقة، يلتقط أبي وبنظرة خاطفة، صورة عن المكان بالمجمل. من الأمام إلى الخلف، ومن جوانب الشقة إلى صدرها. المكان ممتلئ بقطع أثاث كبيرة وغير متطابقة، مصنوعة من الخشب داكن اللون، المصقول ليتألق بشكل فائق. وهناك على الأقل قطعتان من كل صنف، والمسافة الفاصلة بينهما بالكاد تتيح للزائر فسحة للتحرك. بدت الشقة بالنسبة لأبي، أقرب إلى متجر للأثاث في الحيّ الشرقي، منه إلى مكان سكني. لكن ما لم يدر بخلده هو أن يكون الوالد، قد استأجر كل هذا الأثاث في صباح اليوم ذاته، ورتّبه في الشقة اعتقاداً بأن الأمر سيثير إعجاب الشاب الآتي لطلب يد ابنته. إلا أن هذا المخطط سيكون له وقع معاكس، فيصاب أبي بالارتباك.

جلست والدتي إلى إحدى طاولتي غرفة الطعام، وما إن بدأ أبي يومئ لها تحيته بحماسة، حتى انفجرت بالبكاء. أما بقية العائلة: الأم، الأبناء الثلاثة، والابنة الأخرى، فاكتفوا بالجلوس على كنبتين، محملقين بأبي بلا أي تعبير.

مشوشاً بفعل وفرة الأثاث، والنظرات الحجرية المصوبة نحوه، ودموع أمي، تساءل أبي: أيّ موقف هذا الذي زُجَّ فيه؟ انتقى في النهاية مقعداً على

واحد من اثني عشر كرسياً تحيط بطاولتيّ الطعام، مواجهاً بذلك العائلة. ودون إنذار مسبق، كما في ألعاب كوني آيلند التي تعمل بقطع النقود المعدنية، عادت اللوحة المتجمّدة قبالته إلى الحياة. كسر أفراد عائلة أمي صمتهم فجأة وشرعوا يحركون أيديهم وأذرعهم في الهواء بإيماءات شديدة الحماسة. كانت نيتهم جعل أبي مستريحاً، غير أن إشاراتهم منزلية المنشأ، بدت وقتذاك بمثابة كتابة يونانية تجلت أمام عينيه. مما حمله على التساؤل: ربما هذه لهجة سكان بروكلين للإشارات.

لم يكن أمامه إلا أن يبتسم بأدب، ويومئ برأسه بين الفينة والفينة، بتوقيت يعتقده مناسباً لذلك.

مسحت أمي دموعها، وخصَّت أبي، ولأول مرة منذ أن فتح والدها باب المنزل للزائر، بابتسامة خجولة مترددة. تبدد كل شك وارتباك من ذهنه في تلك اللحظة. أخذ يخاطب والدها شارحاً له وضعه، مستخدماً لغة بسيطة من الإشارات المرئية ومدوّناً بعض الملاحظات. إلا أن الوالد لم يفهم كلمة مما قاله الشاب. فهو لا يفقه لغة الإشارة، واعتقد بدوره، أنها لا بدّ لهجة الصم في برونكس. أما الملاحظات التي دوَّنها أبي، فبدت مبهمة إلى حد كبير بالنسبة له.

مع ذلك، كانت ابتسامة رضا تتكشف بين الحين والآخر، من خلف ستار اللحية ذات الشعر الرمادي الأشعث لوالد الفتاة، محركاً رأسه بتناغم مع إيماءات والدي العريضة. مما حدا بأبي الذي اكتسب المزيد من الجرأة الآن بفضل قبول العائلة ظاهرياً له، إلى أن يوسع نطاق إشاراته ويطلق العنان لها، فيصف مكانته كعامل طباعة في «نيويورك دايلي نيوز»، وعمله في «وردية السلطعون»، ثم انتقاله للعمل النهاري فقط، وتملصه من المأزق الليلي، بسبب نيله البطاقة النقابية.

تكفلت أمي بنقل ما قاله أبي، إلى لغة الإشارة المنزلية الخاصة بهم مما جعل والدها يبتسم برحابة صدر، ويهز رأسه بحيوية. تملؤه الثقة الآن بأن هذا الشاب الأصم الرزين، يجسد الاستجابة الإلهية لصلواته. إنه رجل من عالم ابنته، رجل سيكون قادراً على الاعتناء بها.

لم يعد لدى أبي ما يقوله، شرح وضعه بالكامل لوالدها. لكن ماذا عنها هي؟ سأله والدي إن كان باستطاعته اصطحابها في نزهة خلال الفترة المتبقية من بعد الظهر. ربما نزهة على الأقدام، على الممشى الخشبي المحاذي للشاطئ. «أجل أجل، بكل سرور»، اومأ الوجه ذو اللحية موافقاً.

سار أبي وفتاته الجميلة، من كوني آيلند إلى شاطئ بريغتون، على الممشى الخشبي الذي اعتمداه في طريق العودة أيضاً ليبلغا المكان الذي بدأت منه نزهتهما. وعلى الرغم من كون الفتاة، إحدى خريجات مدرسة لكسينغتون



أبي وأمي في صورة لهما على الممشى الخشبي في كوني آيلند

للصم والبكم، واتقانها لغة الإشارة بطلاقة، مثل والدي، إلا أنهما لم يتبادلا سوى النزر اليسير من الكلمات. فقد استراحا على مقعد مقابل البحر، محدقين باهتمام بالغ بالأمواج المتدحرجة أمامهما، واحدة عقب الأخرى، فيما يدا كل منهما، تستقران بهدوء في حضن صاحبها.

وما إن اوشك نور النهار على التلاشي فوق كوني آيلند، مشيراً إلى مستهل نهاية ذلك اليوم المهم جداً، حتى أمسكت كفًا عامل الطباعة القويتين، أبي، بيديِّ أمي، وضغطت أصابعها برقة. وبدورها، شدت الفتاة على أصابعه متعمدة أن تبادله بعضاً من الضغط المتواضع قياساً بقوة يديه.

بعد أسبوع من هذه الزيارة، كان ثلاثة عمال أشداء، يسلكون الأدراج الخشبية للطوابق الخمسة، ويقومون بنقل الأثاث المترف، المُستأجر قطعتين من كل صنف. أدى هذا الأثاث مهمته على ما يرام، إذ تقدم أبي بطلب يد سارة للزواج، وظفر بموافقتها. وبعد نقلهم الأثاث المستأجر، يعود الرجال بالأثاث الأصلي إلى الشقة، الرث، بقطعه غير المتلائمة مع بعضها بعضاً، والمؤلفة هذه المرة من قطع إفرادية، بدلاً من مزدوجة.

تزوج لويس وسارة بعد ذلك بوقت قصير. ولم يكد يمضي على زفافهما تسعة أشهر، حتى كانت ولادتي في مستشفى كوني آيلند، في خضمّ عاصفة رعدية.

شرعت يداه بوصف ملامح ذلك اليوم المروّع. بدتا تدرآن شيئاً ما، شيئاً مجهولاً سبب ذلك الخوف. «كان يوماً رهيباً» أشار مسنداً يديه إلى صدغيه، «شنيعاً».

كان أشد أيام الصيف قيظاً. صعقت بروكلين بأكملها من فرط ارتفاع درجات الحرارة. كانت الشمس من الغضب بحيث شوت رمال كوني آيلند، وحوّلت المحيط الأطلسي بزرقته، إلى بحر من اللون الاحمر المنصهر. وعند

الغسق، أكملت الشمس الحارقة سيرها من بروكلين إلى كاليفورنيا، ساحبة معها الضوء، ومخلفة وراءها القيظ.

وصفت لي يداه كيف أخذ يخطو فوق مشمع الأرضية القاتمة للمستشفى، من أول الرواق الخالي من الهواء، إلى آخره، قام بقياس خطواته: مئة خطوة ذهاباً، ومئة مثلها إياباً. وكان في كل خطوة، يومئ لنفسه إحباطه وخوفه.

جيئة وذهاباً وجيئة وذهاباً، أخذ يذرع الرواق ماراً بالغرفة التي ترقد فيها زوجته الحامل، باكية. كان قلقه يتعاظم. فمنذ عشر ساعات وهو على هذا المنوال، منذ أن أُدخِلت زوجته إلى المستشفى، بعد أن شقت مياه الرحم طريقها خارجة من جسدها على نحو مفاجئ، منذرة بولادة وشيكة لطفلهما الأول.

ما كان ليقض مضجعه الطفل الذي يُنتظر وصوله. انشغل فقط بزوجته الممددة على الملاءات المبللة بالعرق، داخل غرفة لم يُسمح له بدخولها، وإن حدث وأُبلغ أنباء عن حال زوجته، فهي قليلة جداً.

لكن، وبعد أن غربت الشمس، خيّم منخفض جوي بارد على بروكلين، متسبباً بتدنٍ في الحرارة قُدِّر بأربعين درجة. فالهواء البارد حط رحاله في أعقاب الكتلة الساخنة المعتمة التي توارت الآن. وشقّ البرق السماء، وهطل مطر في سيول باردة، فوق الإسفلت الملتهب لشوارع كوني آيلند. لينقلب النهار ليلاً حالك الظلمة.

سرعان ما امتلأت الشوارع المكسوة بالإسفلت خارج المستشفى، بين الرصيف والرصيف المقابل، بسيل جارف أحدث فيضاناً بعد أن أخفقت المجاري في استيعاب المياه الطافحة، التي انحسرت، لترتفع فوق إطارات السيارات المتوقفة، شاقة طريقها نحو السراديب المجاورة. العاصفة الغاضبة المشحونة، ولّدت رياحاً عاتية اخترقت كتل الاشجار ومزقت أسلاك الهاتف، في حين شكلت الطوابق الخمسة فوق أبي، امتداداً سريعاً لحبسه الانفرادي،

وهو يتساءل كيف يمكن له أن يحيا في عالم خال من زوجته الصماء، سارة.

ضرب البرق خزانات الوقود في نيو جيرزي، مطلقاً ألسنة اللهب لمئات الأقدام في الهواء، محولاً الليل القاتم إلى نهار متوهج، أما الرياح، فمزقت الخيمة الهائلة للسيرك في كوينز، تاركة أربعمائة شخص محاصرين تحت خيمتها المبللة بالمطر. أظلمت جميع نوافذ بروكلين بعد أن تهاوت أرضاً أعمدة الكهرباء كأعواد ثقاب. وتحوّل والدي إلى أب.

«هرعت إلى الخارج وسط العاصفة رافعاً قبضتي إلى السماء» قال بيديه، «كنت كالمجنون. غمرني شلال هائل من المياه، فيما شقت الصواعقُ السماءَ محولة إياها إلى شظايا»، قافزاً فوق أصوات التحطم التي بعث بها هذا الشغب المهيب، متخطياً كل الأصوات تلك، خرج صوته الواهن والأبكم صائحاً: (إلهي، هب ابني القدرة على السمع).

هل وُلِد طفله صحيح السمع؟ هذا هو السؤال الذي دار في خلده، والذي عجز عن تلمس إجابة عنه.

تكمل يداه سرد الحكاية: «عقدنا العزم أنا وأمك، على معرفة هذا الأمر، وبسرعة!».

ما أثار شكوك والدي، هو عدم تيقنه وعائلته من معرفة السبب الحقيقي الكامن وراء صممه، رغم اتفاق الجميع حول مرضه في طفولته، وما أعقب ذلك من إصابته بحمى شديدة ليتجلى بعد تحسن حالته، فقدانه حاسة السمع بشكل تام. أما أمي فلم تكن أفضل حالاً، إذ اعتقد والداها أن مُصابها مرده إلى الحمى القرمزية التي ضربت جسدها وهي بعد طفلة.

غير أن الآباء، لم يقتنعوا بالمرض بأنه المتسبب الوحيد بفقدان ولديهما السمع. فبالنسبة لهم، لم يكن ثمة علاقة مباشرة بالضرورة ما بين الداء والصمم، إذ إن أطفالهم الآخرين أصيبوا لمرة واحدة أو أكثر بأمراض مماثلة كالحمى الشديدة،



لكنها لم تترك فيهم أثراً رهيباً كالصمم. لم تخلف فيهم «آذاناً معطلة».

«كلا الطرفين من الآباء، تجمدوا كموتى إزاء مسألة إنجابنا أطفالاً» يومئ بيديه «قدَّروا أن أطفالنا سيولدون صماً لا محالة. كانوا مجرد مهاجرين جهلة من بلاد قديمة». ضربت يداه الهواء بغضب. «ما الذي كانوا يعرفونه بحق الجحيم؟ وعلى أي حال، فقد عوملنا كطفلين. دائماً. حتى في سنوات رشدنا. عجزوا عن فعل شيء. ظللنا في أذهانهم ابنين أصمين أبكمين لا أمل يرجى منهما. مجرد طفلين. لم نبرح مكانتنا في أذهانهم كطفلين. إلا أننا لم نصغ لأحد، وأنجبناك. أصيبوا بالدهشة لحقيقة تمتعك بحواس مكتملة. فلا شيء مفقوداً. كنت صبياً متسقاً، ولداً طبيعياً في أنظارهم».

«أمك سارة وأنا، أحببناك منذ اللحظة الأولى، غير أن جزءاً منا تمنى سراً لو أنك ولدت أصماً».

أنا بدوري أحببتهما، لكني لم أتخيل نفسي يوماً منضوياً في عالمهما الأصم. كما لم أتمكن من سبر غور ذلك الجزء السريّ الصغير الذي تمنى لي مصيراً كهذا.

«كنت مولودنا البكر.. وكنا مجرد أصمين في عالم سمع. لم يعلِّمنا أحد الاعتناء بطفل صحيح السمع. فليس لدينا لغة ناطقة تمكننا من السؤال في هذا الشأن. ولا أدرك الآخرون لغة الإشارة ليمدوا لنا يد العون. كان علينا الاعتماد على أنفسنا. فكيف سنفهم ما الذي تريده، وما الذي تحتاج إليه كطفل؟ كيف سنسمعك إذا ما بكيت في الظلام ليلاً؟ إذا ما جعت؟ فرحت؟ حزنت؟ إذا ما عانيت مغصاً في المعدة؟».

«وكيف»، أضاف، «كيف سنبوح بحبنا لك؟».

بعد ذلك، استكان أبي بيدين صمتتا في الهواء، مستغرقتين في التأمل.

«ولئن ولدتَ صحيح السمع، فقد خشيت ألا أتمكن من فهمك. خشيتُ من ألا تتمكن أنت كذلك من فهم والدك الأصم».

ابتسم بعدها: « أمك سارة لم تكن قلقة. قالت إنها أمك وستفهمك لا محالة. قالت إنك ابن أحشائها، ولا بد من أن تَفهمها، هي أمَّك. لا حاجة إلى لغة الشفاه. ولا إلى كلام اليدين».

«وعندما أتينا بك إلى المنزل بعد خروجنا من المستشفى، طلبنا من عائلة أمك سارة زيارتنا كل نهار سبت بعد الظهر. أعددنا جيداً لهذا الامر. فكتبت لهم (عليكم المجيء بشكل عاجل! أسبوعياً. كل سبت)».

«لقي الأمر آذاناً صاغية. فقد أتوا أيام السبت قادمين من كوني آيلند. ولم يتغيبوا مرة حتى بلوغك عامك الأول. جميعهم: والدة الأم سارة ووالدها، وشقيقتها الصغرى، وأشقاؤها الصغار الثلاثة. كانوا يأكلون كالجياد، لكن الأمر استحق العناء».

«لا بد من أنه كان أمراً باعثاً على الضجر بالنسبة لهم». أومأت، ضاغطاً على أنفي بإصبعي كأنني أضغط على دولاب حجر الرحى.

«لم يكن ذلك مهماً. فقد وضعت خطة». أشار بصورة حيوية «كانوا يأتون دائماً وأنت نائم. فأعقد العزم للتأكد من هذا، وقبل الشروع باتخاذ مواضعهم المريحة في المنزل، كنت أطلب منهم الوقوف خلف سريرك. ليبدأوا بالضرب على الأواني والمقالي التي أكون قد أعطيتهم إياها. ضوضاء كبيرة تسمعها أنت فتستيقظ مرتعداً، وتبدأ بالعويل. كان مشهداً خلاباً رؤيتك تصرخ في وجه تلك الجلبة الهائلة».

«خلاباً؟»، سألته، «خلاباً بالنسبة لمن؟ عرفت الآن لما أجد أحياناً صعوبة بالغة في النوم».

لكنه أكمل، متجاهلاً تذمري.

«في كل مرة كنا نحتفل. تقدم لهم الأم سارة الشاي وكعك العسل. ومن دون أن يلاحظ أحد من الحاضرين، كان جدك الهنغاري ماكس، العجوز الغجري، يدسّ خلسة بعض الخمر في شايه من قارورة فضية معدنية يحملها في معطفه. كلما رشف بعضاً من الشاي، كان يضيف جرعة أخرى من الويسكي، حتى يمتلئ كوبه بالويسكي تماماً. فيرشف ويبتسم، ثم يرشف مرة أخرى ويبتسم. يبقى على هذه الحال طيلة فترة ما بعد الظهر. «آه. شكراً للرب. مايرون يمكنه السمع»، يغمغم فيما تتجه جرعة أخرى من الويسكي إلى فمه، في حين ترمقه الجدة سيليا بصمت، قالبة شفتيها، وكأن زوجها حشرة زاحفة، صرصار فاجأها في وقت متأخر من الليل وهي تضيء مصباح المطبخ. كانت تبدو وكأنها تريد دعسه بقدمها. لم يلاحظ أحد هذا الأمر، غير أننا الصم كنا نرى كل ذلك بوضوح. فالمعنى الذي استشفه من طرفة عين واحدة، يفوق كل ما يمكن لإخوتي وأخواتي تلقيه بالاستماع إلى حديث لساعات. لم يفهموا

شيئاً. الفم ينطق بكلمات مسموعة لهم، لكن، لا يتعلمون منها شيئاً. أحببت إخوتي وأخواتي لكنهم لم يضاهوني ذكاء».

«هذا لا يهم، فهو ليس جزءاً من قصة سمعك. تلك قصة أخرى».

كانت ذكرياته بالغة الكثافة، وقد نسجت بإحكام شديد في ذهنه، بحيث إنه خلال حكاية محددة، كنت تراه يجول داخل قصة أخرى تطفو على سطح الحديث سريعاً، وكأنها كانت طوال تلك السنوات معبأة في زجاجة، وقد وُجِد الآن من تستطيع أن تفيض خارجة إليه، لتطلق سراح نفسها. كلما حدث هذا الأمر، تراه يعود ليضبط نفسه خاتماً فجأة بداية القصة الجديدة بإيماءة من يده تعني «تلك قصة أخرى». لكنني كنت متأكداً من أنني سأسمع منه تفاصيل «تلك القصة الطارئة» في وقت لاحق.

«أيام الآحاد، كانت والدتي ووالدي، وأخي وأختاي يأتون جميعاً من برونكس. لم يثقوا بعائلة الأم سارة. كانوا يحضرون أوعيتهم ومقاليهم الخاصة. يحتضن كل منهم وعاء أو مقلاة طوال الساعتين، مدة الرحلة من برونكس إلى طريق (كينغز) السريع في بروكلين، مارين بثلاث محطات قطار الأنفاق. متمرنين على قرع الأوعية بينما عربات القطار السريعة تميل يميناً ويساراً داخلة الأنفاق. فالصرير الذي تحدثه عجلات القطار يجعل من الصعوبة لأحد ملاحظة ما يقوم به هؤلاء. وحتى بعد خروجهم من المحطة، يتواصل القرع على تلك الأدوات المعدنية، مرافقاً لمشيهم نحو منزلنا. بدوا فرقة رثة من الجيش في لوحة تصوّر حرباً ثورية. وفور وصولهم إلى المنزل، يتوارون خلف سريرك، قارعين بقوة على ما يحملون، وضاربين الأرض بأقدامهم في وقت واحد كفرقة مشاة. كنت أشعر بهذه الضوضاء الصاخبة بباطن قدمي. كان إيقاعهم ظريفاً. أما النتيجة فلم تكن لتتغير: استيقاظك على الفور، قافزاً في مهدك في الحقيقة».

«هل استمر هذا طيلة العام؟»، سألت.

«أجل. فقد اعتقدوا أنك عرضة لفقدان السمع، تماماً كما حصل لسارة ولي في صغرنا. إنه لغز كبير».

«وماذا عن جيراننا؟ ألم يشكل لهم كل ذلك القرع وضرب الأرجل إزعاجاً، ألم يمانعوا الأمر؟».

«ما الذي تتوقعه؟»، أجابني، «وجب علينا التأكد دوماً من تمتّعك بحاسة السمع. لوّح الجيران بأنهم سيتصلون بالمالك لكي يقوم بطردنا. لكن الأم سارة تحدثت إليهم بلطف. تبادلت معهم بعض الإشارات والملاحظات، كان حديثاً سريعاً ومحتداً إلى أن سويت المسألة معهم. كانوا يجدونك طفلاً لطيفاً. هم أيضاً تساءلوا إن كنت قادراً على السمع. تساءلوا إن كان بإمكان زوجين أصمين إنجاب طفل سليم. لم يعرفوا أشخاصاً صماً سوانا. لم تكن لديهم أدنى فكرة عن طرائقنا في الحياة».

بعد تفكر لدقيقة، اصطدمت يداه الواحدة بالأخرى بحدة، مضيفتين «كان أمراً شاقاً قاسياً لأمك ولي، أن نحصل على الوسيلة والكيفية للاعتناء بك. لكننا قمنا بالأمر. استحدثنا طريقة لنعرف متى تبكي في الليل. كنتَ بُعيد وصولك من المستشفى، تنام في مهدك المجاور لسريرنا. فأبقينا على لمبة صغيرة مضاءة طوال الليل. ولفَّت الأم سارة حول معصمها شريطاً موصولاً بقدمك الطفولية الفاتنة. وما إن كنت تحرك قدمك، حتى تستيقظ فوراً لتستطلع السبب. لا تزال تحتفظ بالشريط في مكان ما. الإشارة كانت لغتك الأولى. وأول ما تعلمته كان: أحبك.

تلك الإشارة كانت جيدة. كانت أفضل ما في لغة الإشارة».

تذكارات: ثعلب في بروكلين

ينفتل شريط الذاكرة في مكانه، كأنه نابض ساعة تعمل على زنبرك يدار باليد.

أراني الآن طفلاً صغيراً، يغفو في غرفة نوم والديه. أرتدي منامتي التي تتصل بجوارب للقدمين، منامة عملية وفضفاضة، منسدلة، يصفق طرفاها بعضهما بعضاً، عند النصف الأسفل من جسدي. إنه الليل. شيء ما يوقظني. أتجه لاوقظ أبي. ألحظ عبر يدي حين تحط على كتفه أول أشكال التواصل معه: التلامس. هذه اللغة، سرعان ما تتبعها الإشارة: كلغة أخرى لليدين.

«ما الخطب؟» ترتج هامته قبل أن تستقيم بفعل الاهتزاز الذي ألح وقعه على كتفه، متزامناً مع إيمائه لي: يداه المقلوبتان تهتزان بشدة، للوراء والأمام، متوسلتين إجابة. تعلو وجهه تعابير تدل على حيرته وتساؤله. تتقدم كتفاه إلى الأمام متوقعتين إجابة. «ماذا؟»، تسأل إشارتُه التي طال أمدها. ولأنه أصم فيما أنا مزود بقدرة على السمع، فلن يَسمح بأي سوء تفاهم بيننا.

«ماذا؟» كانت من أولى الاشارات التي اكتسبتها بالتعلم. فيكاد كل تواصل بين أبي الأصم الأبكم وبيني يبدأ بإشارة «ماذا؟» فتؤدي إجابتي مهمة تفكيك شيفرة أشياء كثيرة تكون مبهمة بالنسبة إليه. احتياجاتي. مشاعري. اختلاجاتي. حالتي الذهنية. طلبي للمعرفة.

كل تواصل بيننا كان ظاهرياً يمضي صوب البعيد بادئاً من إجابتي عن سؤاله: «ماذا؟»، ومع هذه المفردة الاستفهامية الجوهرية، والتي أسست لإتمام التواصل بيننا، كان والدي قادراً على المضي قدماً بشكل صحيح.

في منتصف ذلك الليل، كانت تلك الـ«ماذا»، اتصالاً بخوفي.

«سمعت صوتاً»، أومئ مشيراً إلى أذني، ضارباً قبضتي ببعضهما بعضاً. فقد

أصابني ذلك الصوت بالذعر، حتى أخذت قبضتيَّ تقرعان كالطبل. يسكن أبي وهو ينظر إلى يدي، ثم ينهض عن السرير.

«أرني»، يقولها بإشارة منه.

أعود إلى ذلك اليوم، إلى ذلك الحوار بيني وبين أبي. وعلى الرغم من أنه قد مر وقت طويل عليه، لكنني أدرك أن تواصلنا ذاك جعلني أعي للمرة الأولى أن أبي أصم.

كيف يمكنني أن أبيّن له الصوت؟

أمسكت بيده، وأدرت وجهتها نحو الخزانة. من هناك كان يأتي الصوت.

وفيما فتح هو الخزانة، تشبّثت بساقه. وسط العتمة، كان ثعلب بوجه مكسو بالفراء، يحدق بي. عيناه البرّاقتان حملقتا بعينيَّ مباشرة، وقد تحركت أذناه لتلتقطا نشيج تنهداتي المختنقة. نظرت إلى الخلف بعينين نصف مغمضتين، وأجفان مبللة، محوّلاً مجال بصري عنه ومرتداً بفعل خوفي، فقد لاحظته يحني كتفيه إلى الأمام، متهيئاً للانقضاض عليّ. كان ثغره الضيق المفتوح، مرصّعاً بمئات الأسنان والأنياب البيض. وأحسست بتلك الأنياب وهي تمزق ذراعي.

أطلقتُ صرخة باتجاه أمي، النائمة مستلقية على ظهرها الذي أدارته الآن في وجه طفلها الذي يوشك حيوان على التهامه حياً. «ألا تكترث أمي لي؟» ذهني البسيط، لم يكن مؤهلاً لفهم أنها لا تستطيع سماع زمجرة الثعلب، الحيوان الذي يُسَيِّره حدسه، بسبب الجوع، للانقضاض على ابنها الصغير ذي الذراعين الطريتين.

بيديه، أمسك أبي الثعلب من عنقه، ثم جذبه بعنف مخرجاً إياه من مجثمه. قبل أن يستخرج منه حياته بعصرة، مواصلاً في الوقت ذاته رجّه من الوراء إلى الأمام. عينا الثعلب تصلبتا الآن، أصبحتا زجاجيتين، فيما أُفرغت الحياة منه

كلياً. بدا الثعلب الآن معلقاً في الهواء، هزيلاً، وقد تدلى ذيله إلى أسفل، دونما حياة، بين يدي أبي القويتين. تلك اليدان، ما لبثتا بعدها وأن حملتاني برقة، مسدتا رأسي، حضنتا جسدي، وتحدثتا إليّ «لا تخف. لن يجرؤ الثعلب على قض مضجعك بعد الآن».

ألقى والدي بالثعلب الميت على أرضية الخزانة، وأقفل الباب حاجباً عني كابوسي الليلي، جفف الدموع من عينيّ، ثم قادني إلى السرير. وبعدما وضعني تحت اللحاف، حدق بي طويلاً، ونصف ابتسامة على شفتيه. امتدت يداه لتأخذا وجهي بين كفيه، قبلني برفق. لأغفو بعد ذلك.

هذه الحادثة، ظلت لوقت طويل، حصاة بارزة فوق شاطئ الذاكرة البعيد. وكنت كلما تمشيت من وقت لآخر، على شاطئ الطفولة ذلك، تدوس قدمي العارية على تلك الحصاة بالتحديد. لكن، ماذا كان ذلك المخلوق المخيف



أمي بدثارها المصنوع من فرو الثعلب

الذي أرق أحلامي وقض مضجعي، بعد أن انسل داخل الخزانة؟ الأمر المؤكد أن ليس هناك ثعالب متوحشة في جوار بروكلين. على الأقل ليس في الحيّ الكبير الذي أعيش فيه، وليس في شقتنا، وبالطبع ليس في خزانة ثياب والدي بالتحديد.

مرت سنوات عديدة على هذه الحادثة، قبل أن أدرك أن الوحش الذي صرعه أبي بيديه تلك الليلة، لم يكن سوى دثار أمي المصنوع من الفرو!

-2-
الطفل والد الرجل

لغتي الثانية كانت الإنجليزية الناطقة.

لا أتذكر في أي سنّ بدأت بتعلم هذه اللغة، لكنني وبطريقة ما، استطعت فعل ذلك. ومع اكتسابي للغة الإنجليزية الناطقة، أفل جزء كبير من طفولتي قبل أن يبدأ. بات عليّ منذ تلك اللحظة، وبصفتي طفلاً متمتعاً بالقدرة على السمع لأب أصم وأبكم، أن أنجز معادلة كيميائية بشكل يومي، أحوّل من خلالها الحركات المرئية والصامتة التي تؤديها يدا أبي، إلى صوت متكلم ذي مغزى للأذن، كما كان عليّ القيام بالسحر ذاته، بطريقة معكوسة، من أجل والدي. فأحول كل ما يُستقدم من أصوات لا تُرى، إلى إشارات مرئية.

بعد سنوات عديدة، وعلى مقاعد الدراسة في الكلية، اصطدمت بجملة الشاعر ووردزوورث: «الطفل والد الرجل». فهمت معناها على الفور حتى وإن لم يكن ما قصده ووردزوورث بنفسه.

ولئن كنت أمثل لأبي القناة البشرية بين الصوت والإشارة، فقد شعرت بأن لا اختلاف بيني وبين أسلاك الهاتف المتأرجحة بين عمود وآخر في محيط بروكلين: الأسلاك التي من خلالها، يتحول شكل الصوت المضغوط وينتقل بصورة سحرية، ليعاود الخروج من الطرف الآخر بهيئة مكالمة مفهومة. وكوننا عائلة صماء، فإننا لم نملك هاتفاً. كنتُ هاتف العائلة البشري، هاتفاً مفتقداً لنغمة رنينه. كنت متوافراً للاستخدام الفوري في الصباح أو المساء، متى دعا لذلك هوى مالكه، أبي الأصم، واحتياجاته.

بالإضافة إلى لعبي هذا الدور، وجدت نفسي مضطراً وبصورة مضطردة إلى أن أفسر له ماهية الصوت. كأن الصوت- غير المرئي- مادة يمكن تلمّسها،

وكأن شرحه بشكل مناسب، وجلي، ومرهق لصبي مثلي، يمكن أن يدفع بأبي الأصم لتخيله، بل وإن فَهِمَه، فسيغدو الصوت حقيقياً.

تعود بي الذاكرة إلى الوراء، لألتقط صورة مذياع خُصِّص من أجلي بشكل دائم. صحيح أنني لا أستطيع أن أنأى بذاكرتي عن نشاز أصوات المقالي والأواني، وهي تحوِّم فوق سريري. إلا أنه كان هناك دائماً تلك الموسيقى التي أضيفت إلى موسيقى الكلام. فقد قرر أبي بُعيد ولادتي، وعقب خروجي من المستشفى ووصولي وأمي إلى المنزل، بأن عليّ تعلّم الأصوات. هكذا بحسب رأيه، أصون قدرتي على سماعها حتى لو اضطررت إلى إهمالها لسبب أو لآخر بعد حين. فأبي اقتنع تماماً، بما أن لا أحد أخبره عكس ذلك، باكتساب الإنسان مهارته وقدراته السمعية، بالتدرب على تلقي الأصوات. ولهذا، اتخذ مذياع «فيلكو» الذي ابتاعه من أجلي ليتأكد من تعرضي المستمر للأصوات، موضعه على حافة صغيرة، تماماً خلف الأضلع الخشبية لمهدي. كان يعمل دون توقف، ليل نهار. وسرعان ما أصبح الضوء الاصفر الذي يشع به قرصه، ضوئي الليلي. إلا أن الضوء الأصفر ذلك، وصوت الصندوق المصنوع من الخشب والقماش الذي شُكِبَ داخلي، كانا مبعثاً للاطمئنان. ورافقاني إلى النوم كل ليلة.

عندما كبرت قليلاً، استبدل مهدي بسرير دون حاجزين على جانبيه، وحظيت بمذياع جديد، ملائم لهذه المرحلة العمرية المختلفة التي كان من ميزاتها تمتعي بغرفة لي وحدي. تدرَّجت إذن، من المذياع ذي القوائم الأربع، والتصميم الشبيه بالمنضدة، إلى نموذج صلب مصنوع من الخشب، يستقرّ بشكل جليل على أرضية غرفة نومي. كان يفوقني طولاً، وبدا تصميمه أقرب إلى الكاتدرائية، بقبته المقوسة والواجهة ذات الزخرفة النباتية، الشبيهة بأشكال الورد الرباعي الفصوص، على نوافذ كاتدرائية تشارتر. إلا أن المذياع كان محشواً بالقماش، بدل قطع الزجاج الملوّن. أما أزراره المكتنزة الشكل والناتئة،



هنا، أقوم بدفع دمية في عربة أطفال، في حين أنطق بيدي: «فتاة».

فبدت متخمة ببصمات يديِّ الطفل الذي كنتُه.

سئلت آلاف المرات، عن كيفية اكتسابي النطق، لكنّ ذاكرتي لا تسعفني بهذا الشأن. فما أذكره لا يشمل مراحل عملية اكتسابي النطق، تلك الأوريكا، لحظة الإدراك. لا يسعني إلا أن أفكر بالمذياع، الذي كان عليه العمل دون توقف، ملازماً أذنيَّ، طيلة ذلك الوقت الذي يكمن وراء الذاكرة. فالمذياع كان الآلة التي أسهمت في فك رموز وشيفرات اللغة الشفوية، داخل عالم صامت مختلف عن عالمي.

أضحى المذياع حجر رشيد[1] في إطار سعي والدي الأبدي إلى فك شيفرة الأصوات، وفهمها. لكن، وبخلاف الحجر ذاك، لم يكن المذياع ليحوي أي

(1) حجر رشيد: حجر اكتشف عام 1799 في رشيد بمصر يحمل نقوشاً متوازية باليونانية والهيروغليفية المصرية مما ساعد على حل رموز هذه الأخيرة.

رموز مرئية ظاهرة للعيان، للعمل على تحليلها، والتفكير بشأنها، ثم إخراجها لاحقاً لغة. كان هنالك ضوء لإنارة قرص الراديو، ذلك القرص المزود بالأرقام وكسور الأرقام، وسهم يستقر بين حين وآخر، على أرقام دون سواها. مثُلتْ أيضاً أرقام وضعت على طرفي القرص، وهي أرقام لم يمسسها السهم بتاتاً.

كانت مسألة معرفة آلية عمل المذياع، أشبه بمعاناة لأبي. إذ كافح لذلك. أزالَ اولاً اللوح الخلفي، ثم درس بعناية الأنابيب الإلكترونية الكثيرة المنتشرة في هيكل المذياع، ودوّن كيف تومض كل تلك الانابيب في وقت واحد، كشموع قبل أن تتذبذب وتضيء مشتعلة جميعها بتألق وثبات.

«بديع، لكنه لا يعني شيئاً لنا، نحن الصم»، تقول يداه، وقد غلب عليهما طابع التكيف مع المسألة، لا الحزن.

لكن أبي ذهل لاحقاً بآلية عمل ذلك الجهاز. فقد غدت بالنسبة له رمزاً لآلية تقدمية هادفة. «هل الصوت محتجز في أقسام معينة من الزمن والفضاء؟ هل هناك صوت بين تلك الارقام على القرص؟».

بيد أن القضية برمتها، تحولتْ إلى موضوع استشعار للدفء الناتج عن بقاء القرص مضاء لبعض الوقت. كان مبعث اهتمام خاص وحميمي بالنسبة له، الأمر الذي استحضِرت بسببه في كل مرة، مجموعة أخرى من الأسئلة.

«هل الصوت دافئ بطبيعته؟»، يسأل، «وعندما يكون المذياع بارداً، هل تنبعث منه أي أصوات؟ هل يمكن أن نعثر على صوت في القطب الشمالي، فدرجة الحرارة هناك متدنية دوماً؟ هل يخرج الصوت فقط في المناطق القريبة من خط الاستواء، حيث الحر؟ هل أفريقيا مكان صاخب ضاج بالأصوات؟ وهل ألاسكا مكان هادئ؟».

عندما يرفع يديه، متلمساً بوقار قبة المذياع الكاتدرائية، المصنوعة من خشب الماهوغاني، يستطيع والدي استشعار الذبذبات وهي تعلو وتنخفض،

مخترقة مادة الخشب. «هل يملك الصوت إيقاعاً؟ هل يعلو ويهبط كالمحيط؟ هل تأتي الأصوات وتذهب كالريح؟»، معاناتي لإيجاد إجابات عن أسئلته، طال أمدها لأعوام حاولت خلالها أن أفسر ما ليس قابلاً للتفسير.

ورغم عجز والدي عن تلقي الموسيقى الآتية من المذياع، بالأذن، إلا أن ذلك لم يمنعه من الشعور بها، بباطن قدميه. فإذا ما أرهقته الأسئلة، جذب أمي نحوه، ليبدآ الرقص، على إيقاع الموسيقى التي تتسلق جسميهما، صاعدة من أرضية الخشب الصلبة، فيؤلفان بتجانس يبلغ حد الكمال، دوراناً حول غرفة نومي، بسلاسة فريد أستير وجينجر روجرز[1].

يجدر القول هنا إن والدي كان ناضجاً، فيما كنتُ مجرد طفل، لكن افتقاده القدرة على التكلم والسمع بشكل جلي، خارج شقتنا الصامتة، دفع بي لأصبح أذنيه وفمه في عالم يستخدم الآذان. حدث الأمر أول مرة، حين كنت صبياً صغيراً بالكاد يبلغ من العمر خمس أو ست سنوات. فقد اصطحبني إلى متجر الدواجن القائم على مقربة من مبنانا السكني. هناك تدلت الدجاجات الميتة من السقف بعقافات معدنية، وعيونها العمياء مصوبة نحو أرضية غطتها نشارة الخشب. هناك شرعت يداه تتحركان.

«قل للسيد هيرمن أننا نريد اليوم دجاجة سمينة»، أشار بإصبعين من يده تحركا صعوداً ونزولاً، منفرجين تارة ومغلقين تارة أخرى كمنقار طائر. لبعض إشاراته وقع حقيقي كان يدفعني إلى الضحك حقاً. بل كان يشاركني الضحك ثم يبدأ بتضخيم إشارته، هازئاً. وسرعان ما يجذب هذا ضحكات الآخرين. عندما كبرت قليلاً، أدركت أن هؤلاء كانوا يضحكون علينا، لا معنا.

محطتنا التالية بسطة الخضار.

(1) ثنائي راقص شهير يعد نموذجاً قل نظيره في عالم الرقص الإيقاعي. وقد عملا معاً في عدد من الأفلام.

«الأم سارة تحب الذرة»، يومئ، أصابعه تكشط النواة المتخيلة لكوز الذرة المتخيل. «عليها أن تكون طازجة. طازجة قطعاً». مهمتي الآن انتقاء الأكواز الأشد صفرة ذات الحبوب الطرية المملوءة بالسوائل، أكثر الطماطم الحمراء اكتنازاً، أثقل حبات البطاطا، وأكثر رؤوس الخس هشاشة.

«جيد»، يشير وإبهاماه مرفوعان إلى الأعلى. «خضار ممتازة». كان يقول دائماً هذه الجملة. وقد قالها حتى عندما ظهرت في إحدى المرات، دودة سمينة وهي تشق طريقها خارجة من حبة طماطم اخترتها بعناية.

«فقط حبة طماطم ممتازة كهذه، قادرة على اجتذاب دودة ممتازة كهذه».

أثناء مشينا في الشارع، أخبرتني يداه «غداً سنذهب إلى حديقة الحيوانات».

تحولت يداه بطريقة سحرية إلى حيوانات. تمايلت ببطء مقلدة خرطوم الفيل. التوت أصابعه، وخدشت خاصرته كقرد. واستقرت على أنفه، كفأر يرتعش شاربه. ثم اختلس إبهامه النظر من تحت يديه المتقوقعتين، كأنه رأس سلحفاة. كنت أشاهد يديه تعيدان تشكيل الهواء، وبانت أمامي بذلك حديقة حيوانات ملأى بالطيور المرفرفة، والأفاعي المنسلة، والتماسيح المتوحشة، والفقمات الملساء.

تحلق الناس حولنا وأخذوا ينظرون إلينا. لكنني كنت منجذباً فقط إلى يديه، متخيلاً بفضلهما، المرح الذي سنحظى به، والمناظر التي سترنو إلى أعيننا.

وفي طريق عودتنا إلى البيت، استوقفنا رجل جالس على الرصيف. ثم أخذ يتوسّلنا بصوت واهن: «أنا جائع».

كان عجوزاً يرتدي ثياباً متسخة، فلم أرد التوقف من أجله.

«ماذا قال؟»، سألني والدي.

«إنه جائع»، أجبته.

امتدت يداه على الفور، إلى الأكياس الورقية خاصتنا، سحبتا منها تفاحاً، ورغيف خبز، لتضعهما بغضون ثوانٍ في عهدة العجوز.

«بلّغْه أسفي لحاله»، واضعاً قبضته على قلبه. «لكن قل له إن الأمور على وشك أن تتحسن». أخذ بعدها يدي الصغيرة، وأكملنا طريقنا في الشارع.

كانت أمي بانتظارنا عند الباب. وما إن وصلنا حتى ارتسمت ابتسامة على محياه، أنزل الأكياس الورقية، ثم حياها بيديه الملوّحتين بانفعال، قبل أن يضمها إلى ذراعيه. كان لي في المنزل غرفة منفصلة.

في طفولتي، كان ينتابني شعور بمدى عظمتي كلما وجدتني أقوم بالتفسير لأبي في متجر الدواجن أو في سوق الخضار. دوري كمفسِّر ومترجم، كان مصدر فخر بالنسبة لي. لكنني غالباً ما شعرت بالتشوّش بسببه. فأنا الآن، أنطق بكلمات ومفاهيم رجل ناضج، أنطق بها، كناضج يتحدث إلى ناضج آخر. لكنني حينذاك، لم أكن سوى طفل لا يتجاوز الستة أعوام. وخلال تلك الأوقات المنصرمة في بروكلين، كان للأطفال دور واضح للغاية. فالأطفال هم من نتحدث إليهم، نملي عليهم ما يجب فعله، وما ينبغي الإصغاء إليه «افعل كذا وكذا». «عد إلى هنا». «اذهب هناك». والأكثر إحراجاً، وكأن الأطفال كلاب، «اجلس». فعل الأمر الوحيد الذي افتقده قاموس والديَّ للأفعال كان «اجر في أعقاب شخص ما».

حياة الأطفال برمتها تسير وفق الأوامر المعطاة لهم. ليس ثمة فرصة لمساحة نقاش بين طفل وذويه. عويل؟ نعم وإلى حد معين. نقاش؟ لا. بتاتاً.

وعلى عكس أصدقائي، الذين ثبتوا في مواقع محددة داخل مشهد الحياة، ودون أدنى تفكير، فقد كان لي دور مزدوج ألعبه. فآباؤهم صحيحو السمع، لم يعتمدوا على أبنائهم الصغار في تدبير شؤون الحياة يوماً بيوم. أما والدايّ، فكانا مختلفين. عندما كان أبي يُحشَرُ في ظرف يستلزم توظيف حاسة السمع،



في معرض العالم سنة 1939، وأبدو في الصورة متذمراً لأنه كان عليّ الترجمة لوالدي طيلة اليوم.

كان يبدو كطفل متجاهَل، أو منبوذ. فيتوقع مني، في مثل تلك اللحظات، أن أتحول فوراً إلى راشد قادر على التواصل باسمه، مع راشد آخر.

متقناً بإحكام مفاتيح هذه الحيلة المزدوجة للتواصل، بتحويل الصوت إلى إشارة والإشارة إلى صوت، أرفقت مكانتي بامتياز اللامألوف واللاطبيعي. هكذا كان في نظر والدي. فالرجل ذلك، ولصممه، يعتمد الآن على طفله صحيح السمع، بعكس ما يفترض به أن يكون.

ما زاد الطين بلة، هو ذلك الشعور بأنني، ورغم مظهري كناضج مفترَض، لم أسترع اهتمام أحد. فقد برمجني والدي لئلا أكون أكثر من مجرد قناة، يتكلم عبرها، وليس إليها، كلما دعته الحاجة للتواصل، كأنني لوح زجاجي يفصل بينه وبين الآخرين.

لكن انكفاء حاجته عن ممارسة سحري بين الصوت والإشارة، كان يقلب

الأدوار بيننا، فأصبح مجدداً مجرد طفل، بشكل مذهل ككل ما بيننا.

كانت هذه التقلبات القطبية بين نزعتين مختلفين، تحدث بشكل سريع ومكتمل، فتفقدني رباطة جأشي وتثير أعصابي. وبينما تمرّ دقيقة تراني فيها ولداً يعاني أثناء محاولته فهم الصوت وتفسيره ثم تفكيكه إلى إشارة، لإيصالها إلى الوالد، أغدو في الدقيقة التالية، منصاعاً تحت رحمة اوامره بالتوقف عن القفز والتحرك كيفما اتفق، والتململ، لافتاً نظري إلى أن الابن رهن بذهن والده. قبل أن يمسك يدي الصغيرة بيده، برقة وحزم أيضاً، فنمشي مبتعدَين عن العالم السمعي، مسترجعاً موقعي تماماً كابن صغير له.

ومع نضوجي أكثر فأكثر، ازداد نطاق مهمتي كمترجم، تعقيداً، كما حال مشاعري تجاه ما أقوم به. لم يكُف والدي عن اصطحابي معه كل نهار سبت للتسوق، واستمرّ شعوري بالفخر لحقيقة أنه لا يزال معتمداً علي. لكن يوماً بعد يوم، تنامت حساسيتي تجاه الواقع القاسي، المملوء بالإجحاف، الازدراء والاحتقار التي فرضها عالم السمع كضريبة على ذلك الرجل الأصم والأبكم، أبي.

وكلما كبرت، غصت أعمق في حقيقة ذلك الدور وماهيته، الدور الذي ألعبه كصوتٍ لأبي. كنت ألاحظ بقنوط وخجل، وبغضب أيضاً، كيف يتم تجاهله عمداً من العالم المتسلح بحاسة السمع، وكأن ذلك الرجل ليس أكثر من جماد، قطعة من الحجر عديمة الحس، شيء ما، أيُّ شيء إلا أنه إنسان. عدم الاكتراث المحض لوجوده، بدا أسوأ حتى من الازدراء نفسه.

كثيراً ما كنت شاهداً على تقدم أحد الغرباء منه في الشارع، لسؤاله «هل يمكنك أن تدلني على الطريق إلى محطة المترو؟» «كم الساعة الآن؟» «أين يقع أقرب مخبز؟».

لم أعتد البتة على تلك النظرة الواهية التي كانت تشع على وجه الرجل

الغريب، كتعبير عن استغرابه عند إخفاق أبي في الاجابة. لم أعتد أيضاً، على مشهد تلك النظرة وهي تتبدل إلى صدمة أمام الصوت الجاف والأجش لأبي وهو يعلن صممه، قبل أن يتجسد هذا الصوت في شكل ثورة خلف الغريب الذي يكون قد أدار وجهه ولاذ بالفرار وكأن علة أبي البدنية، مرض معد.

وحتى بعد مرور سبعين عاماً، تجذبني إلى اللحظة هذه، ماثلاً أمام ذلك الخجل الذي كان ينتابني كطفل، الذي يزحف في شراييني، كأسيد بطارية، أو كصفراء الكبد وهي تتسلق دون دعوة، إلى حنجرتي.

ذات يوم، كنا في متجر للحوم. كان المتجر مزدحماً كعادة كل يوم سبت. طلب مني والدي أن أطلب من الجزار خمسة باوندات من الأضلاع الصالحة للشيّ». أضاف بحزم «قل له، خالية من الدهن».

«والدي يريد خمسة أرطال من الأضلاع الصالحة للشي. بلا دهون». توجهت بالقول إلى الجزار عندما صرنا في مقدمة الصف.

«أنا مشغول أيها الصبي»، أجاب دون أن يتكلف عناء النظر إلى والدي.

«قل له عليكما الانتظار إلى حين يأتي دوركما».

«ماذا قال؟»، سألني أبي.

«قال إن علينا انتظار دورنا».

«لكنه دورنا. قل له أن ينفذ طلبَنا. الآن».

«أبي يقول إنه دورنا الآن. إنه يرغب بالحصول على خمسة أرطال من الاضلاع الصالحة للشيّ، ومن دون دهون». أضفت بتهذيب «رجاء سيدي».

«قل للأخرس بأنني هنا من يقرر متى يحين دوركما. عودا فوراً إلى حيث كنتما في الصف، أو أخرجا بحق الجحيم من متجري».

الناس الواقفون في الصف، كانوا منذهلين. بدوا أشبه بتماثيل متجمدة في

مكانها، محدقين بعيون فارغة من أي إحساس.

«ماذا قال لك؟»، كان سؤاله التالي.

أفضل ما علمني أبي إياه هو ألا أخفي شيئاً عنه، أن أنقل إليه العالم السمعي كما هو، دون أي حذف أو إضافة، مهما كلف الأمر. عليّ الآن أن أخبره بما قال لي الجزار صراحة. أشرت «قال الرجل بأنك أخرس»، وقد أحسست كأنما هناك فرن يهدر في جسدي ذي الستة أعوام، متسبباً بتقرح الجلد.

إنها المرة الأولى التي أسمع فيها أحداً يصف أبي بالأخرس. سمعت بهذه العبارة للمرة الأولى من خلال برنامج تشارلي مكارثي على المذياع، عندما كان إدغار برغن ينادي تشارلي بالأخرس: «تشارلي، أنت أخرس، أنت لست سوى قطعة من الخشب».

أبي لم يكن قطعة من الخشب. لم يكن دمية خرساء كتشارلي.

مسحة من الغضب علت ملامح وجهه.

«قل للرجل بأن يغرز الأضلاع في مؤخرته»، اومأ بتوكيد مبالغ.

«شكراً لك، يقول أبي. سوف نعود في وقت لاحق».

عندما خرجنا، جثا أمامي في الشارع.

«أعرف أنك لم تخبر الجزار بما أمرتك به» أشار بيديه. «يمكنني معرفة ذلك بالنظر فقط إلى وجهك. لا بأس. أفهم الأمر. كنتَ محرجاً.

ليس عدلا، أعلم.

أنا في العالم الأصم.

وأنت في عالم حاسة السمع.

أحتاج إلى أن تساعدني في عالمك. الناس صحيحو السمع لا وقت لديهم لرجل أصم. لا وقت لديهم ليقرأوا ملاحظاتي التي أدونها على الورق. لا صبر لديهم على الصُم. الناس يعتقدون أنني غبي. *أنا لست غبياً*».

سقطت يداه في لجة الصمت.

«مهما كان ما يعتقدونه بشأني»، أضاف أخيراً، «عليّ المضي قدماً في تواصلي معهم. لذا سيكون عليّ اللجوء إليك، وطلب مساعدتك. أنت قادر على السمع. قادر على النطق».

كان والدي دائم الثقة بنفسه. لكنه بدا في تلك اللحظة مختلفاً. ظننت أنه على وشك البكاء. لم أره يبكي من قبل. لم أستطع حتى تخيل الأمر. وقد أخافني ذلك.

محدقاً في عيني، حرّك يديه ببطء «يؤلمني كوني بحاجة إليك. أنت مجرد صبي. آمل أنك ستتفهم الوضع ولن تكرهني».

أكره والدي؟ كنت مصدوماً. كيف بإمكانه أن يفكر هكذا؟

«كلا»، هززت رأسي.

«إطلاقاً!»، قالت يداي.

أخذني بين ذراعيه وقبّلني، ثم قرب رأسي إلى صدره، وتناهى إليّ عندئذ صوت نبضات قلبه.

لم يكد يمر وقت على حادثة متجر اللحوم، حتى بادرتني جدتي سيليا بالقول: «عليك دائماً الاعتناء بوالديك! هذا جلّ ما في الأمر»، لكنها لم ترفق كلماتها بأي تبرير، أو حتى بتعليمات للعمل بنصيحتها. لا يزال ما قالته لي ذلك اليوم محفوراً في ذاكرتي بوضوح، ذلك لأنه أربكني بشدة. فكيف يمكن لطفل، الاعتناء براشدَيْن؟ إنهما أبي وأمي، وليسا مجرد راشدين وحسب. وكان بوسعي التعلم.

تذكارات: لغة اللمس

منذ كنت طفلاً، ظلت طريقة احتضان والدي لي، مثار صدمة لي لسبب لم أفهمه جيداً. وقد أثار الأمر انتباه الجميع في حيّنا، حتى أولئك الأطفال في مثل سني. ففي ذلك الوقت، درج العرف الاجتماعي على قبول مبدأ الأب المعيل للعائلة. غير أن تنشئة حيواتنا الصغيرة وتربيتنا كانا منوطين بالأمهات وحدهن.

فالحيُّ الضخم محل إقامتنا، كان يفرغ كل صباح من الآباء الذين يتجهون قدماً لأعمالهم. يمشون بأجفان متثاقلة، كأنهم هائمون على وجوههم حتى وصولهم محطة قطار الأنفاق على طريق كينغز العام، ليستقلوا القطارات التي تنتظر لتكنسهم في نقاط متفرقة من بروكلين، كما أنحاء أخرى من «المدينة». (فلا منطقة في بروكلين كانت لتعرف بـ مدينة «مانهاتن»). كنت تراهم يكدحون في مهمات هائلة لا طائل منها، ولا يشتكون أو يتذمرون، وذلك بسبب الكساد العظيم المستفحل أنذاك. فالأزمة أدخلت إلى أذهانهم قناعات جديدة، وأصبحت مصطلحات كـ«مهنة» و«العمل المناسب»، مبهمة وغريبة عليهم. فأيّ «عمل» عادي، بسيط، وقادر على تأمين احتياجات العائلة لإيجار المسكن و«جلب الخبز إلى المائدة»، كان محور اهتمام الآباء وهدفهم الأول في تلك الفترة.

وعند عودتهم في المساء، يؤلف مشهد واحد ما بينهم، قبل ساعة واحدة من العشاء تحديداً. إذ كانوا يصلون بأكتاف محنية، ورؤوس مطرقة، وكل منهم يتأبط صحيفة نيويورك تايمز جيداً.

تتقدم النساء للترحيب بأزواجهن، وغالباً ما يترافق ذلك مع قائمة طويلة تعرض عليهم حول سلوك أطفالهم المخيب وغير المطيع. تحرص الأمهات على



والدي وأنا

تدوين كل شيء بدقة في أذهانهن أثناء غياب الأب في العمل. تكون نتيجة هذا الابتهال بالآثام، بأن يتلقى الطفل الغافل ضربة عنيفة على رأسه، إما بصحيفة نيويورك تايمز المطوية جيداً، أو بما هو أسوأ.

في حيِّنا في تلك الأيام، كانت هذه الطريقة الوحيدة غالباً، للتواصل بدنياً ما بين طفل وأبيه.

لكن الأمر مع والدي، كان أبعد ما يكون عن ذلك. فلحظة يراني، بعد نهاية يوم طويل في العمل، يجثو على ركبتيه، ثم يحتضنني كأني طفله الضائع الذي عثر عليه تواً. وبعد هذا العناق الأولي، يحملني بكل جزء في ذراعيه، محدقا فيَّ طويلاً وبعمق. فأتبيَّن تفاجؤاً رقيقاً في نظرته، النظرة التي لا أعجز عن فك شيفرتها. لا إشارات لنتبادلها هنا. ذراعاه وهما تطوقانني، كانتا كل ما أحتاج إليه لأقرأ مقدار حبه لي. كان يتكلم بلغة أسمعها، كانت لغة اللمس.

-3-
مباريات الملاكمة

قيامي بدور المترجم لأبي كان شأناً مرتبطاً بالعالم الخارجي. يحدث خارج نطاق المنزل، في عالم السمع. غير أنني، في أحد الأيام، ألفيت نفسي مضطراً لتنفيذ حيلي في تحويل الصوت إلى إشارة، بين جدران منزلنا. كان ذلك مرة أخرى، اختباراً يفوق سنوات عمري، ويتجاوز مهاراتي بسنوات ضوئية.

إنه يونيو من عام 1938، أما المناسبة فهي المباراة الثانية في الملاكمة بين جو لويس، الرجل الأسود المعروف باسم «قاذف قنابل أمريكا الأسمر»، وماكس شملينغ، أمثولة هتلر لما ينبغي كونه التفوق العنصري النازي، وثمرة العرق المهيمن. في مباراتهما الأولى، أخرج شملينغ غريمه بالضربة القاضية. وقد تبجح بذلك الفورر كأنه ديك في تظاهرة عالمية. حان الوقت للملاكم الأسمر لأن ينتقم لنفسه ويعرّي كذب هتلر بشأن التفوق العنصري.

وصل أبي إلى المنزل في ذلك اليوم مُثاراً، ملوحاً بصحيفة نيويورك تايمز في وجهي. «عليك إخباري بكل تفاصيل القتال الكبير!» أشار، بينما قبضتا يديه تلاكمان الهواء. «جو لويس يلاكم ماكس شملينغ. أحمل وجو الاسم نفسه». مصوِّباً إلى صدره. «لويس»، تلفظ بإصبعه مفاخراً.

كان متحمساً جداً للقتال حتى إنه أجبرنا على الانتهاء بسرعة من العشاء الذي استغرق تحضيره من أمي ساعات وساعات. ففي العادة، يحثني على تناول الطعام ببطء، ومضغ كل لقمة ثلاث مرات قبل ابتلاعها- وخمس مرات إذا كانت اللقمة كبد عجل، وهو الطعام الذي كان مقيتاً بصورة تفوق الإحتمال (والوجبة التي بقيت أمقتها تماماً). أما في ذلك المساء، وبعد أن ابتلع طعامه بدل مضغه كما يجب، فقد دفع بكرسيه بعيداً عن المائدة ثم

أشار لي: «هيا بنا!»

بعد مضي برهة على ضبط قرص المذياع، عثرت على محطة بث وقائع المباراة على الهواء. كان الوقت لا يزال باكراً على بدء المباراة. فالمذيع يستعرض في تعليق تمهيدي، تفاصيل سيرة جو لويس وماكس شملينغ، يسترجع مباراتهما الأخيرة، والدلالة السياسية لحدث هذه الليلة. تعقيدات تلك المعلومات تجاوزت بأشواط مستوى استيعابي للوقائع آنذاك، وتمرسي في الإشارة. لم يهتم أبي لذلك. فالمباراة كل ما أثار اهتمامه ذلك المساء.

من خلال مكبر الصوت المغلف بالقماش، تناهى صوت الجرس معلناً بدء المباراة. هدر الجمهور على الفور كقطيع من الوحوش المفترسة، وكان صوتهم صاخباً بما يكفي لإيقاظ الموتى من قبورهم. جلس أبي متشرنقاً بالصمت هامداً، عيناه مثبتتان على يديَّ، على وجهي، وعلى الراديو، منتظراً اليدين الصغيرتين لنقل الصوت غير المرئي، وغير المسموع، إلى إشارة تُفهم وتُرى.

كانت المباراة تتابع سيرها، فيما صُبَّ في أذني ضجيج الحشود، وصوت المذيع الصارخ كسيل جارف عبر المذياع.

جهدت لأروي بالإشارة ما كان يحدث وما كنت أسمعه: كافحت لأواصل مهمتي. فأصوات كثيرة ونيئة، انحشرت في بعضها، قادمة نحوي من الجمهور. وما زاد الأمر مشقة، هو خلو قاموس الإشارة خاصتي، من تعابير مباريات الملاكمة. اووه، طبعاً كان بإمكاني قول دجاجة بالإشارة. فإشارة الدجاجة شبيهة بالدجاجة نفسها، وهذا سهل. كذلك إشارة الذُرة (كنت عظيماً في الخضراوات، فقد لقنني والدي حديقة من الإشارات، مزرعة حقيقة مشبعة بالرموز الإيمائية). لكن كيف أفسر بالإشارة، *قاذف القنابل الأسمر يهبط على اليابسة بلكمة. هو الآن يلكم شملينغ. لكمة، فلكمة، فلكمة. بلا انقطاع. عين شملينغ تتورم وتُقفَل. لكمة، فلكمة، فلكمة إضافية على*

العين. جو لويس سيقتل منافسه. ضربة أخرى. واحدة إلى المعدة. يلتوي جسم شملينغ. اووه، ستجعله هذه يتقيأ ما تناوله على الغذاء.

إحباط مؤلم يقرص وجه والدي الذي يحدّق جاهلاً تماماً فحوى إشاراتي المبهمة، المتلعثمة في الهواء.

محبطاً بالقدر نفسه، قفزت بصورة غريزية على قدميّ، مؤرجحاً ذراعيّ، باسطاً قبضتيّ الطفل ذاك في الهواء. وبما أنه تحتم علي الإصغاء لكل تفصيل على الحلبة، وجدتني أرقص في حلقات على مرأى من أبي. تأرجحت. انحنيت. تمايلت. واتخذت مسلكاً متعرجاً.

اللكمات التي رميت بها تسببت بارتجاج في ذراعيَّ. الصدمة التي أحدثها توقفهما، احتقنت في كتفيَّ. تحدبتُ من الألم. لكنني لم أنزع عن وجهي القناع الرواقي[1] الذي يتحلى به جو لويس، والذي أظهره لي أبي في الصحيفة. كنت أقاتل شملينغ، النازي الجرذ. خذ هذه. *وما رأيك بهذه أيضاً*. صفعة– قفازي الجلدي يهزم وشم السنور اللعين على جسم شملينغ. تخيّلت نفسي أحضِّر الهمبرغر من وجهه الآري، محولاً جسده النازي لحماً مفروماً. فعلت الكثير بالعِرق المهيمن.

حملت نفسي على أصابع قدميَّ ساعياً خلف شملينغ المنكفئ، الجبان على الحلبة.

كان المذيع يصيح، *بوسعه الركض على الحلبة، لكن لا يمكنه الاختباء. لويس يثبت شملينغ على الحبال. إنه يدق عنقه. يسقط أرضاً! يسقط أرضاً! شملينغ يسقط أرضاً! إنه على الأرض.*

(1) الرواقي أحد أتباع المذهب الفلسفي الذي أنشأه زينون حوالي عام 300 ق.م. والذي قال إن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة.

سقطت أرضاً وتمددت فوق خرقة السجادة مباعداً ذراعيَّ في اتجاهين معاكسين.

لويس يقف فوق شملينغ.

قفزت على الفور. ووقفت محدقاً في السجادة دون عاطفة.

شملينغ يرتعش.

سقطت على الأرض. والتففت للتمدد على ظهري، ورحت أرتعش.

شملينغ متجمد كالحجر.

تجمدت كالحجر.

الحكم يلوح بيده للويس البقاء في زاوية حيادية.

نهضت قافزاً وتبعت أوامر الحكم، لأنحى بنفسي في زاوية أرتأيتها محايدة داخل الغرفة.

واحد.

أومأت بمبالغة وتوكيد، الرقم واحد.. ***اثنان***.. إثنان.. ***ثلاثة***.. ثلاثة.. شملينغ يحاول النهوض.. وقعت أرضاً. ومثّلت بأنني أحاول النهوض.. متابعاً إشاراتي.. ***أربعة***.. أربعة.. ***خمسة***.. خمسة.. شملينغ يسقط مجدداً على الحلبة.. وقعت مجدداً على السجادة.. ***ستة***.. ستة.. أشرتُ الرقمَ من على الأرض.. ***سبعة***.. سبعة.. ***ثمانية***.. ثمانية.. ***تسعة***.. تسعة.. عشرة.. كوَّرت أصابعي في قبضة، رافعاً إبهامي، نافضاً يدي بقوة.. عشرة.

انتهت المباراة! هُزِم شملينغ! كنت أومئ كمجنون.

قاذف القنابل الأسمر هو بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل!

ضجيج المذياع صمّ الآذان.

تبخترتُ في أنحاء الغرفة، رافعاً ذراعي النصر، مرافقاً المذياع الذي كان يصبّ صخب الاحتفال والموسيقى في أذني. «هذا لك، أدولف»، صرخت

بأقصى ما تستطيع تحمُّله رئتاي.

أما والدي، فراح يشهق هادراً صارخاً وضارباً الأرض بقدميه، مطلقاً العنان لابتهاج جامح.

أما الجيران في الشقة أسفلنا مباشرة، فأخذوا يضربون سقف بيتهم بطرف مكنسة. فيما كان جيراننا في الشقة المجاورة، يقرعون على الجدار الفاصل بيننا وبينهم. أما أولئك في الطابق العلوي، فبدأوا يضربون بأقدامهم على أرض شقتهم. كانت فوضى.

شعرت أمي بالضجة عبر الأرضية، مستخدمة قدميها، أما الذبذبات الصادرة عن الحيطان والسقف، فكانت تجول في أرجاء الغرفة كصوت منبه.

أما أبي الأصم فلم يسمع بالتأكيد شيئاً، لكن سمات وجهه باحت بكل شيء، إذ أخذ يضحك بصخب على أدائي. وقد انهمرت الدموع من عينيه منحدرة عبر خديه.

«*قتال عظيم!*»، أشار، بعد أن التقط أنفاسه، «*فهمت كل شيء!*».

وقفت في وسط الحلبة، هناك على قماشة خرقة السجاد، مرهقاً لكن متفاخراً. شكراً لله، فكرت، لم يدم القتال لأكثر من جولة واحدة. في سني، لم أكن لأحتمل المزيد من الجولات.

«لم أدر أنك تجيد الملاكمة». قاطعني. «إشاراتك كانت رائعة. غاية في الوضوح». انفجر بالضحك مجدداً. لم يستطع تمالك نفسه.

كنت أُدعى عاماً بعد عام، للقيام بالأمر نفسه كلما كانت هناك مباراة لجو لويس، يتخلص فيها من منافسيه البائسين. لحسن الحظ أنه في عام 1939، أسقط جو لويس منافسه جون هنري لويس بالضربة القاضية في الجولة الأولى. لم يكن جون هنري ذاك يتمتع بمهارة كافية. فأطاح به ملاكمنا «قاذف القنابل» بلكمة واحدة مهلكة.

كان أبي مبتهجاً، ككل أمريكي، سواء أكان أبيض البشرة أم أسمرها.

في العام التالي، غدوت في السابعة، وتمكن لويس، ذلك البطل الفذ، من إسقاط منافسه جوني بايتشك، بالضربة القاضية في الجولة الثانية من المباراة. فكرت، ماذا فعل الفتى المسكين لينال قسطه ذلك من العذاب بقبضتيّ جو لويس. لم أستطع تخيل الأمر. فأنا لن أرغب شخصياً بالوجود في الحلبة نفسها مع جو لويس، حتى ولو مقابل كل شاي الصين، ولتذهب الجوائز المادية إلى الجحيم.

ثباتي، وأسلوبي في الإشارة، جعلاني عرضة للاختبار عام 1941. ففي إحدى أمسيات يونيو الدافئة الصافية، كان على جو لويس القتال ضد الملاكم الصاعد، الأنحف منه بكثير، والأصغر، لكن الخَطِر، بيلي كون. ورغم حماسة أبي البالغة لتلك المباراة، فقد كان مشوشاً بشأنها بشكل مرعب. شرح لي، قبل المباراة، بأن بيلي كون ملاكم يهودي سينافس لويس على بطولة العالم للوزن الثقيل. عقله كان مع شقيقه في الديانة «كون»، أما قلبه، فهو منذ فترة طويلة مع بطله العتيد، لويس.

أنبأني حدسي بضرورة التمرن قبل المباراة، وكان ذلك بالفعل. فأبي كان قد أخبرني بأن المباراة ستستمر لأكثر من جولة. كون شديد الرشاقة. وسوف يبقى بمنأى عن قفازات لويس. لهذا، عليّ توظيف ذهني جيداً، فقد أضطر إلى الاستمرار في الحلبة حتى نهاية الجولات. بإشاراته، عرفت من أبي أن «كون» يستطيع الرقص: إصبعا يده اليمنى مفتوحتان على هيئة V، وساقا الـ V هذه ترقصان بمواجهة يده اليسرى المفتوحة. رأيت بذلك خطة بيلي كون، *الرقص* كوسيلة تمويه بينما يحسم أمره. لذا، تدربت على الرقص. عندما يكون هناك موسيقى في المذياع خاصتي، يبدأ أبي بمراقصة أمي بحسب الإيقاع الذي يستشعرانه بقدميهما صاعداً عبر ألواح الأرضية. لذلك تمرنت باستخدامي

لهذه الصورة في ذهني.

كنت في تمام جاهزيتي تلك الليلة، وقد أضيفت الآن أمي إلى صفوف المتفرجين. كانت تجهل تماماً كل ما يتعلق بالملاكمة ولم تول اهتماماً بهذه الرياضة، غير أنها بدت مفتونة بسلوكي المهووس الغريب. ففيما يضحك أبي، تحدّق هي باندهاش مطلق.

وبينما جلسا بشكل متوقع، أدرت المذياع، وشرع الملاكمان في القتال. انحنيت على الفور وتراجعتُ بحركات راقصة. فأنا بيلي «كون».

تحاشيت اللكمات، تجنبت الرد، تمايلت، تحركت في الغرفة بمسار غير مستقيم. ثم قلبت الأدوار، إنني الآن جو لويس. مشيت بغطرسة، سددت لكمات غير فعالة في الهواء، مالئاً الفراغ الذي أحدثه «كون» للتو بحركته السريعة.

بانغ! نهاية الجولة الأولى.

لم تتغير الحال، جولة بعد أخرى. انحنيت. تقدمت. تجنبت الرد. تأرجحت. ورقصت. أيها الصبي، أوه، أيها الصبي، هل رقصتُ فعلاً تلك الليلة، لقد رقصت بكل شغف طفل في الثامنة. أما مكافأتي، فكانت نظرة تعجب واندهاش ارتسمت على وجه أمي.

الجولة العاشرة، الحادية عشرة، الثانية عشرة، انتهت كما بدأت بالنتيجة ذاتها: لويس يتقدم، و«كون» يرقص.

بيلي كون على أطراف أصابع قدميه، صرخ المذيع. *إنه كمن يراقص عاصفة. يراقص ويراقص. لويس* **لا يتمكن من إسقاطه بالضربة القاضية.**

بين الجولتين، كنت أجلس في *زاويتي* (استخدمت لهذه الغاية كرسي مطبخ بلا ذراعين ولا ظهر) مرهقاً. تساءلت، إلى متى يمكنني أنا– أعني أنا، بيلي كون– أن أستمر؟

في الجولة الثالثة عشرة، حصلت على الإجابة. لن **يستمر أكثر!** *كون يتراجع. كون يرقص، يرقص..* **أووف،** *لويس يتمكن من حشر كون في الزاوية البعيدة من الحلبة. كون يبدو يائساً. لا يستطيع التملص يساراً. لا يستطيع التملص يميناً.* خطوت *إلى اليسار.* خطوت إلى اليمين. وكنت أعود إلى حيث بدأت، عالقاً في زاوية الغرفة.

لويس يصوب لكمات قصيرة إلى جسم كون. كون يغطي نفسه. لكمات لويس الآن تتوجه إلى الرأس. يا لها من لكمات. إنها تنطلق من مسافة ستة إنشات، لكن انظر إلى الضرر الذي تحدثه. غطيت رأسي. رأسي يرتد إلى الوراء، ثم جانبياً. لويس آلة لكم. أبدّل موقعي وألكم، ألكم، ألكم الهواء. كنت جو لويس، قاذف القنابل الأسمر. كنت مكبساً، رجُلاً يدقُّ الركائز.

ضوضاء هائلة صدح من المذياع. كون يهوي *أرضاً.* ***إنه على الأرض.*** *إنه على الأرض. تمكن منه لويس بلكمة على طرف فكه، بين تمايله وترنحه.* كففت عن التمايل. كففت عن الترنح. ذقني يرتج بعنف. *كون لا يرقص في هذه اللحظات.* كففت عن الرقص. وقعت. *يمكنك أن تركض، لكن ليس بوسعك الاختباء، ليس من قاذف القنابل الأسمر.* مستلقياً على سجادة الحلبة، عرفت أن المذيع سيقولها. «يمكنك أن تركض، لكن ليس بوسعك الاختباء من لويس».

أكمل العدُّ طريقه نحو النهاية المحتومة كما كل مباريات لويس: **عشرة! أنت الخاسر.**

قفزت أرضاً. نطقت بالإشارة الأرقام التي لا مفر منها. **انتهت المباراة.**

رائع! رائع! أشار أبي بجذل واضح.

أمي اكتفت بالنظر إلى ابنها، وكأنها تراه لأول مرة، مذهولة. لم تشاهد، طوال سني عمري الثمانية، عرضاً إيمائياً كهذا. بدت متأثرة.

في عام 1942، التحق لويس بالخدمة العسكرية في الجيش الأمريكي، شأنه شأن الملايين من حديثي السن واليافعين في الولايات المتحدة، وشقيقيّ أمي اليافعين: هاري، الفتى الهادئ، المقتصد في ماله وقليل الكلام، الذي، تحسباً لوالدته سيليا، لم يواعد سوى فتيات إيطاليات. وميلتون، الأصغر سناً، الذي كان دائم الحديث عن فشل النظام الرأسمالي. في ذلك الوقت البسيط، كان يمكن تبني أيديولوجيا جاهزة، فليس لديك وقت كي تتمنهج. كانت حرباً مختلفة، كما الزمن.

عُلِّقَتْ المبارايات خلال تلك الفترة. فقد أيقن الجميع، بمن فيهم الأولاد أن «الفترة» تعني– حتى انتهاء الحرب. كل أشكال حياتنا اليافعة، تجمدت أثناء الفترة، فيما تواصلت الحرب كمسألة حياة أو موت. وتعاظم الصراخ في وجوهنا كلما سألنا شيئاً «ألا تدرون أن هناك حرباً تدور رحاها في العالم!»، صراخاً كان يتدفق مغادراً ملايين الشفاه التي لأمهات بروكلين. كان ذلك يقفل كل باب للنقاش.

المفيد في الأمر، هو أنني حظيت باستراحة، لأكف عن استعراض مهاراتي الخاصة في لغة الإشارة. ولم أعتقد، بعد مباراة لويس الملحمية الأخيرة، بوجود جولة أخرى سيكون عليّ تمثيلها.

انتهت الحرب عام 1946، فعاد جو لويس لممارسة الملاكمة، كان عمري وقتذاك ثلاثة عشر عاماً وقد اشتد عودي. ورغم أن مهاراتي في الإشارة تطورت، وأصبحت أكثر عمقاً، إلا أن ذلك لم يحل دون إلحاح والدي لنطق المباريات بلغتي الإيمائية الخاصة، كما في الأيام الغابرة. لذلك، كنت محظوظاً باكتسابي القوة والقدرة على التحمل، ذلك أن لويس الآن متقدم في السن نسبياً، وبطيء الحركة. فقد مهارته في الإجهاز على خصومه بسرعة كما في السابق. وكانت كل مباراة تستمر جولات وجولات. ففي عام 1947، استغرق

الأمر خمس عشرة جولة للقضاء على الملاكم الصاعد جيرسي جو والكوت. قدَّمتُ في تلك المباراة، أفضل استعراض في لغة الإشارة، بحسب أبي.

في 1949، ابتاع ابي جهاز تلفزيون طراز دومونت. كان قد خفض سعره إلى 999$. علماً بأن الحد الأدنى للاجور وقتها، لم يتخطّ عتبة الأربعين سنتاً في الساعة. أما تدبُّر أبي لكلفة شراء لهذا الجهاز، فبقي لغزاً محيّراً عجزت عن حله. فكونه أصماً، لم تكن مشاهدته للتلفاز وسيلة ترفيه، بل ضرورة.

شاشته ذات الثمانية إلى عشرة إنشات تحدِّق بك عيناً بعين، تتقدمها عدسة تكبير بلاستيكية، مثبتة بسلكين، جاعلة منها شاشة قياس عشرين إنشاً، تبث صوراً مشوشة غير واضحة إلى حد كبير. الخلاصة، أن صور التلفزيون المائية النافرة، بفضل عدسة التكبير هذه، جعلتنا نشعر وكأننا أسماك ذهبية، تحدِّق إلى الخارج عبر حاجب حوض الأسماك الزجاجي.

منذ ذلك الحين فصاعداً، سيتابع أبي مباريات الملاكمة عبر التلفزيون، فلن تدعو أي حاجة لأفسر له بالإشارات بعد الآن.

تقاعدت إذن من دون أن أُهزَم. وبعد كل مباراة، وتعقيباً على احتفالات الفوز، وإذ تتابع أمي الأمر بتسلية كبيرة، كان أبي يقوم بصنع تاج من الصحيفة التي يحضرها معه، ويكلل رأسي به: أنا حامل لقب بطولة العالم في الملاكمة بالإشارات.

وفي ختام الاحتفال بالفوز، تعلن إشارات أبي بحزن قائلة: «أحببت بالطبع مشاهدة القتال عبر التلفزيون، لكن الأمر لم يكن على قدر من الإثارة كما كنتَ تفعل». فأشعر بغبطة لمعرفتي هذا. غير أنه يضيف، بوميض في عينيه، وابتسامة «فالملاكمان لم يكونا مضحكين بقدرك».

تذكارات: أصوات ليلية

ذات ليلة، وبينما أنا مستغرق في النوم، أيقظتني أصوات غريبة على غير عادة، في شقتنا. كأن أحداً ما يُضرَب، يزفر بهمهمات، ونخير وصرخات مكتومة.

قفزت من السرير على الفور، وحثثت الخطى مسرعاً نحو غرفة نوم والدي. كان باب غرفتهما مقفلاً، لكن غير موصد، فَهُما كأصمين، لم يتعمدا أبداً إبقاء ابنهما الوحيد صحيح السمع، خارج الغرفة.

دفشت باب الغرفة، لأتبيّن بعد ذلك، مصدر الأصوات المنبعثة. كانت غرفتهما مصدر تلك الأصوات. هرعت إلى الداخل، على وقع الضوء الخافت، ليظهر أمامي أبي جاثماً فوق أمي. كان يشخر فيما هي تئن. أخافني ما رأيت. قفزت على ظهر أبي العاري، صارخاً في أذنيه الصماوتين: «كفى! توقف! إنك تقتل أمي!».

أبي الذي لم يتوقع أياً من هذا، التفت في متفاجئاً، طرحني أرضاً عن ظهره، وقد أحدث ارتطامي بالأرضية الخشب، صوتاً مكتوماً. أضيئت الأنوار. فيما كانت السيدة بروموفيتش في الشقة أسفل شقتنا تماماً، ترطم بعنف سقف غرفتها بعصا المكنسة، باعثة أصوات بانغ بانغ بانغ في أرجاء المكان.

انتشلني أبي عن الأرضية بذراعيه. كنت أبكي. هدأ من روعي، ثم مسح بأطراف أصابعه، الدموع التي سالت على وجهي.

«ما الخطب؟»، أشار.

«لماذا تضرب أمي؟»، أومأت. لم يكن في جعبتي سوى القليل من الإشارات التي تدل على الضرب، وقد استنفدتها بالكامل.

لم تحد عيناه عن إشاراتي المهتاجة، وما إن أنهيت عرضي، حتى أطلق

ضحكة تردد صخبها في المنزل كله.

أجاب، بعد أن جهد ليستعيد أنفاسه، «لم أكن أقتلها». ثم استتبع كلامه قائلاً «كنا نتمرن». وقد أرفق جملته الأخيرة بالضحك.

لم يكن لديّ أدنى فكرة عما يثير ضحكه إلى هذا الحد. غير أن انسياب ضحكاته بهذه الطريقة، كان بمثابة تأكيد بأن الأمور على ما يرام.

ما قاله حقاً صحيح، فخلال مرحلة الطفولة، كنت أسمعهما يتمرنان من وقت لآخر، وبانتظام!

-4-
طفل آخر

ولد أخي أروين عندما بلغت الرابعة من العمر. سيليا وماكس، والدا أمي، لم يبديا ارتياحاً لإنجاب ابنتهما الصماء طفلاً ثانياً. فهما لا يزالان غير متيقنين من أسباب فقدان ابنتهما البكر حاسة السمع. ويظنان أن ذلك قد ينسحب على أطفالها كما حدث معها وهي طفلة. أما احتفاظ ابنها البكر، أنا، بحاسة سمعه، فلم يكن بالنسبة لهم، سوى معجزة. وقد بررا اعتراضهما على المسألة برمتها، بأن ثمة مجازفة في السعي وراء معجزة ثانية. فلماذا؟ أن تكون آمناً خير من أن تصبح نادماً. «لا مزيد من الأطفال»، قالت جدتي. فيما أصر جدي «طفل واحد يكفي!» واخزاً ابنته بسبابته.

وفي نادرة قلما تكررت، لم يبد أبي اعتراضاً على قولهما. اعتبر أن والديَّ زوجته، يتحليان بفطنة قياساً بالمهاجرين الآخرين، الذين لا تحصيل علمياً لديهم، والذين بالكاد سنحت لهم فرصة استقلال قارب إلى أمريكا. كان يثير غيظه، أن يحشرا أنفهما في شؤون عائلته الصغيرة، لكنه أخفى ذلك الشعور. «من أين أتى هذان المهاجران ليمليا عليَّ ما يجب فعله؟»، تتمتم يداه. «لمجرد أنني أصم، يعتقدان أنني أبله، أنني لست سوى طفل». ولئن عبد زوجته الجميلة، التي كانت تستدفئ بحب والدتها غير المخفف، فقد جعل لسانه-يديه يحجم عن إبداء رأيه صراحة. أما في أكثر اللحظات استفزازاً، مثلاً عندما كتبت ماري، خالتي، إلى والدها، حماه، تحذره من عدم مسؤولية وسذاجة هذا الرجل الطفل، «لأنه أصم وأبكم صامت»، جلس أبي حرفياً على يديه ليحتويهما، وكأنما تملكته رغبة في خنق تلك الهنغارية الغجرية.

أما في مسألة الاكتفاء بطفل واحد، فكان متفقاً تماماً مع حمويه. والدتي

تجاهلت كعادتها رغبة أبويها كاملة. كانت تُكِنُّ حباً عظيماً لوالدتها، غير أن هذا لم يؤثر على إدراكها منذ الصغر، باختلافها عن والدتها كما عن أفراد العائلة الآخرين، من صحيحي السمع. حياتها الآن منوطة بعائلتها الخاصة بها، عائلتها الصماء. وهي عاقدة العزم على التفاهم مع زوجها بشأن إنجاب طفل ثان.

ظلت المسألة مثار نقاش بينهما لأكثر من ثلاث سنوات، منذ أن ظهر جلياً لهما، أن حاسة سمع طفلهما الأول، لن تُتلف. أشار لها بأنهما سيكونان قادرين بشكل أفضل على تربية طفل واحد، بدلاً من اثنين. كان ذلك عام 1937، وكانت ارتدادات الكساد الكبير، لا تزال تضرب مفاصل البلاد. «وماذا سنفعل إن قلصت الصحيفة ساعات عملي؟»، جادل بذكاء. «أريد طفلاً آخر». اومأت أمي بعذوبة. «وماذا لو ترتب عليّ العودة إلى وردية السلطعون؟ كيف ستتدبرين أمرك ليلاً؟»، لفت انتباهها بعقلانية. أجابت «مايرون سيساعدني».

كل هذا النقاش كان عقيماً. أرادت أمي إنجاب طفل آخر، وأبي الذي أحبها بشغف، لم يقو على رفض طلبها. لم يكن ثمة شك حول ما ستؤول إليه الأمور، فكل ما تطلبه سارة، تجده، ليس في هذه المسألة وحسب، بل وأيضاً في الشؤون الأخرى. حظيت في النهاية بطفل آخر.

ولد أخي بحاسة سمع طبيعية (الواقع أن تسعين بالمائة من أطفال الصم والبكم، يولدون صحيحي السمع). عندما أُبلغ في المستشفى، أن لا عيب في حاسة المولود الجديد، ساد الاعتقاد لدى كلا الجانبين من العائلة، بأن لعنة الصمم قد تلاشت كلياً. ولذلك، تخلى الجميع عن فكرة الزيارات الأسبوعية المنتظمة لشقتنا، بغرض ممارسة طقوس الطرق على الأواني والمقالي لسنة كاملة.

منذ لحظة وصول والدتي من المستشفى، بتّ ملزماً بالقيام بدور الوالد البديل لأخي إروين. تخلت أمي عن حاجتها لربط معصمها بشريط يصل إلى قدمه مثلما كانت الحال معي. أنزل العبء عن كاهليها باعتمادها عليّ في شؤون الطفل الجديد. فالشريط المخملي ذاك، استُبدل الآن بي. وأنا بالنسبة لها، كنت وسيطاً أكثر إرضاء، بينها والمولود الجديد. ففوق كل شيء، الشريط لا يستطيع النطق بالإشارة.

أخذ مهد أخي موضعاً له بجانب سريري. فعندما يستيقظ ليلاً، باكياً من أجل زجاجته، تقع على عاتقي مهمة إيقاظ أمي. وعندما يستيقظ ليلاً مصاباً بمغص في معدته، تقع على عاتقي مهمة إيقاظ أمي. وعندما يستيقظ ليلاً نيّقاً، عصبياً، تقع على عاتقي مهمة إيقاظ أمي. لكن، عندما أخذ يكبر، كان سبب استيقاظه أحياناً، وببساطة، عدم رغبته في النوم. كان عليّ عندها، ملاعبته في مهده، بينما هو مستلق على ظهره.



إروين وأنا

كان إروين طفلاً وديعاً إلى أبعد الحدود، ريّاناً، ميالاً للتواصل بالعين، وسريع الابتسامة والقهقهة. كنت حين أنظر إليه، يطوّق ساقيه ببعضهما على شكل دائرة، فتتموج ذراعاه بما يبدو تعبيراً عن حماسة عظيمة. أما أنا، فكانت إجابتي تمثُلُ في وجهه، بأن تتمايل ذراعيَّ في الهواء طلباً لمزيد من حماسته. أما إذا أخفقتُ، فيكون عليّ صنع وجوه له. التعبيرات الوجهية المبالغ بها، التي تناقلتها بغير قصد، عن والدي، أصبحت جزءاً من قواعدي اللغوية الصماء. أن أرفع حاجبيَّ عالياً مثلاً، وأنفخ خديَّ إلى حد الإنفجار، لأرى إن كان باستطاعته محاكاتي.

فكرت أن أعلمه النطق، وكان ذلك يحدث في أوقات قريبة من منتصف الليل، عندما يخيّم الهدوء على بيتنا وما عدا الاصوات المنبعثة من المذياع، لا يتناهى إليَّ أي صوت آخر. لكن لو تمكن أخي من التكلم، فسيعني هذا صحبة لي في المنزل. سيصبح هناك من أتحدث إليه، ويبادلني بدوره الكلام. تملَّكني الفضول لمعرفة سمات صوته. فكوني طفلاً لوالدين أصمّين، أدرك تماماً ماهية الأصوات، طريقة لفظ سكان الحيِّ كلماتهم، لهجتهم، إضافة إلى موسيقى عباراتهم في حالة والد صديقي المهاجر الإيطالي جيري. وبما أن أخي الأصغر لم يبدِ في بعض الأحيان، استعداداً للنوم ولو قليلاً، فقد كان ينظر إلي بعينين مفتوحتين مستيقظتين، بينما أعاود لفظ الكلمات مرة تلو الأخرى، علّ وعسى أنتزع منه استجابة. طبعا، لم تكن هناك بوادر أمل قياساً بسنه، لكنني كنت عازماً على لعب دور البديل البشري للمذياع. وبمرور الوقت، تمكن أخي من النطق، وفي سن مبكرة نسبياً.

هناك صورة بالأبيض والأسود لأخي في سن الثالثة تقريباً، معلقة على جدار غرفتي بين صور العائلة. طفل استثنائي، فاتن، ذو شعر مضفور، مع شلة من شعره المنفوش تتدلى فوق عينه اليسرى. أما نظرته، فمطابقة لواحدة من نظرات

الشقي «هاكبلري فين»[1] التي تتوعدك بأذى. وجهه مدور، وخداه الممتلئان، يحملانك على الاعتقاد بأنه يخفي تفاحة ناضجة في كل جانب منهما، ليغيظ– دون شك– أمي. تتفوق عيناه على سائر ملامح وجهه، فهما كبيرتان داكنتان ومفعمتان بالحياة. تشعان بذكاء عميق يومض منهما، وتأخذان وضعاً جانبياً معلنتين عدم اكتراثهما برهبة الكاميرا، وكأن في ذلك تدبير لمقلب قادم. فتعلو شفتيه ابتسامة رضا، مفترضة حدسه بما يدور حوله.



إروين، قرابة 1940

يرتدي في الصورة سترة من الصوف حاكتها أمي، مضمومة عند الخصر، أما الأكمام فمقلوبة حتى منتصف ذراعيه. تتدلى يداه البدينتان بشكل مستقيم،

(1) هاكبلري فين: شخصية ابتكرها مارك تواين (1835– 1910) الكاتب الإنجليزي في روايته «مغامرات ماك فين» التي نشرت للمرة الأولى في فبراير 1885. وماك فين يساق وصديق له، كعبدين، قبل أن يقررا الهرب والتحرر.

أصابعه العشرة تتشابه وأصابع نقانق نازلة إلى الأرض. تمتعت أمي بمهارة فائقة كحائكة وخيّاطة (لم تستعن إطلاقاً *بنماذج لتصميمات*)، لكن كل حلة تصنعها، كانت تبدو كبيرة جداً. «لن يتخطى جسمك حين تنمو، مقاسها»، تشير كلما أبديت اعتراضي على أي قطعة ملابس خاطتها فضفاضة (عندما أفكر في الأمر، يتراءى لي أنني، ولسنوات، كنت طفلاً لم يبد عليه النمو داخل تلك الثياب التي صنعتها من أجلي).

تحت السترة المحبوكة يدوياً، يظهر سروال أخي مجعداً، يكشف عن ساقيه العاريتين القصيرتين البدينتين، مع غمازتين في كل ركبة. وزوج من الجوارب، التي حاكتها أمي، يلقي نظرة من فوق حذائه الجلدي العالي، ذي الرباطات. العقدة في إحدى فردتي الحذاء، انحلت، والرباط يُجَرُّ على الأرض خلف قدمه. هذه الصورة، المأخوذة بكاميرا أبي ماركة براوني، كان يمكن أن تكون إحدى لوحات الرسام غينزبورو.

بعد عامين على هذه الصورة، أصيب أخي إروين بأول نوبة صرع في حياته.

ذات ليلة، وبينما كنت نائماً، أيقظتني أصوات لم أصادف مثيلاً لها من قبل. تلمست موقع مفتاح الضوء بجانب السرير، وعثرت عليه. أدرته لأواجه أمامي مشهداً جعل فرائصي ترتعد. ففي السرير الملاصق لي، اجتاحت أخي نوبة صرع رهيبة. غاص بؤبؤا عينيه داخل رأسه، ولم يظهر في محجريه سوى البياض. جلد وجهه شُفِط بقوة نحو جمجمته. أسنانه أطبقت على بعضها بإحكام، وقد بان طرف لسانه ناتئاً إلى الخارج، وتدفق دم غزير فوق غطاء الوسادة. كان جسمه متصلباً كلوح خشب. يفرفر، يتلوى ويرتعش. تبعثرت ذراعاه وساقاه في كل إتجاه، كأنها أذرع طاحون هواء مجنونة. وتصبب العرق غزيراً من جسمه. كنت مصعوقاً لهول ما رأيت، متجمداً كقطعة حجر.

لا أستطيع تحديد مدة نوبة الصرع تلك بدقيقة واحدة أو ساعة. إذ فرغ الزمن من معناه. وانصبّ اهتمامي على أخي الذي تحول فجأة، إلى مخلوق عجزت طاقتي الذهنية على استيعاب منظره.

في لحظة واحدة، سكن أخي، فقد زالت النوبة، لكنه كان لا يزال ممدداً غارقاً في عرقه، وجهه مغطى بالدماء، وغير واع بالمرة.

هرعت لأوقظ أمي وأبي. تم ذلك بسرعة. ارتعشتُ أمام أبي، وقد أرعبته ما أومأ به وجهي. وأطلقت أمي صرخة. دخلا الغرفة بهلع، ليبصرا ما يشكّل كابوساً لأي والدين: ابنهما إروين مغطى بالدماء، التي صبغت الأغطية والمخدة، واستلقى هو منقطع النفس كميت.

حضنت أمي بين ذراعيها جسده الهلامي الهامد وكأنه خال من العظم، فيما بادر أبي بحنان، إلى تجفيف الدماء عن وجهه وبدنه بقماشة مبللة، باحثاً عن مصدر النزيف.

كانت تلك الليلة فاتحة نوبات الصرع، التي تواصل حدوثها لسنة كاملة، بلا توقف. فكان أبي قبل النوم، يوثق ذراعي بشريط قماشي يمتد إلى ذراع إروين المستلقي في سريره، الذي أصبح الآن إلى يمين سريري. على طاولة بجانبي، وضعت مجموعة من المنحّيات[1] الخشبية، التي غلفها أبي بطبقة سميكة من ضمادات الشاش. أما التعليمات فبسيطة. «عندما تشعر بارتعاش الشريط القماشي، فهذا يعني أنها إشارة على بدء دخول إروين نوبة الصرع. تنهض فوراً. وتجلس فوق أخيك. تفتح فكيه بالقوة، مباعداً لسانه عن أسنانه. تزلق المنحّية بين فكيه، متأكداً، واحرص على هذا، بأن يكون لسانه بمنأى عن أسنانه. ثم، فقط بعد ذلك، تخرج أصابعك من فمه. كن واثقاً مما تفعله، لكن كن سريعاً أيضاً. عندما تنتابه التشنجات، عليك أن تثبّت جسده، بين فخذيك،

(1) المنحيات ج. منحّية: أداة لتنحية عضو كاللسان أو للضغط عليه أثناء عملية جراحية.

جاثماً فوقه، محافظاً على موضعه قدر الإمكان. قم بما يلزم كي لا تسمح له بالارتعاش في سريره». أضاف، «أنا ووالدتك نعول عليك في هذا. تستطيع أن تسمع. أما نحن فأصمان». لم يتجاوز عمري آنذاك التسعة أعوام.

اكتسبت خبرة في تنفيذ هذه المهارات المقتصرة على فئة قليلة من الناس. أصبح نومي خفيفاً، ولم تعد تراودني الأحلام، كنت أهبّ من السرير مستيقظاً ما إن يتصلب أخي. حدث هذا كل ليلة خلال السنة الأولى، في توقيت مضبوط كمنبه ساعة. تبدأ يده بالارتعاش، فتستل القماشة الموصولة بيننا، يدي من موضعها، ثم تراني أضحيتُ، وبقفزة واحدة، جاثماً فوق جسده، مثبتاً إياه بين فخذي. بعد ذلك، لا تُضِلُّ المنحية الملفوفة بالشاش، طريقها إلى فمه، محمولة على يدي، دون وعي مني بما أفعل. فأبقي فمه مفتوحاً، وأقحم المنحّية فيه، دافعاً بلسانه كما ينبغي. وتتكلل مهمتي بالنجاح أغلب الأحيان. وفي بعض الليالي، أتمكن من إخراج أصابعي من فمه قبل أن يقفل بعضة، لكنني أفشل في إبقاء لسانه بمنأى عن فكيه المطبقين بإحكام. فتبدأ الدماء بالتطاير. وأحياناً، لا أتحلى بالسرعة المطلوبة لإخراج أصابعي قبل إطباق فكيه، فيمتزج دمي بدمه.

لكن، في منتصف ذلك العام، دخل أخي مرحلة جديدة من نوبات الصرع التي أصبحت متتالية في الليلة الواحدة. كان عليّ، حين حدوث هذا، أن أوقظ الجارة في الأسفل، مستأذناً استعمال الهاتف للاتصال برقم الطوارئ 911 (أو ما كان يماثله من خمسة وستين عاماً). لم تمانع مرة. بعدها، أرافق أبي وأخي فاقد الوعي في سيارة الإسعاف متجهين إلى مستشفى كوني آيلند. هناك، يتوجب علي استئناف الروتين غير الاعتيادي، لأتحول صوتاً لأبي وأذنين. كما كان علي، في هذا الظرف الاستثنائي، أن أكون أيضاً صوت أخي المريض، وأذنيه.

كره أبي أن يزج في هذا الوضع، عاجزاً عن تقديم المساعدة، بسبب صممه.

اكتشفت هذا غريزياً. كما أن المعاملة الغافلة، غير المكترثة، وعديمة الشفقة، التي تلقاها والدي من كل موظفي المستشفى، بدءاً من سائق سيارة الإسعاف ومروراً بالممرضين والأطباء، فاقمت من حدة ألمه. فأحد لم يعره اهتماماً. إذ ينحرف كل هذا باتجاهي، لينصبَّ اهتمام الجميع عليّ. أتصور المذلة التي شعر بها والدي، كأب ناضج، في ذلك الوقت: متجاهَلٌ ومنبوذ كأنه طفل بلا فائدة ترجى، فيما الجميع يتحدثون إليَّ بشأن أخي، كأنني والده.

دامت نوبات الصرع خمس سنوات، لكن حضورها خلال تلك الفترة أخذ بالتناقص تدريجياً. فقد كان إروين يتناول بشكل يومي، مجموعة من المهدئات بما فيها الفينوباربيتال، مما جعله يبدو كميت أُعيد إلى الحياة. ومع أنه تمكن من ارتياد المدرسة في السن المناسبة، إلا أن ذهنه بقي مشتتاً في الصف، وقد بدا كمسرنم. أخبرني عن مدرسته بعد سنوات قائلاً: «لم أكن أفهم شيئاً». فكيف له أن يفلح بذلك وهو مساق بنسيان تسببت به مهدئات لا يجوز وصفها لطفل يعاني الصرع في أيامنا هذه؟

لم تعد تنتاب أخي نوبات الصرع، لكن أمي كانت قد أصبحت مفطورة الفؤاد.

أما مشاعري إزاء حالة أخي فكانت مركّبة. منذ بلوغي التاسعة، عام بدء نوبات الصرع، وحتى تسللي من مدرستي الثانوية مدفوعاً بحبي لكرة القدم، كانت جذور حبي لأخي مغروسة في شعور بالامتعاض نتيجة حاجته الدائمة لي. لم يكن بتاتاً مجرد أخ صغير- وما كان مثل هذا الأمر ليحصل إطلاقاً، وذلك بسبب تورطي داخل شبكة دبقة من المسؤوليات الدائمة. فمنذ لحظة ولادته تقريباً، غدوت مسؤولاً عن «توجيهه» ذهنياً. وانصبَّ تركيزي الأساسي عليه هو وليس أنا، كذلك الأمر بالنسبة لكل احتياجاته. الاحتياجات التي كانت تحتل الأولوية، في نظر والدي ووالدتي، قياساً بما أطلبه. ومع بداية نوبات

الصرع، لم تغفل احتياجاتي فقط، بل طُمِست.

وطبعاً، توليت مسؤولية رعايته الكاملة ليلاً.

عندما كبر أخي، لم تعد مهمتي منوطة بتلقينه الكلام، بل أضيفت إليها مهمة الوسيط المترجم بينه وبين والدينا. اكتسب بدوره، المهارات الأساسية للنطق بالإشارة من خلال الإرشادات العرضية واليومية لوالديَّ، إلا أن الأحاديث التي تنطوي على لغة معقّدة، لم تكن تتم إلا من خلالي أغلب أوقات طفولتنا.

كانت أول لغاتي، إشارة. أما أول لغات أخي، فوجب أن تكون منطوقة. حين كان طفلاً، خلت تعليمه الكلام أمراً مسلياً. لكن سرعان ما تحول ذلك إلى عمل. وكانت مسؤوليتي إطلاع والدي على تفاصيل تقدمه في اكتساب النطق. لكن، كيف أمكنهما كأصمين، معرفة مدى جدوى ونجاح وصايتي عليه؟

أحببت أخي وشعرت بالأسى تجاهه. لكن اعتماده عليّ وترقبه الصامت لما يتحتم عليّ إنجازه كوليٍّ لأمره، كان عبئاً أثقل كاهلي. كوالدي، الذي أعجبت به، وكان أيضاً عبئاً وددت بشدة لو لم يُلق على عاتقي.

لماذا كان عليّ دون سائر الأولاد في الحي، وحتماً على امتداد بروكلين كلها، وربما في العالم أجمع، أن أتحمل مسؤولية أخ مصاب بالصرع، ووالدين أصمين؟ تساءلت، غامراً نفسي بدفء ماء الشفقة على الذات. لماذا لا أكون ببساطة كأي ولد آخر في البناية؟ هذا ليس عدلاً. فكرت. فأنا مجرد صبي.

وجدت نفسي في حالة من الضجر الشديد، والرغبة بالانكفاء عن كوني الصبي ابن الوالدين الأصمين، والعدول عن كل المترتبات الإلزامية لهذا الوضع. لكن حال أخي الصحية، والمسؤوليات الجديدة التي رميت في وجهي، كانتا شأناً آخر. الجدير ذكره، أنه كان يشار إليّ في الشارع كابن «الأطرشين» في الشقة «3– أ»، التي كانت أكثر شقق الحي شهرة. لم يطلق

عليهما لقب السيد والسيدة أولبرغ، ولا حتى نُودِيا بلويس وسارة. ليس أكثر من «الأطرشين والأخرسين في 3- أ». هذا التجاهل الذي كان يمتدّ إلي، باعتبارهما مجرد شيئين مثيرين للفضول، والشفقة، تكيّفت معهما. لكن، أن أصطحب أخي في الشارع ظهيرة يوم مشمس، فيما أبي يعمل، وأمي مشغولة بتنظيف البيت، ثم لا يلبث أن يسقط أمامي فجأة، لسبب غير مفهوم، متصلباً، مع عينين متحجرتين كالزجاج، كرجل ميت على الرصيف، فقد كان شأناً مختلفاً تماماً. نعم. ألفيتُ إروين على حين غرة ممدداً هناك، وعاجزاً، فقد انتابته تشنجات، وفي غضون لحظات، تحوّل جسمه المتصلّب من كتلة عضوية إلى صورة حجرية طبق الأصل عن ذلك الولد إروين.

احتشد أصدقائي حولنا، ساهمين محدقين بأخي الذي انهار على الرصيف بشكل يتعذر التحكم به، بعد أن انزلق عن الحاجز الحجري عند حافة الطريق إلى مصرف المياه. جثمت فوقه بعيد الحادثة، مباعداً بين ساقيه، وكأنني أمتطي حصان قفز.

الرب غير المكترث بالصم، ذو حس الدعابة المنحرف، منح والدتي الصماء حساً تعويضياً بتوارد الخواطر. استطاعت حدس الأمر، لتطلّ من نافذة غرفة النوم في الطابق الثالث، فتندب وتولول بصوتها الأبكم، وهي تتلقف المشهد بعينيها.

ذات مرة، وبعد فترة لعب امتدت طيلة بعد الظهر، في فناء بنايتنا، تقاطع دخولي إلى البيت، مع محادثة عميقة تدور بين أبي وأمي. كانا منهمكين في التعبير بالإشارة، حتى أنهما أغفلا وجودي. ثمة طريقة واحدة لألفت انتباههما إليّ: أن أضرب بقدمي الأرضية الخشب، بشكل متتابع (مع خطر ردة فعل مكنسة الجيران في الأسفل) أو أن أحشر نفسي بين أيديهم التي تتطاير. لكنني وما إن دخلت، حتى ذهلت بما كان يقوله أبي لأمي، ولم يكن لي في ذلك سوى موقع

المتفرج. فلم أستطع شيئاً حيال الأمر.

«لماذا لم تصغي إلي يا سارة؟ قلت لك إن طفلاً واحداً يكفي. انظري ماذا لدينا الآن، طفل مسكين تسيطر عليه النوبات ليلاً، وينام طيلة النهار. حتى عندما يستيقظ، لا يكون في كامل وعيه. كل هذا بسبب الأدوية التي يتناولها. قلت لك، لكنك لم تستمعي إلي».

«لماذا تقول هذا لي الآن؟»، أشارت أمي. «ما حصل قد حصل. لا سبيل للعودة إلى الوراء. استحممتُ كل ليلة بالماء الساخن لمدة شهر كما طلبتَ. لم يتغير شيء. وأنا سعيدة لأنه لا شيء تغير. كانت مشيئة الله أن يولد هكذا. إروين ليس مسؤولاً عن مرضه. سوف نتدبر الأمر. *دعني وشأني!*».

«لا تحدّثيني عن الله. ماذا فعل الله من أجلي؟»، كانت يداه تهتزان فوق رأسه، قبل أن تهبطا مجدداً. «الذي فوق»، كانت إشارته عن الله فظة رافضة، «جعلني وحدي أصماً وتجنب أخي وأختيّ. كما جعل منك صماء كذلك، مستثنياً أخويك وأختك».

لم أحتمل رؤيتهما يتجادلان بتلك الحدة. ذلك أنه أمر نادر. وقد أفزعني المشهد بصورة عميقة، وكما لو أنني مركب فُكَّت مراسيه، وجدتني أُجرف ما بين والدي الأصمين وأخي العليل. ركضت إلى الخارج، باحثاً عن فسحة للهروب بين جمع الأصدقاء، ولم أعد إلا بعد أن نادتني أمي من نافذة شقتنا. وقد تلاشى أي أثر للجدال بشأن أخي، والإله غير المبالي بوالدي.

تذكارات: قطارات.. قطارات.. قطارات

يوم بلغت السابعة، وصل أبي إلى المنزل عائداً من عمله، متأبطاً علبة مبهجة ملفوفة بورق هدايا. كانت عدة قطار.

«هذا القطار»، أعلمتني يداه، «إنه المذنّب الازرق!».

جلس على الأرض، وشرع يجمع قطع سكة القطار. وضع بعناية لافتة، القاطرة وعربة الفحم وعربة المسافرين على السكة.

«المذنّب الازرق»، لفظت أصابعه الاسم باهتمام طريف، «جاهز للجري على عجلاته».

ومع ميعاد النوم، قام بفصل قطع السكة عن بعضها وأعادها إلى العلبة.

في مساء اليوم التالي، دخل المنزل مثبتاً تحت يده علبة ذات حجم أكبر. «هذا القطار» أعلن تاركاً لإصبعه مهمة لفظ الاسم: «إنه بنسلفانيا فلاير».

بعد أن أضاف إلى خط السكة السابق، الأجزاء الجديدة، وضع فوقها القطار الجديد بعربات النقل خاصته والمُذنَب[1]، خلف «المذنب الأزرق». اعتمر قبعة المهندس على رأسه، ثم قال «لنجعله يدور».

في الليلة نفسها، استغرقه بعض الوقت، ليفكك بدن السكة، قبل أن يودع أجزاء القطار تحت سرير نومي.

غير أن أبي دخل المنزل في اليوم التالي بعلبة كبيرة أيضاً تحت ذراعه. ارتدى أوفرول المهندس المخطط بالرمادي مسوّياً في الوقت ذاته القبعة إياها.

أشار بيديه «ها نحن أولاء»، مطلقاً كل من «المذنّب الازرق»، «بنسلفانيا فلاير» و«أليغني إكسبرس» القطار الجديد، واحداً تلو الآخر وبسرعة. كان قاعدا على الأرض. كليك- تي- كلاك، كليك- تي- كلاك، ملأت أصوات

(1) المُذنَب: الحافلة الأخيرة في قطار الشحن، يستعملها العمال.

القطارات غرفة نومي سالكة مسار السكك المتعرجة.

لكنه أتى يوم السبت، بألواح كبيرة من الفنير ورزماً متنوعة الأحجام والأشكال. ثم وضع منشاره الكبير وعدَّته المنزلية في غرفتي، وأقفل الباب، تاركاً لافتة «يرجى عدم الإزعاج» معلقة خارج الباب، وقد كتب فوقها بخط يده وبكل جرأة، «أعني أنتَ». مضيفاً أسفل اللافتة، وللإيضاح التام: «ابني مايرون».

وقفنا في تلك الليلة أمام باب غرفتي المقفل. «أغمض عينيك»، أمرتني يداه.

فعلت، وبعد ذلك بثوان، فُتِح الباب. وأوعز بأن أفتح عينيَّ. كان ثمة طاولة ضخمة تملأ غرفتي. أما سريرانا، أنا وأخي إروين، فقد دُفعا أقصى ما يمكن، ليتاخما الحائط بغية أكبر فسحة ممكنة. سكك القطار إنتشرت فوق الطاولة، آخذة الاتجاهات كافة، فوق، تحت، داخل وخارج، أعلى وأسفل، بمسارات التفافية ومقوسة. أما على السكة نفسها، فقد مكثت ثلاث قاطرات: زرقاء، حمراء وسوداء. عربات فحم، مقطورات الماء والوقود، عربات الركاب، الشحن، عربات مكشوفة، وثلاث من عربات المؤخرة. وفي الخلف، انعزلت عربة نقل طراز هينز بيكل، متأخرة عن الباقي.

كانت هناك أنفاق وجسور ومنازل ومحطات. تلال معشوشبة، وبقرات صغيرة وقطيع من خراف بيضاء بالغة الصغر ترعى. بين التلال، جُعلت أنهار تجري، وينابيع ماء صنعها أبي من الزجاج، وأعمدة هاتف عبارة عن أقلام رصاص، وأسوار من عيدان الأسنان. بينما كُبِحت حركة السيارات على الطرقات الإسفلتية، التي اصطفت على جانبها وبإتقان، مصابيح الإنارة.

وكيفما نظرت، كنت تجد أناساً ساكني الحركة.

تحلى أبي ببراعة في استخدام اليدين. وكان قادراً على قول أشياء بعدة طرق.

وقفت بجانبه، محدقاً في المشهد أمامي، بذهول. أطفأ مفتاح ضوء السقف، وتوجهنا إلى لوحة التحكم التي صممت لتكون في وسط الطاولة تماماً. فجأة، عجت الطاولة بالأضواء. كل مصباح متناهي الصغر، خلف مشمع النوافذ في المنازل المصغرة، توهج. كل مصباح من مصابيح الإنارة الصغيرة والممتازة، نثر نقاط ضوئه فوق إسفلت الطريق الممتد تحتها، إشارات المرور على التقاطعات، أخذت تومض بإصرار، أصفر ثم أحمر. الجسور ارتدَتْ قلادات مزخرفة بالضوء. لم تعد سقيفة القطارات مظلمة، إذ عرضتْ كذلك ضوءها من زواياها وشقوقها المصنوعة بالورق المقوى.

ولئن كنت أحدق بإمعان، فقد نسيت يديَّ متدليتين على جانبي جسمي، وفقدت القدرة على نطق أي كلمة بالإشارات. وضع أبي قبعة المهندس على رأسي مشيراً: «تولى الأمر أيها الزعيم. عيد ميلاد سعيد!»

لا أذكر أن عينيَّ طرفت من نعاس تلك الليلة. ولم أفكر مطلقاً بخلع قبعة المهندس عن رأسي.

عندما دخل أخي عامه الرابع، كانت ضمن الهدايا الكثيرة التي تلقاها، قبعة مهندس صغيرة الحجم. لم أكن حتى ذلك الوقت لأسمح له بلمس لوحة التحكم. كانت عبارتي التحذيرية دوماً «انظر فقط. ولا تلمس». لكن، بما أنه حظي بقبعة مهندس على مقاس رأسه الصغير، فقد عدلت عن تحذيري، وبكل رحابة صدر، صرت أجيز له التحكم بالرافعة المغنطيسية التي تفرغ عربات الشحن. لكنني، سرعان ما أصبت بالندم جراء سماحي له القيام بهذا الدور، ذلك أن إروين أصر على إيقاف القطارات جميعها عن العمل كلما عبرتْ من أمام الرافعة.

عندما كبرت، فقدت اهتمامي بالقطارات، لكن أخي واصل ذلك. كان

يغمره شوق لتشغيل ثلاث مجموعات من القطارات في وقت واحد، وبسرعة زائدة، إلى أن خرجت كلها عن السكة مسببة الذعر لوالدي.

أخيراً، فقد إروين كل اهتمام بالقطارات. وفي أحد الأيام، قام أبي بتفكيك المشروع بأكمله، وأرسله إلى أحد أطفال أقربائنا مرفقاً إياه بقبعة المهندس خاصتي.

-5-
الجنة

رغم حالة الاستياء الدائم التي رافقتني لاتكال أخي عليَّ في كل شاردة وواردة، إلا أنني كنت أشعر بخجل شديد من نفسي. عرفت الشعور بالذنب في سن مبكرة، دون الأطفال كافة. الطفل لا تتملكه في العادة أحاسيس كهذه. لكن حين كان يدهمني هذا الشعور الشبيه بالخمر السُمِّي، كنت أسعى للوجود في مكان لا أكون فيه سوى نفسي. وكان هذا المكان سطح مبنانا السكني في بروكلين.

كان السطح جنتي الشخصية، ملاذي. في أيام الصيف، أجلس مستغرقاً في صمت وحدتي، ظهري مستند إلى الحافة القرميدية الدافئة للسطح، ولا شيء يعلو رأسي سوى زرقة السماء. كنت أستطيع بذلك نأي أذنيَّ عن الأصوات المتواصلة لسكان بنايتنا في بروكلين، ونأي عينيَّ عن إشارات أبي التي لا تتوقف، أو عن صورة أخي متصلباً فجأة وهابطاً على الأرض.

فأقرأ مرة بعد مرة، كل نسخة في مجموعتي الواسعة من قصص المجلات المصورة. وأنغمس في المغامرات المرويَّة في تلك القصص- اجتذاب الطرائد، القطارات المستعجلة، الأسود الغاضبة، المحتالون الشائنون- وأحلم بأنني مجرد ولد عادي.

لكن السطح لم يكن فسحة مخصصة لي وحدي. فقد كان بالطبع ملكية عامة، إذ إن الناس في أماسي الصيف، تجمعوا هناك طلباً لبعض البرودة وهرباً من قيظ الصيف، جالسين في زمر عائلية على بطانيات تفترش فوق الورق المُقَيَّر والمحصب[1]، وقد كستها من أقصاها إلى أقصاها، قطع

(1) الورق المُقَيَّر: ورق مكسو أو مشبع بالقار، والقار مادة سوداء تشبه الغراء، تبقى بعد تقطير النفط وقطران الفحم الحجري. وهو شديد الالتصاق وطارد للماء، ويستعمل في مواد السقف ورصف الشوارع. الورق المحصب: المفروش بالحصى.

الدجاج البارد، الجعة، الليموناضة، سلطة البطاطا، الكعك والبسكويت. أما نحن الأولاد، فكنا نتنقل من بطانية إلى أخرى، متوسلين طلباً لقطع من ساق الدجاج، أو البسكويت، لا لشيء سوى معرفة إن كان هناك ألذ مما تصنعه أمهاتنا.

فأمسيات الثلاثاء الصيفية مهرت بطابع مميز. فما كان يخيم الظلام على كوني آيلند، حتى تنطلق الألعاب النارية في السماء، فوق الأطلسي، فتنفجر إلى أضواء تتفتح وتتبرعم على خلفية اللون الأرجواني للأفق. ومن على أسطح بنسونهيرست، تتصاعد أصوات الناس نحو السماء، «اووووه» و«آآآآه» منطلقة في آن معاً، ككورس، تعبيراً عن إعجابهم وتقديرهم. ولمرة واحدة، كنت لتجد الصوت الأبكم لأبي ممزوجاً بالأصوات الأخرى كافة، دون ملاحظة أحد الأمر. فيما يكون إروين جالساً برأفة، وصامتاً، وهو يحدق بتلك العينين اللامعتين كالزجاج والفم المفتوح، محركاً رأسه باهتزازات كلما انفجرت مجموعة جديدة من الألعاب النارية في السماء.

لكن أحد جوانب السطح، كان مخصصاً لأقفاص حمام فرانكي. فالمئات من الأفراخ رمادية اللون، مكثت خلف سياج الأسلاك، جنباً إلى جنب على وتد المجثم، آخذة كلها اتجاهاً موحداً.

وما إن أسمع فرانكي يفتح باب السطح المعدنيّ السميك، حتى أغذّ الخطى للاختباء خلف قرميد المدفأة. ومن هناك، أشاهده يمضي ساعات متحدثاً مع حماماته. لم يكن فرانكي أبلهاً، لكنه كان يحدث تلك الطيور بلغة طفل صغير. بدا أن ذلك يروق للحمام، فما شأني لأعترض؟ بالإضافة إلى كل هذا، أنا أعرف فقط لغة النطق بالإشارة، وأجهل لغة الحمام. كانت تبدو الحيوانات تصغي إلى فرانكي حقاً.

بعد ذلك، يفتح فرانكي باب القفص. ثم يستخدم طرف عصا خيزران

ليدفع بالطيور خارج مجثمها نحو الهواء. فتطير في تناسق، كأنها غيمة رمادية، ترتفع نحو السماء الزرقاء فوق سطح مبنانا، طارحة ريشاً يتساقط ببطء عن أجسادها، مكوناً غشاوة، رامية صوتها على الطريق المرصوفة بالحصى.

كان فرانكي يوجه السرب بمجرد حركة من عصاه الخيزران.

والحمامات تطير في دوائر تمتد حتى تصل الشارع «ب» وجادة كينغز.

عمله ذلك، الفذ والبطولي، لم يكن شأناً من شؤون السحر. فما إن يحرك العصا بطريقة عنيفة حتى تغيب الحمامات عن النظر.

لا أستطيع نسيان المرة الأولى التي شاهدته فيها يفعل هذا. فكرت وقتها بأن صاحب العرض الكبير خسر حماماته. فإلى من سيتحدث بذلك الأسلوب الطفولي بعد الآن؟ ليس أنا. كنت أتصور مسار تلك الحمامات في الهواء وهي تحلق فوق جسر جورج واشنطن إلى نيوجرزي، ومن هناك إلى كاليفورنيا.

لكن فرانكي وما إن ضرب بطرف عصاه على السطح، حتى مثلت الحمامات من جديد للعيان فوق سماء بروكلين- كأنه أمر.. خارق للطبيعة- قبل أن تهبط على السطح في دوائر أصغر، لتعاود دخول القفص كرتل رشيق.

فيغلق فرانكي باب القفص مكيلاً لها المديح. (كنتم جميلين). وتجلس الأفراخ جميعها، وأقدامها متشبثة بمجثم الطير، موافقة على كل ما قاله فرانكي، بهزة من الرأس.

وعندما تكون السماء خالية من الغيوم، كنت أتوجه إلى السطح مصطحباً الخرائط الرسمية لطائرات الاستكشاف الخاصة بالعدو، ومنظار أبي ثنائي العدستين. فأحرس كوني آيلند راكعاً وراء الحائط القرميدي حتى لا يراني

الطيارون الأعداء. فأبصر الخطوط الجوية التي ستأتي عبرها طائرات الألمان. أما السبب الذي قد يدفعهم للمجيء إلى بروكلين، فلم أكتشفه بتاتاً. ربما سيأتون لقصف مطعم ناثانز فيموس، الذي شكل طعامه سنداً لمعنويات كل مواطن في بروكلين. ذلك أن خسارة المال والذرة المخلوطة بالزبدة كانت تعني المكوث على أعتاب الهلاك.

لم تأت طائرات الألمان أبداً. ربما أنبأتهم استخباراتهم بأنني حارس بروكلين وحاميها اليقظ.

لم يكن السطح مجرد مكان صيفي.

بعد تساقط الثلوج بوفرة، خلال فصل الشتاء، أسلك في اتجاه معاكس للأولاد الذين يدلفون نازلين إلى الشوارع. فيشكل دفع باب السطح وقد تكوم الثلج خلفه، تحدّياً بارزاً. لكن، ما إن أفلح في ذلك، حتى يصبح السطح مملكتي. فأمضي ساعات بعد ساعات شاقاً طريقي في الثلج المتكدس، الذي باستثناء آثار قدمي، لا شيء يعكر صفو صفحته الناعمة الملساء.

أما إذا تساقطت كمية كافية من الثلوج، فأتسلى بصنع كرات بيضاء بحجم قذائف المدفع. فأدحرجها فوق حائط السطح وأقذفها ببطء لتسقط عند الجيران في الطبقات السفلية. لم يثر الأمر شكوك أحد. إذ لم أكن ملاح قاذفاً في طائرات الـ«ب–17» المحصنة، ولا ملكت مصوِّبة القصف الجرمانية[1]، غير أنني وهبت الدقة في إصابة الأهداف بشكل خارق للطبيعة.

(1) مصوبة القصف: أداة لضبط إلقاء القنابل من طائرة بحيث تصيب الهدف.

-6-

الثياب تكوّن الصبي

إنه أحد أيام اواخر الصيف. تهزني يدا أبي القويتان لأستيقظ على الفور. هناك تقليد سنوي يوشك على البدء.

«المدرسة تفتح أبوابها بعد ثلاثين يوماً»، تنبهني يداه بتعابير زاعقة في وجهي. «إنه يوم الحسومات الكبيرة على البزات الولادية في متجر السيد آر. وأتش. مايسي. علينا الإسراع!».

أبي الذي لم تعرف هامته البزة في صباه، تراه الآن مهتماً باصرار على أن يكون لابنه بزة جديدة كل عام. ففي كل صيف، وقبل شهر تقريباً من بدء الفصل الدرسي، يتعيّن عليّ المشاركة في هذا الطقس السنوي لابتياع بزة مناسبة لي. يشبه الأمر في توقيته منبه ساعة شديد الدقة. فبدء هذا الطقس الشرائي إشارة بليغة على أن إجازتي الصيفية انتهت. أووه، طبعاً، إنه أغسطس بحسب الروزنامة، لكن هذا اليوم مفاده أن الروزنامة تكذب، حتى إنني أستطيع الشعور ببرد الخريف القارس يزحف على جلدي.

«ليس لدينا وقت. أسرع. أسرع!»، كانت حركة يديه المتقطعة تعبِّر عن إلحاحه. «علينا التحرك قبل أن تختطف البضاعة الجيدة».

«البضاعة الجيدة؟ تختطف؟» غمغمت في صدري. ليس عليّ أن أغمغم، فأبي لا يسمع. إنه أصم.لكن عليّ الحذر، فهو يستطيع قراءة الشفاه.

جررت نفسي ببطء من السرير. لم أكن مستعجلاً بأي حال لخوض يوم كهذا، لن يتمخض عنه أي متعة. إنه يوم إحراج هائل لي باضطراري للقيام

بدور الوسيط، المفاوض في صفقة شراء البزة، بين أبي من جهة، ومجموعة الباعة نافدي الصبر، القساة غير المشفقين، صحيحي السمع، فكل ما يتوقون إليه، عمولة محددة. أما الوقت فلا يعني لهم، سوى المزيد من النقود، فليس ثمة وقت إضافي لديهم، بعكس والدي الذي سيستنفد كل الوقت الممكن في العالم، لاختيار بزة ملائمة لصبيّه.

«سنبدأ بالسيد بلومينغدايل»، لفظها بيديه. «متجره يقع في الدور السفلي، ويختزن أطناناً من البزات المرفقة بالسراويل، ولديه أفضل الأسعار في المدينة كلها».

أفضل الأسعار؟ بالتأكيد. لكننا لم نشتر يوماً بزة واحدة من هذا المتجر، منذ أن بدأنا التسوق. فمحل السيد بلومينغدايل لم يكن إلا المحطة الأولى في هذا اليوم اللانهائي الطويل.

«من يدري؟»، أضاف والدي، «قد نبتاع بزتين بسعر واحدة».

ركبنا قطاري أنفاق لنصل من المراكز المهمة المتاخمة للمحيط في بروكلين، إلى شوارع خالية من الأشجار في مانهاتن. وانتهى بنا المطاف في عالم شديد الاختلاف عما تركناه خلفنا. فجادة لكسينغتون والشارع 59 في بقعة مانهاتن كانا بالمقارنة مع شارع وست ناين في بروكلين، كما «سان بطرسبرغ بالنسبة للأوديسا»، تقول جدتي سيليا دائماً، وهي الجملة التي لا تملك ما تقوله سواها.

خطوت برفقته، وقد أمسك بيدي، عابرَين جادة لكسينغتون، التي كانت مسدودة بشاحنات البضائع وعربات الأجرة، التي يقودها سائقون متعرقون، مسترسلين في السباب، مطلقين النفير المتذمر واللعنات، التي تساقطت على رأس أبي الأصم دون أن يسمع أياً منها. اجتزناها لنصل الجانب المقابل من الجادة. بعد أن تحررتا من مسك يديَّ، اندفعت يداه بقوة وعجلة وحماسة في كل اتجاه. «يا له من يوم عظيم! ها أنذا برفقة ولدي مايرون لابتياع بزة. يوم جميل. اصغ إليّ! أتستطيع سماع صوت هبوط أشعة الشمس على الثوب الأحمر للسيدة في النافذة؟ انظر إلى أشعة الشمس! نظر كيف تتكسر إلى ماسات في بريكة الماء على الرصيف! شم الروائح المنبعثة من محركات السيارات! هل تستطيع تذوقها بطرف لسانك؟».

بالنسبة لوالدي المحكوم بالصمم، كانت كل حاسة أخرى ترقى لأن تصبح معوضاً عن فقدانه حاسة السمع. حتى إنه يطالبني بـ«سماع» صوت الألوان.

غادرنا الشارع الذي تولت الشمس إضاءته، لنهبط نحو متجر بلومينغدال وأضوائه الاصطناعية. تحت تلك الأضواء بالضبط، عُلقت بزات «الاثنتان بسعر واحدة». آلاف البزات تدلت تحت ضوء باهت. أقسِمُ أن أبي لعق شفتيه أمام ذلك العدد من البزات المصنوعة كلها من الصوف.

ولأن الطبيعة فطرته على الحسّ «العملاني»، فقد كان يطلب مني قياس البزات المنسوجة من الصوف الأكثر سماكة وثقلاً.

فالموديل أو النموذج لم يكن مهماً: نقشات مربَّعة، مقلمة أو مخططة، رفيعة كعظام سمك الرنكة. والحياكة لم تكن مسألة أولية: الصرج، الغبردين[1]،

(1) الصِّرج: نسيج صوفي متين. الغبردين: قماش متين.

النسيج الصوف. كذلك السعر. لا شيء إطلاقاً عنى لأبي أكثر من الثقل.

«هذه بزات عظيمة» أكدت يداه لي، بينما تحرك وجهه بانسجام مع حركة يديه المبتهجتين، مطلقاً ابتسامة رضا. «تستطيع هذه البزات مقاومة الرصاص».

«رائع»، قلتها بيدين مشككتين. «هذه البزات ستحميني جيداً ضدّ أي غزو أوروبي. فما من جندي ألماني سيقدم على إطلاق النار على ولد من بروكلين يرتدي بزة كهذه. وحتى لو فعل، كم سيثير استغرابه ارتداد الطلقات النارية عن طيات الصدر».

يمكنني القول، بالنظر إلى ما بدا عليه وجهه، إن مزحتي تلك لم ترق لوالدي. ردة فعله الوحيدة كانت بأن عَقَّب على ما قلته بـ«اتبعني».

توجهنا إلى غرفة تبديل الملابس. عشر بزات أمسك بها بين ذراعيه وصدره، فيما تبعته مطيعاً. الطريقة التي استرخت بها يداه بعد أن أفلت البزات، جعلتني أستنتج أن وزنها مئات الباوندات.

«أين البائع؟»، أشار فجأة داخل حجرة تبديل الملابس الخالية. «هؤلاء لا يظهرون قطّ حين تكون بحاجة إليهم».

لم أجرؤ على إخباره بأن الباعة، هرعوا إلى الخارج حالما دخلنا، تماماً كما تهرب الصراصير في الليل كلما دخلت المطبخ وأضأت اللمبة لأشرب بعض الماء. فهؤلاء الباعة لا ينسون وجوه زبائنهم غير المفيدين، قليلي الشراء، الذين لا توفر زياراتهم السنوية أي عمولة تذكر، إذ: لا شراء، لا عمولة. كل صيف، يأتي أبي إلى هذه المتاجر بالطريقة ذاتها، ويهرب الباعة من المتاجر للسبب ذاته.

«لا تهتم»، أشار «فأنا أعرف كل ما في متجر السيد بلومينغدال كما أعرف محتويات خزانتي. إنها لا تتغير أبداً».

جربت البزة تلو الأخرى. ارتديت كلاً منها لأجل أبي، الذي أدارتني يداه كأنني دجاجة على سيخ شواء، وكنت أقف مقابل مرآة ضخمة مائلة بعض الشيء.

فيقول: «ليست مناسبة، إنها ناتئة بعض الشيء لجهة الظهر. تجعلك تبدو محدوباً. ذلك الذي في الفيلم الحزين. هل عرفته؟ الرجل الذي يقرع جرس الكنيسة. جرّب بزة أخرى».

«ضيقة جداً. جرب التالية».

«النسيج المنقش يجعلك تبدو سميناً. أنت تبدو الآن صغيراً سميناً مثل لو كوستيلو[1]». ضحك أبي، لكنه في الواقع لم يبد أقل من بد أبوت. لم أكن في مزاج لأشاطره المرح. فقد شعرت حقاً برغبة في البكاء.

«جرب هذه».

«الخطوط تجعلك صبي حبة الفول. البزة الخضراء تجعلك تبدو في حال جيدة لتؤكل. كالخضار. ربما سنعيدك إلى المنزل لتقوم الأم سارة بطهو ابنها مايرون لابساً بزة الفول الجديدة الخضراء».

اووه، يا له من يوم! نكاته لا تثير ضحكي كما نكاتي تماماً بالنسبة له.

«الآن جرب هذه البزة».

بزة صوفية تلو بزة أخرى صوفية، جربتها وعرضتها أمام والدي. لكن أياً منها لم تنل رضاه.

ساعات مرت. بزة إثر بزة، انتُشِلت عن الرف وأُحضِرت من اجلي إلى حجرة تبديل الملابس. بزة تلو أخرى وجدت مكاناً لها على حائط حجرة تبديل الملابس، قبل أن توضع على مقعد حجرة تبديل الملابس ومن ثم تتكوم فوق بعضها بعناية قرب باب الحجرة تلك.

(1) لو كوستيللو: ممثل كوميدي أمريكي ألف مع بد أبوت ثنائي أضحك الأمريكيين سنوات.

استنفد والدي كل بزة مناسبة لقياسي، كما كل البزات التي تفوقني حجماً، والتي بانتظار أن أنمو لتلائم قياس جسمي، ستكون قد أصبحت خارج الموضة، هذا إذا كان لها من الأساس موضة ما. بعد أن استنفدها أبي جميعها، طوّح بيديه في الهواء معلناً: «إذن، هذا يكفي بالنسبة للسيد بلومينغدال. حظي بفرصته. سددنا له الضربة الأولى».

«لكننا لم نبتع قطّ بزة من السيد بلومينغدال»، قلت مذكِّرا «نأتي إلى هنا كل عام. أجرّب كل البزات المناسبة لقياسي. ثم البزات الكبيرة جداً. تقول لي (ستنمو بما يتلاءم تماماً مع هذه البزات ذات يوم). وبعد كل هذه النماذج الصلبة، وذات النسيج المنقش والمقلّم والمضلعة كسمك الرنكة، تقول دائماً (حسنا، هذا القدر يكفي للسيد بلومينغدال)».

أشار لي بأناة «النوعية»، وكأنه يفسر أمراً لصبي يعاني خللاً عقلياً. «إنها ما نتوق إليه. لا تناسب ابني مايرون إلا أفضل بزة فقط».

مطلقاً بيده اليمنى إشارات مقتضبة، خطونا إلى زحمة السير الخانقة في جادة لكسينغتون، وهو يمسك يدي بيسراه.

«المحطة التالية، متجر السيد آر وأتش مايسي. المتجر الأكبر في العالم». كنت أنظر إلى إشاراته متسعة المجال والتي انغمس بها للحظة، في الوقت الذي فتح يديه على وسعهما واصفاً حجم المتجر ذاك. كان مجرد التفكير في زيارة متجر السيد مايسي كفيلاً بجعل قلبي يكف عن الخفقان.

على الجانب المقابل من الجادة، نجحنا في ركوب حافلة بسلام، بعد أن كادت تدهسنا سيارة أجرة مسرعة بكل وقاحة، وقد رمقها أبي بنظرة غضب. ومن ثم دلفنا إلى قطار الأنفاق بغية رحلة قصيرة إلى وسط المدينة.

ثم صعدنا مغادرين محطة الأنفاق إلى الشارع الرابع والثلاثين، لنقف عند مدخل دار السيد آر وأتش مايسي. مكان هائل، ممتد في مبنى الساحة الضخم

من الشارع إلى الشارع، ومن الجادة إلى الجادة. لم أرد تخمين عدد البزات المناسبة لقياسي في ذلك المكان. تساءلت إذا كان بمقدور السيد آر وأتش مايسي أن يفتح أبوابه أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع. فمؤكد أننا سنضطر للبقاء حتى مستهلّ الفصل الدراسي لتجربة كل البزات الملائمة لي.

علت وجهه نظرة رجل حازم رهيب، وأمسك بيدي. نُقِلنا بحركة دائرية إلى قلب المتجر عبر الباب الضخم الدوار. ثم اندفعنا إلى المصعد المنتظر مع متسوقين آخرين، الذي ارتفع بتزايد فجائي في السرعة، قبل أن يتوقف لينزلنا في وسط قسم البزات.

انتشرت مجموعة واسعة من البزات، صف لا ينتهي يليه صف آخر. ربما كل البزات التي خيطت في العالم، باستثناء تلك النماذج الفقيرة ذات الـ«بنطالين



صورة التقطت لي مرتدياً بزتي الجديدة من محال آر وأتش مايسي.

مقابل الستر ة»، والمعلقة في متجر بلومينغدال الضخم، والتي على أي حال، رسبت في اختبار ذوق أبي.

فالاعتبار المحض لكمية الخراف التي جُزَّت لاستخراج الصوف منها وحياكته ليصبح نسيجاً لصناعة كل هذه البزات، جعل مخيلتي تترنح. أخذت تحضر في ذهني صور تلك الخراف المسكينة، العارية الواهنة، المرتعشة من البرد، المكومة قرب بعضها فوق تلة معشوشبة، في مكان ما من اسكتلندا، طلباً للدفء.

رفعت نظري نحو أبي، لأتبين بهجة صافية تفيض من عينيه وتملأ تقاسيم وجهه قاطبة، باعثة فيه شعوراً بالعزم والتفاؤل لحل عقدة شراء البزة.

تقدم بصعوبة وشجاعة، بين الأمواج العاتية من البزات المعلقة، قابضاً على يدي بإحكام، ممدداً خطواته نحو الأفق، حيث المصاعد المرصوصة جنباً إلى جنب، فيما سرت في أعقابه بكل خيبة.

يبدأ للتو الفصل الثاني من هذه المسرحية المفزعة، والذي يبدو طويلاً، ذلك أن متاجر آر وأتش مايسي، تضم عدداً أكبر من البزات، يفوق تعدادها تلك الموجودة في متجر السيد بلومينغدال، مع عدد أقل من الباعة العاملين، الذين يعرفون جيداً وجه أبي. لا أحد يستطيع التفوق على عاملي بلومينغدال في التواري منه، سوى هؤلاء. باسلاً، متحلياً بإصرار ريتشارد برتون[1] لإيجاد منبع نهر النيل، مشى أبي بتثاقل إلى الأمام، يقودني من يدي، كأني جون هانينغ سبيك[2]: بحق الله، إما أن نجد منبع نهر النيل وإما أن نموت ونحن نحاول.

وما إن اوشكنا على الوصول عائدين إلى حيّنا السكني في نهاية ذلك اليوم

(1) ريتشارد برتون (1821– 1890): كاتب وباحث ومستشرق بريطاني. باءت محاولته في اكتشاف منبع نهر النيل بالفشل.

(2) جون هانينغ سبيك (1827– 1864): مستكشف بريطاني عثر على بحيرة فكتوريا وأكد فكرته في انها منبع نهر النيل.

البطولي، والسلعة الشرائية السنوية، محمولة بأمان بين يدي أبي المبتهج بالنصر، دقت الساعة معلنة مستهل الفصل الثالث من هذه الدراما السنوية. كنا قد هممنا بالخروج من محطة أنفاق خط شاطئ البحر، على طريق كينغز السريع، عندما أشار والدي بيديه، «أبليت حسناً اليوم. أنا فخور بك. لقد كنت عوناً رائعاً لي. كما ورفقة مسلية أيضاً. الآن ستنال جائزتك».

محل السكاكر في حينا كان كـ«بازار» ألف ليلة وليلة، فأنت لا تجد فيه السكاكر فقط، بل اللذائذ والأطايب الأخرى، التي يتسم بعضها بكونه عادياً وعملياً، بينما تكتنف الغرابة بعضها الآخر. كنا نبتاع طابات السبالدين[1] ذات العلامة التجارية الجديدة (بعد أن كنا نشطر الطابات القديمة نصفين، بضربة قاتلة نسددها بعصا مكنسة مستعملة)، وقطع الشوكولا المغلفة بالورق الفضي. وأزرار الحلوى، التي تُقطَّر نقاطاً على نسيج ورقي رقيق نبتاعه بالإنش. ويتحتم علينا، بأفواهنا الشرهة وذات الرائحة، امتصاص كل زر من تلك الأزرار المحلاة والملونة، عن الورقة (لم نكن نسعى لاقتلاع أجزاء الورق الملتصقة بأعقاب الأزرار، من بين أسناننا). أما أكثر المشتريات إثارة فكانت تلك الشفاه الشمعية. حمراء بلون الياقوت، مقولبة بامتياز، في شكل ابتسامة متجهمة وجشعة، كان لتلك الشفاه نكهة طيبة جداً كشمع يارزيت[2]. تلك الشفاه بصلية الهيئة التي تقبض عليها أسناننا الأمامي بحزم، كانت تدفعنا لتباه وفرح لحظة وضعها. كنا نركض في الجوار، لنضغط بوجوهنا على فخذ كل من نصادفه. أما سبب تصرفنا هذا، فلا أتذكره اليوم.

«اختر ما تريد»، أشار بيديه. «حتى اختر شيئين اليوم».

يا لها من فرصة، فكرت. من أين أبدأ؟

(1) السبالدين spaldeens: طابات مطاطية زهرية اللون، دخلت منذ مطلع القرن العشرين في ألعاب الشوارع الرياضية، وكان الصبية والأطفال يتسلون بها في الأحياء السكنية.

(2) يارزيت Yahrzeit: شمع يضيئه اليهود في المناسبات .

كان أبي نموذجاً يحتذى به للرجل الصبور. «خذ كل الوقت الذي تحتاج إليه»، قال. وكما يفعل في أقسام المتاجر، رحت أقلده دون وعي، تصفحت كل المجلات المصورة في محل السكاكر، تحسست كل لعبة صغيرة، لمست بأصابعي كل اللعب الصغيرة الطريفة ما عدا تلك المفضلة في العالم أجمع تقريباً، ضفدعة القصدير المعدنية المطقطقة. كانت تلك الضفادع في بروكلين، ولشدة ما يطقطق بها الأطفال، كفيلة بجعل الآباء يفقدون صوابهم في المنزل خلال خمس دقائق. لكنها لا تجدي نفعاً في حالتي. رسوت في النهاية على مجلة الرجل الوطواط، ومجموعة شفاه شمعية. «سوف أضعها حالما أصل المنزل»، أخبرت والدي. «لن تعرفني أمي». ابتسم أبي وهو يتخيلني واقفاً بباب الشقة، مبتسماً في وجه أمي كأبله، بتلك الشفاه الياقوتية الحمراء.

«هل يمكنني شراء شيء لإروين؟»، سألته. «فبهذه الطريقة، سيكون وقع المفاجأة مزدوجاً على أمي».

وافق على الفور، وكأنه مخرج سينمائي عظيم، وضع تصوره الخاص للنهاية: القشدة المخفوقة بالبيض من أجلي وأجله. أُسدلت الستارة، وانتهت فصول المسرحية: حظيت ببزتي الجديدة، وأمضى هو يوماً بكامله مع ابنه.

-7-
نهار في المدينة

ما اكتسبته بشأن مكان عمل والدي، لم يكن ليتجاوز ذلك الشعور بالقبعة الورقية على رأسي، تلك التي كان يشكّلها أبي من جريدة يأتي بها كل مساء إلى المنزل. لم أدن بتاتاً أقرب من ذلك الشعور، إلى أن قرر في أحد أيام عطلته، اصطحابي لزيارة مبنى جريدة *نيويورك دايلي نيوز*.

انتقى في ذلك الصباح، ما يتوجب علي ارتداؤه- طبعاً، بزتي السنوية الجديدة. ثم اختار لنفسه أفضل الثياب، ولم يفُتْه الحذاء الملمّع وجديد المظهر. ودّعنا أمي وأخي بقبل طبعناهما على وجناتهما، ثم نزلنا إلى الشارع. كان هندامه كما لم يبد يوماً، بقبعته الأنيقة المائلة بعض الشيء فوق رأسه. مشينا وقد أخذ بيدي، حتى محطة قطار أنفاق بروكلين في شارع كينغز، ثم هبطنا الأدراج لنتوقف عند منصة انتظار المتجه إلى مانهاتن. وخلال فترة انتظارنا، لم يسعني سوى أن ألاحظ السعادة العظيمة التي طفت على وجهه.

أوصَلَنا القطار إلى المدينة، حيث اضطررنا هناك إلى الانتقال إلى قطار آخر تقع إحدى محطاته بالقرب من مكان عمل أبي.

وبعد خروجنا من المحطة الأخيرة في دربنا، أمسك بيدي ملحّاً بأن أسرّع من خطواتي، لأجد نفسي بعد وقت قليل، مقابل مبنى «نيويورك دايلي نيوز».

ظللنا لبرهة واقفَين خارج المدخل المزخرف والمغطى بالزجاج،

المؤدي إلى الردهة. ومهما رفعت رأسي إلى الأعلى، فإن بصري لم يستطع أن يبلغ قمة المبنى. إذ انعاج ظهري إلى الخلف، أكثر مما يتحمل عمودي الفقري، وعانيت دون جدوى، لأبصر أعلى نقطة من البرج ذي اللون الأبيض الثلجي. صفوف من ألواح القرميد الأبيض امتدت من نقطة ما على الرصيف، مرتفعة نحو السماء بشكل عمودي. تجمدت في مكاني، بحذائي الثقيل شديد اللمعان، ناظراً إلى السماء الزرقاء التي بدت بلا نهاية، حيث فوق رأسي تماماً، كانت الطوابق السبعة والثلاثون، كأنما تقاربت من بعضها بعضاً، لتلتقي عند نقطة واحدة. أما الغيوم البريئة الصغيرة، فبدت أشبه بمناطيد سمينة مبحرة ببطء، متحضرة للهبوط على سطح المبنى، بالضبط كما فعلت يوماً المناطيد الحقيقية التي حطّت على سطح الإمباير ستايت.

شققنا طريقنا عبر الباب الدوّار، لنلج الردهة ذات القبة المرتفعة والفخمة لـ«نيويورك دايلي نيوز». لم أكن قد رأيت من قبل شيئاً كهذا. الفضاء الفسيح والمظلم للمكان، أضاءته ببراعة كشافات صغيرة، مريحة للنظر. وتكوّنت الأرضية من مربعات ملساء زلقة تتخللها شقوق. قبالتي تماماً، برز مجسم ضخم للكرة الأرضية مائلاً بنصفه السفلي تجويفاً عميقاً وكبيراً في أرض الردهة، فيما طوقته سلسلة من قضبان الكْروم المعدنية. وقد صُمِّمَ التجويف على شكل سلسلة من الأدراج الزجاجية والدائرية. كانت الكرة الأرضية تدور حول محورها مستدفئة بأشعة الضوء المنبعث من الكشافات الصغيرة الموضوعة فوقها. في حين أنير قسمها الأسفل بمصابيح وضعت تحت سطح الأدراج الزجاجية، التي ارتفعت تدريجياً من الأعماق، في طبقات، إلى أن يعلوها زنار من النحاس جُعِل مقابلاً لخط الاستواء تماماً.

كان ذلك المجسم مستو حداً ضخماً، يدور حول نفسه بلا نهاية، مغطَّساً بالضوء، قياساً بالأقسام الأخرى المظلمة من الردهة. حبست أنفاسي ما إن وقع ناظري على هذا الشيء المذهل غير المتوقف عن الدوران، الذي يمثّل الكوكب، الذي أعيش فيه. كل بلد من البلاد المعروفة قد بُيِّن اسمه بألوان مشعة. كل مدينة، ذُكرت. المحيطات السبعة الزرقاء قسّمت القارات. القطب الشمالي المتجمد، كسا ببياضه قمة الكرة الأرضية، فيما ابن عمه البعيد، القطب الجنوبي، مكملاً الصورة، مكث في عمق التجويف في الأسفل. كان شيئاً مرعباً، وقد عرفت في وقت لاحق، أن العبقري الذي صمم هذا المجسم المذهل، كان قد جهَّزه في البداية بمسار دوران معاكس للكرة الأرضية.

فيما كنت أحدق باندهاش واضح، أخذت أتساءل عن موقع مبنانا السكني. وبالمناسبة، أين تقع بروكلين نفسها؟ لكنني أيقنت كم عليها أن تكون عملاقة، تلك الكرة التي تحدد مكان شارع وست ناين. ربما نحن بحاجة إلى واحدة بحجم دولاب مدينة الملاهي في كوني آيلند. ثم— ومخيلتي محلقة في أقصى طاقاتها— رحت أسأل نفسي ما الحجم المطلوب للردهة كي تحتوي مجسماً كهذا؟ ببساطة، لم أتمكن من تخيل حجم ملائم. الأمر ذاته بالنسبة إلى المبنى الذي عليه أن يضم ردهة تحتوي مجسماً بحجم دولاب مدينة الملاهي. كان ذلك كله مما يفوق قدرات مخيلتي النشطة.

«جميل»، علّقت.

بعد أن أخذتُ كفايتي من الردهة، ركبنا المصعد الذي أحدث اندفاعه القوي نحو الطابق الذي يعمل فيه أبي، إحساساً بهبوط في معدتي. قبل أن يتوقف بعدها بشكل مفاجئ، فأوشكت على تقيؤ فطوري الصباحي.

عجزت، منذ لحظة خروجي من حجرة المصعد الهادئة، ومن ثم اختراقي لجدار من الصوت رحّب بي فور وصولنا طابق آلات الطباعة، عن الإصغاء لبنات أفكاري. الصوت كان يصم الآذان، حتى إنني لم أُخرِج أصابعي من أذنيّ طيلة فترة الزيارة تلك.

كان هناك داخل الصالة الهائلة التي تضم المطبعة، سبع آلات طباعة بقوة سحق رهيبة، وحجم منزل من طابقين لكل منها. وهي قادرة على إنجاز طباعة ستين ألف نسخة من صحيفة *دايلي نيوز* في الساعة. كانت تلك الأشياء الضخمة الشبيهة بمخترعات روب غولدبرغ[1] التي تخطف الألباب، كانت عبارة عن مجموعات من العجلات والدعامات والبكرات والسلاسل. وقد لُقِّم الطرف الآخر للآلات الطباعة تلك، بقوالب أسطوانية ضخمة من الورق الأبيض، لُفِظت من الطرف المقابل صحف جاهزة للقراءة.

وبمنأى عن العمق الذي ولجت به إصبعي في أذني، إلا إنني لم أفلح في إخراس صوت تلك الآلات المطبعية. الصوت لم يقتحم أذنيَّ فقط، فالقعقعة الرعدية التي زحفت صاعدة من الخشب والإسمنت، تسلقت ساقيَّ لتبلغ

(1) روب غولدبرغ (1883– 1970): رسام كاريكاتور، مؤلف، نحات، مخترع ومهندس أمريكي. قام بوضع تصميمات هزلية لآلات ذات مهمات بسيطة، جمعها بطريقة معقدة. عرف من خلال رسوماته، بمواقفه السياسية اللاذعة التي أرقت بعض فترات حياته.

عمودي الفقري. تخيلت أن هذا ما سيكون عليه الأمر لو أنني واقف في حقل أفريقي، وسط آلاف الأفيال الهاربة خوفاً على حياتها.

ومن محطة عمل إلى محطة عمل أخرى، جلت برفقة أبي المتباهي بابنه أمام جميع زملائه.

كانت آلات الطباعة الهائلة تواصل عملها، فيما غطى العمال الصم، شعورهم بقبعات من الورق (لمنع وصول رذاذ الحبر المتدافع من آلات الطباعة) محتفظين بابتسامات باحت برضاهم عن العمل المنجز. أما زملاؤهم صحيحو السمع، فقد حشوا آذانهم بالقطن، ووضعوا صحفاً مماثلة فوق رؤوسهم لكن ارتسمت على وجوههم تعابير تنم عن الألم الخالص. الآن فقط، عرفت سر تعيين أبي ورفاقه في المطبعة ونيلهم تقديراً خاصاً من كابتن باترسون.

ما إن بلغتْ الآلات ارتجاجها الأخير معلنة توقف حزام الإفراغ فيها عن العمل، وإنزالها آخر نسخة من الصحيفة، حتى لوح أبي بيده مودعاً رفاقه في غرفة المطبعة لنتوجه إلى حجرة التنضيد حيث يعمل. كان المكان هناك فسيحاً، وقد ضمّ صفاً تلو آخر من آلات اللينوتايب المصطكة، التي أدارها صف تلو آخر من العمال. فالصوت أولاً مختلف. ولا يتماثل وضجيج الأفيال المصابة بالهلع في غرفة الطباعة. في غرفة التنضيد، تحتشد أصوات قعقعة المعدن على المعدن، كأنها غابة مملوءة بالقرود المحتشدة في زعيق جماعي.

مرة أخرى، عادت أصابعي إلى أذني.

وقف العمال كتفاً إلى كتف، في حين أتمت أصابعهم الرشيقة انتشال أحرف الخط المصنوعة بالرصاص، من ألواح كبيرة قُسّمت في علب معدنية

تفصل بينها حواجز عالية نسبياً. ليعالجوها بحذق تام داخل قوالب فولاذية فوق منصة حتى يكتمل السطر. بعد ذلك، يتم إنزال سطر الكلمات أو الإعلان بعد أن صُبَّ عليه الرصاص من بوتقة في ماكينة اللينوتايب، فيوضع إلى جانب السطور الأخرى، حتى تكتمل «الصفحة» فتقفل في موضعها بالمفتاح.

هو ذا المكان حيث وقف أبي خمسة أيام في الأسبوع، سنة بعد سنة، منذ بداية حياته المهنية، وحتى نهايتها. منحنياً فوق محطة عمله، مجهزاً بحاجب للعينين يقيه من الوهج المهلك لقضبان الفلورسنت، منكباً على تحويل أحرف الخط المصنوعة بالرصاص، إلى كلمات وجمل. وقد أحب عمله.

دفعني أمامه ليقودني إلى الامام للقاء زملائه الصم، الذين فور رؤيتهم لي، توقفوا عن العمل ليلقوا عليّ تحية ملؤها الدفء. تنافسوا فيما بينهم لجذب انتباهي بإيماءات واسعة مضخّمة. تعمدوا فعل ذلك، كما أخبرني أبي لاحقاً، بغية مقارنة قدرة استيعابي للإشارات بقدرة أولادهم الذين في مثل سني. علمت أيضاً أنني أبليت حسناً فبعض أولادهم لم يبلغوا مهارتي في النطق بالإشارة. كانت تلك حال الابن الثاني في العائلة (النموذج المثالي في تلك الأيام هو إنجاب ولدين)، وذلك لأن الابن الثاني لا يكون مضطراً للقيام بدور الوسيط والمفسر للعائلة. إلا لو كان ذلك الابن فتاة، فالفتيات عرفن بكونهن أكثر إتقاناً للإشارة من الصبيان (تلك الليلة، وبينما كان يلخص لها أحداث النهار، أخبر أبي أمي بأن مايرون حظي بمديح زملائه، وأنه، مايرون، استطاع التكلم بالإشارة كالفتيات. ما إن اومأ والدي كـ«الفتيات» حتى أطلق أخي ضحكة مدوية، في حين لم أر وجه الظرافة في ذلك «الاطراء»).

أما لقاء صحيحي السمع من زملاء أبي في العمل، فكان مغايراً تماماً. إذ لم يتبادل هؤلاء الرجال ووالدي الأصم أي عبارة ذات مغزى، رغم وجودهم جنباً إلى جنب معه في القاعة نفسها. صافحتُ بتهذيب كل يد امتدت نحوي، لكن بعض التعليقات التي سمعتها ما إن أخرجت أصابعي من أذني لأصافح تلك الأيدي الخشنة، ظلت تطن كالصدى في ذهني. أحدهم قال لي وجهاً لوجه: «سعدت بمقابلتك أيها الولد. لكن كيف يمكن لك أن تسمع؟»، كما تعليقات أخرى «كيف تستطيع تقبُّل أن لك أباً أصماً؟»، «لماذا يتحدث أبوك بهذه الطريقة المضحكة؟»، «هل ارتاد والدك المدرسة؟»، رجل آخر سألني: «هل أصيب والدك بالصمم لأن أمه أوقعته على رأسه؟»، وهذا الرجل لم يكن يمزح.

غافلاً عن كل تلك الأسئلة، أنزل أبي بصره ليستقر بفخر عليَّ ما إن ابتلعتْ أيدي «زملائه» الكبيرة، يدي الصغيرة. وذلك الوضع كان شائناً بالنسبة لي، وقد أثّر بي بدرجة كبيرة.

لكن ما سمعته بعد أن مشينا قليلاً، وقد تكلم أولئك في أعقابنا، تصلّب متيبساً على حائط ذاكرتي. كلمات قيلت وكأنني عاجز عن سماعها. «انظر إلى ولد الأخرس. يبدو طبيعياً». «له صبي جميل. أستغرب هذا الأمر». «هاي، انظر إلى هذا، ابن الأخرس. إنه يتكلم بطلاقة». «هل تصدق هذا؟ للأخرس ابن ناطق». وكان حتى ذلك الحين، ينتابني شعور بالعار لخجلي من هذا الوضع، لكنني لم أفلح في التغلب عليه.

بعد سنوات طويلة على هذه الحادثة، وقبيل وفاته، أسرَّ لي والدي بأنه كان على علم تام بما يدور بخلد زملائه السامعين في «*نيويورك دايلي نيوز*».

لكن وبالعودة إلى بعد ظهر ذلك اليوم المشرق، فقد بدا والدي رجلاً فخوراً بنفسه، بحبه لعمله، وبولده، ابنه البكر الذي لطالما أحبه من صميم قلبه.

تذكارات: رحلة صيد السمك

لا تفارق ذاكرتي صورة ذراعي والدي، ذراعان قويتان، تنتهيان بيدي عامل مطبعة. تعلو اليدين أصابع حساسة نحيلة بشكل مفاجئ: أصابع تستطيع بدقة انتقاء نماذج حروف الخط الرصاصية المفكوكة المتجانسة، وإقحامها في مقبض الطباعة لتأليف كلمات وجمل، قبل أن تحمَّل على «طوق حديدي» يشتمل على صفحة كاملة لعدد الصحيفة الصادر في اليوم التالي. بعد ذلك، تقوم أصابعه الماهرة، باحتجاز الحروف المطبعية المفكوكة تلك بواسطة مفتاح يسمى بحجر الزاوية[1].

بتلك الأصابع أيضاً، كان يتقن ربط ذبابة سمك السلمون المرقط، وتمرير دودة حية حول صنارة الصيد بدقة متناهية، بما يسمح للدودة بالتحرك وكأنها تنقَّب وتحفر في تربة الأرض الدافئة إلى أن تعلم بشأنها سمكة ما.

«نحن ذاهبان للصيد»، أشار أبي في أحد الأيام. كانت أصابعه ترفرف للأمام والخلف، كأنها سمكة سلمون تسبح بعكس تيار مائي.

ولئن صادف ذلك اليوم ذكرى مولدي، فقد كانت هديتي، وتداً من الخيزران لصيد السمك.

وتد لصيد الأسماك؟ أين؟ في بروكلين؟

تموضع الوتد بوقار بين يدي الصغيرتين، وقد تزامنت شكوكي مع إشارة آمرة بحركة يديه: «تمرَّن!».

أتمرن؟ أين؟ في بروكلين؟

ظللت طوال أسبوع كامل معلقاً وتد الصيد الجديد ذلك خارج نافذة

(1) Quoin: أداة يثبت بها الطبّاعون الأحرف المنضدة ضمن طوقها الحديدي.



أبي مع معدات صيد السمك، أملاً بصيد وفير

غرفتي، لأتمرن على ما طُرح عليّ. فكلما أنجزت تثبيت الطعم بنجاح، أسقطت الصنارة بمحاذاة شباك مطبخ السيدة أبروموفيتش في الشقة أسفلنا تماماً. كنت قد زودت الصنارة بشطيرة مربى وزبدة الفستق، إذ زعمت أن السيدة أبروموفيتش سمكة تونا. كنت قد قرأت أن أسماك التونا تنجذب إلى المربى وزبدة الفستق، لكن السيدة أبروموفيتش لم تقضم الطعم.

غير أنني بدوت أوفر حظاً بصيد قطع الثياب المختلفة، بما في ذلك السراويل النسائية الداخلية التي بدت كمناطيد صغيرة، مصطفة على حبال غسيل امتدت في مجاز طويل بين نافذة مطبخها ونافذة غرفة حمامها.

كما أبليت حسناً في اصطياد حمالات الصدر. كانت أدوات غريبة وضخمة الشكل. مثبتة من أحزمتها المرخوة إلى حبال الغسيل بملاقط خشبية،

وكأنها قفازات بايسبول.

في صبيحة يوم باكر، أيقظني والدي. أمسكت بيده وأنا ما زلت نائماً، ومشينا إلى محطة المترو، حيث سنصل من هناك خليج شيبسهد. ارتدادات القطار وصرير عجلاته لم يستطيعا إيقاظي، بما أنني نمت واضعاً رأسي في حضن أبي. وما إن وصلنا محطتنا المنشودة، حتى ارتدَّت ارتجاجات القطار عليَّ دافعة بي خارج نومي.

رافقت يد الأب مثيلتها لابنه، وأكملنا المشي باتجاه المحيط الذي تسللت رائحته إلى أنفي، دون أن أتمكن من رؤيته.

أوشكنا في تلك العتمة، على الخروج من بروكلين، وأكملنا المسير سالكين طريقاً منحدرة لنطأ مركباً يتهادى صعوداً وهبوطاً، وإلى الأمام والخلف. اعتقدت أن ثمة خطباً ما.

وضع أبي يدي على «الدرابزين» الحديدي لسطح المركب، وقد أمسك بكتفيَّ في الوقت نفسه. شعرت براحتيه في الظلام، ولم أكن خائفاً.

ما إن أضيئت السماء، حتى هدر المحرك بسعال عابث ورائحة وقود كريهة، معلناً دبيب الحياة في أوصاله، فيما مضى المركب مترجرجاً مبتعداً عن حوض السفن، مطلقاً غمامة من الغازات العادمة السوداء، متوجهاً صوب الأعماق. ثم برزت الشمس فجأة على حافة المحيط، كأنها صورة ظلية في رواق للرماية[1] في كوني آيلند. كنت أستطيع رؤية أثر السفينة في الخلف يتمدد إلى البعيد، حتى يلامس بروكلين. تبعتنا النوارس، مطلقة صيحاتها باتجاهنا «إننا جوعى. ماذا أحضرتم للغداء؟» كم ستصاب تلك الطيور بخيبة أمل ونحن

(1) رواق الرماية: مكان للتمرن على إصابة الهدف بعيارات نارية.

نلقي القبض على طعامها.

توقف المركب. أنزل القبطان المرساة في الماء. ومع ازدياد ضوء السماء في الأفق، استنشق أبي الهواء المملح، ثم أدار وجهه نحوي، وقال «فلنحصل على سمكة للغداء. ولتكن سمكة كبيرة!».

لقَّمتُ صنارتي بالطعم. وأمضينا كل الصباح في الصيد. لم نصطد أي شيء. وبعد وجبة غداء سريعة، كررنا المحاولة، فأنزلنا الصنارات مرة أخرى إلى الماء. ثم فعلنا الأمر ذاته بعد الظهر من ذلك اليوم. وكانت النتيجة اننا انتهينا بخفي حنين. لم نظفر بأي سمكة على الإطلاق.

ما إن أوشكت الشمس على الغروب مقابل نيو جيرزي، وبدأ الضوء يبهت، حتى رفع القبطان المرساة، لنعود أدراجنا إلى بروكلين. لم تتخلّ يدا أبي عن «درابزين» المركب، لأنهما لم تجدا ما يجدر قوله. أما ملامح وجهه فباحت بكل شيء نيابة عنهما.

في طريق عودتنا إلى محطة قطار الأنفاق وقبل أن ندلف في عربة القطار، توقف أبي لشراء سمكة. سمكة كبيرة جداً.

«إن لم تفه بكلمة بشأن هذا الأمر»، أشار لي «فلن أفعل بدوري».

عندما وصلنا باب الشقة، وضع السمكة الملفوفة بورق الصحف، بين ذراعيَّ ثم قرع الجرس الذي حفز مصباحاً ليومض في الرواق ومصباحاً آخر ليومض في غرفة الجلوس.

أمي وأخي سعيدان لرؤيتنا.

«هوو– ها– ها، زوجي، لو، وابني صائد السمك» أشارت، قبل أن تأخذ السمكة الكبيرة الميتة من بين يدي لتتجه بها إلى المطبخ. لطالما خصت أبي

بـ«زوجي، لو» بدلاً من «والدك».

كانت تقوم بذلك بغير وعي. فعالمها المباشر، العالم الصامت داخلها، كان مؤلفاً من زوجها، لو، إلى جانبها. كانا نجمين يحومان حول مركز ثقل واحد، في كونهما المجرد من الأصوات. أما أخي وأنا، فبدونا كوكبين قريبين جداً في مدارهما المشدود. كنت أعرف بكل جوارحي أن أمي أحبتنا، لكننا كنا مختلفين لصحة سمعنا. أما والداها وأقاربهما فقد وُجِدوا في مدارات أبعد بعض الشيء، ثم الجيران ثم زملاء الدراسة، وأخيراً، وكما حال النجوم المرئية والبعيدة في هذا الكون، تموضع سائر الناس من صحيحي السمع، الذين لم يكن لهما أي صلة بهم.

«زوجك لو؟»، كنت أتوجه إليها بالسؤال أحياناً، متحصناً بمحاولتي المسكينة لإطلاق الدعابات. «من هذا الرجل إذن؟ إنه يبدو كوالدي». كانت تنظر إلي وكأنني فقدت عقلي للتو. ففي التسلسل الهرمي لمشاعر أمي الصماء وولائها، زوجها يأتي قبل أبي.

تلك الليلة، وبعد أن أزالت أمي كل عظمة ممكنة من أجل أخي، وبعناية جراح دماغ، تناولنا السمكة على العشاء (فقد كنت كبيراً بما فيه الكفاية لأعتني بنفسي). ظلت تنظر إليَّ مع كل لقمة مضغتْها، من دون أن تزول الابتسامة عن محياها، كذلك أخي الذي تصرف وكأنني قمت بصيد أحد الحيتان.

خالجتني مسحة من الشعور بالذنب لأنهما صدَّقا أنني حظيت بهذا الصيد الثمين. شعور ضئيل فقط. فالسمكة كانت لذيذة، بكل ما فيها، حتى عظامها.

-8-
عبق القراءة

مرة كل شهر، بعد ظهر يوم سبت، وبانضباط شبيه بدقة ساعة العمل، كان يقوم والدي باصطحابنا: أمي، أخي وأنا، في احتفالية مهيبة، لتناول الغداء في مطعم صيني محليّ. فشأن عظيم أن تتناول الطعام خارجاً، خلال تلك الأيام الأخيرة من فترة الكساد الكبير، ذلك أن المكتسبات الاقتصادية لدخول أمريكا الحرب العالمية الثانية، لم تكن قد دلفت بعد، إلى زاويتنا من العالم: أحياء بروكلين المطمئنة.

نهندم أنفسنا احتفاء بهذا الحدث، أرتدي أحدث بزاتي من متجر آر وأتش مايسي، يلبس أخي أحسن ثيابه، تضع أمي عليها أجمل فساتينها، متوجة بفراء الثعلب، ويلبس أبي بزته التويدية[1] («أبدو أستاذاً جامعياً»، كان يومئ دائماً، مشكلاً بإشاراته غليوناً خانقاً الدخان في إحدى زاويا فمه. كان مثله الأعلى في ذلك روبرت دونات في «وداعاً سيد تشيبس»، فيلم أبي المفضل، رغم أنه لم يستطع تماماً معرفة ما يقوم به الممثلون).

بعد تأكده من خلو رأسينا، أخي وأنا، من أي شعرة شاردة في غير محلها، وخلو ثيابنا من أي لطخة خفية، وجلد أحذيتنا من أي جلف، نهبط بالمصعد إلى الدور الأرضي. وبعد تفحصه بنظرة واحدة نهائية، كلا منا بعناية، يدفع أبي الباب الزجاجي المزخرف لردهة المبنى، لنخرج، متصلين ببعضنا بعضاً في خط واحد أفقي، والداي في الوسط والذراع بالذراع، في حين أمسك بيد أبي، ويشبك إروين يده بيد أمي، متجهين إلى طريق كينغز العام. وما إن نخطو خارج مبنانا السكني، شاخصين بأبصارنا إلى الأمام، حتى نصبح محط أنظار

(1) التويد: نسيج صوفي خشن.

كل الجيران، فلا يتوانون عن إطلاق التعليقات المتكررة بلا كلل، في أعقابنا: «أخذاً في الاعتبار أنهم صمّ بكم، فإنهم يبدون أنيقي المظهر». «انظر كم يهتم الأخرسان بملبس طفليهما». «الوالد أخرس أصمّ لكن لديه عمل جيد». «الأخرسان يصطحبان ولديهما إلى (ابناء الصين[1])».

هذه الجملة الأخيرة، كانت شائعة الاستعمال في حينا، وبشكل عام، من قبلنا نحن اليهود، الناس الذين أفزعتهم التسمية التي أطلقها إيرلنديو حيّ رد هوك بحقهم في بروكلين، عندما وصفوهم بـ«اليِدْيين»[2]. وكأن ذلك لم يكن مدعاة للسخرية بشكل كاف، حتى لأذني اليافعتين، كانوا هؤلاء القوم أنفسهم الذين اعترضوا بطريقة دعائية على ما تعرض له الصينيون في منشوريا، على أيدي الجنود اليابانيين وحرابهم، الذين عرفوا بـ«جابس»[3]. وقد أدركت على أي حال، أنه في ضوء المحاولات المضلَلة لحذف الجذور، إلا أن دائرة التعصب اللاعقلاني، كانت أكثر شمولاً واتساعاً، فلا أحد محصَّن ضدها. فنعت الأيرلنديون واليهود البولنديين بـ «ذوي الأصل البولوني»، أما البولنديون أنفسهم، فنعتوا الإيطاليين «ووبس»[4]. ونعت الإيطاليون الأيرلنديين بـ «ميكس»[5]، الذين بدورهم لم يعفوا الصينيين من لقب «تشينكس». وبالتالي، فإن هذه الدائرة من العنصرية العرضية، غير الرسمية،

---

(1) أبناء الصين: بالإنجليزية Chinks كلمة تحقيرية تستخدم للإشارة إلى الصينيين.

(2) اليِدْي Yid : هو من يتكلم لهجة من لهجات اللغة الألمانية التي تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية. واليدية يتكلم بها اليهود في الاتحاد السوفياتي (سابقاً) وبلدان أوروبا الوسطى، وهي تكتب بحروف عبرية.

(3) جابس Japs : كلمة تحقيرية تستخدم للإشارة إلى اليابانيين.

(4) ووبس Wops : هو لقب تحقيري أطلق في الولايات المتحدة على الإيطاليين. والكلمة مشتقة من كلمة guappo النابوليتانية وتعني الشخص ذا السلوك المتكبر والمتعجرف والمغرور .

(5) ميكس Micks : جمع ميك. ولا أصول واضحة للكلمة. يعتقد بعضهم أنها مشتقة من ملك Mc المكررة في أسماء العائلات الإيرلندية، فيما يؤكد بعضهم الآخر أنها ذات صلات صوتية لها علاقة بالحازوقة الناتجة عن حالة السكر الشديد لدى العديد من الأيرلنديين.

كانت مكتملة الشكل، تمام الكمال.

أما الصينيون فليست لدينا أدنى فكرة حول النعوت التي أطلقوها علينا جميعاً.

سمعت من جيراننا كلمة «خرسان» في سن مبكرة، لكنها بدت لي أشد قسوة من أي نعوت أو ألقاب عنصرية؛ لأن تلك النعوت والألقاب مخصصة لجماعات، أما كلمة «أخرس» فلها سمة شخصية: كان يشار بها لتمييز شخصين ضمن مجتمع الجيران، أي والدي ووالدتي. مع ذلك، أضحيت غفلاً إزاء هذا النعت، ربما لكثرة ما تعرَّضت له، إلا أنني لن أسمح له الآن بالتدخل لتعكير صفو متعتي العائلية التي تتكرر مرة في الشهر.

كان المطعم الصيني يقع في الطبقة الأرضية من صف يؤلفه مبنيان متصلان، يتكوّن كلّ منهما من طبقتين. أما فراغات الشارع فامتلأت كلها بالمحال التجارية التي تنوعت بين: مخبز، متجر دواجن، أدوات منزلية، بقالة، صيدلية، حلاق رجالي، مزين نسائي، وبالطبع متجر الحلوى إياه في الحي.

بالنسبة إلي، كمتورط في هذه المسألة، فإن الجزء الأهم في طقس تناول الطعام خارجاً، كان منظر أبي متحاوراً بإيماءات متكسرة مقطعة، مع النادل الصيني، الذي كان بدوره يرد بإنجليزية ركيكة. واظب كلاهما على تلمّس طريقه، داخل لائحة الطعام المكثفة، ذات المأكولات الملونة، والمشبعة بأعمدة الأحرف الصينية المبهمة، تقابلها ترجمة محرّفة للإنجليزية. كان النادل يصيح بوجه أبي، محافظاً على ثغره باسماً، معلناً مكونات الطبق اليومي الخاص بهم، وكأن قوة الصوت وحدها كفيلة بجعل أبي يسمع مواصفات تلك الأطعمة الشهية. لكن أبي لم يكن يفعل شيئاً حيال هذا سوى رفع قوة إشاراته بالمقابل، فيصيح بإيماءاته، موافقاً على ما يقوله النادل. كان رأساهما يهتزّان، مع ابتسامة مثالية، تعبيراً عن اتفاقهما في هذا العرض المدهش، من دون أن يستوعب

أحدهما بالمرة ما نطق به الآخر.

أما هذا الوضع، المفترض كونه موضع إحراج مؤلم كلسعة، فقد تحول مع الوقت إلى متعة. ذلك أن متناولي الطعام، كانوا زبائن منتظمين، وبالتالي فقد تآلفوا مع هذا المشهد. وبدا جلياً بالنسبة لي، أن نظراتهم لا تنم عن نفور، وكل ما في الأمر أنها تسلية اعتادوا عليها، فتكيفتُ مع هذه الحقيقة.

ذات سبت، تناولنا غداءنا الصيني، كالعادة، مفتتحين بالطبق الخاص بالمطعم (لم يتغير، شهراً بعد شهر)، سمكة بيضاء مملوءة بالحسك، غير صالحة للأكل، مشبعة بالماء، مع زوج مذهل من عيون خالية من النظرات، حدقتا بي صامتتين اتهاميتين. وقد أرفق هذا الطبق بخيارين من القائمة ألف (خيارات لا تتبدل، شهراً بعد شهر)، وخيار واحد من القائمة باء (شَرْحُه)، منقوعين بطبقة سائلة، غير قابلة للبلع، خضراء اللون، مملوءة ببقع سوداء. والوجبة، كما دائماً، تنتهي بكعكة الحظ، التي بجّل أبي وأمي الرسالة الموجودة داخلها، وضحكا بمودة، فيما لم أكن أجد تبريراً لهذا كله، رغم حبي لمذاق الكعكة.

لكن في ذلك اليوم، طرأ تغيير على طقوس ذلك الاجتماع العائلي.

فبعد أن تمعن طويلاً في الفاتورة، مفصِّلاً إياها بدقة، وكأنه غير متوقع تماماً لتلك التكاليف الباهظة، دفع الحساب ثم توجه إلي وأشار، «أصبحتَ قادراً الآن على القراءة. آن الأوان لتحصل على بطاقة مكتبية».

المكتبة المحلية تقع في المبنى ذاته، فوق المطعم الصيني تماماً. كنت قد سمعت عن هذا المكان من الأولاد الاكبر سناً، لكن قدمي لم تطأه من قبل، فأنا، كما أُخبرت (حُذرت) من أولئك الأولاد، لم يكن بحوزتي البطاقة التي تؤهلني لدخول المكتبة. قالوا إن المكتبة تحوي كل كتب العالم أجمع. لم تكن لدي أدنى فكرة عن صحة هذا الأمر. كل كتب *العالم*؟ عجباً! لابد من أن هناك المئات منها، فكرت. ومع أنني تعلمت القراءة جيداً، إلا أن تلك الجملة استثارت

فضولي على نحو جدي: كل كتب العالم؟ لكن، لا يمكنك ان تثق بالأولاد الأكبر سناً. فكل ما قاموا بإخبارنا إياه، كل تحذير مهيب تلفظوا به، كان يتضح في ما بعد أنه مبالغ فيه.

كان والداي قارئين نهمين. فلأنهما أصمان، شكلت الكتب مصدر متعتهما الوحيدة. فمُلِئت شقتنا الصغيرة بالكتب من كل الأصناف. وأفردت أجزاء كبيرة من بعض الكتب لتصوير مناطق بعيدة: أهرام، جِمال، صحارى فسيحة، أنهار عملاقة، شلالات مرتفعة، أخاديد عميقة، بهائم غريبة الشكل، وسفن مبحرة. أحببت على وجه الخصوص، صور تلك السفن ذات الخشب المقشور، بصواريها المغلفة بالقماش، المتأهبة للهجوم بالمدفعية المصفوفة على جانبها، تدفع بمنكبها السندياني، لتشق عباب الموج المزبد. وبعد أن تعلمت قراءة ما كتب تحت تلك الصور، صرت أحلم ببطاقة مكتبية من أجلي– الحلم الذي يوشك الآن على التحقق.

خرجنا من المطعم الصيني، وانعطفنا بقوة إلى اليمين، لندخل الباب المجاور المؤدي إلى مجموعة متواصلة وشاهقة من درجات السلالم الخشبية، بآثار واضحة لأقدام وطأتها.

يستقبلك عند نهاية السلالم في الأعلى، باب زجاجي معلناً: «مكتبة بروكلين العامة». يدفع أبي الباب، ليدخل متقدماً إلى قاعة واسعة. ما يشدّ انتباهي أولاً أنها مملوءة، من بدايتها وحتى نهايتها، ومن أعلاها إلى أسفلها، بـ«*كل*» كتاب طبع في العالم أجمع. وثانياً، أنها مكان ذو رائحة كرائحة المطعم الصيني (فالمكتبة تقع تماماً فوق المطعم الصيني).

لم أكن لأصدّق أن مِئات الكتب المرصوصة فوق الرفوف، متاحة للقراءة دون مقابل. فلكوني طفلاً في الكساد الكبير، دُرِّبتُ في دواخلي، وبصورة وثيقة، على أن لكل شيء ثمناً. كل شيء. أما الاكتفاء بمجرد إظهار بطاقة

المكتبة- وهي لا شيء أكثر من قطعة ورق مقوى- لأخذ أي من تلك الكتب القيمة، فبدت فكرة لا يتصورها عقل.

وجدت بداية أن ائتماني على كتب تمنح لي، أمر باعث على الإرباك. لذلك، كنت أتفحص، وبعناية جراح دماغ، كل صفحة على حدة، داخل أي كتاب، قبل أخذه للقراءة في المنزل. حتى أقل ثنية في زاوية الصفحة- أو بقعة من أثر طعام في مكان ما على الصفحة، وهذا شيء مهول- تدفعني لألفت نظر الموظفة إلى الخلل. فتدوِّن هي على الصفحة الفارغة في نهاية الكتاب أو بدايته، بخط عنكبوتي «بقعة زبدة الفستق؟ ص. 36». أو بشكل عام جداً «توكيد. ص. 12». والآن وبعد مرور عقود من الزمن على ذلك، ما زلت أقلّب في صفحات أي كتاب، قبل طلب استعارته.

أكثر ما وجدته معجزاً بشأن المكتبة هو الكمية المجردة من الكلمات الموضوعة داخل جيش الكتب الغفير ذلك، السائر كتفاً إلى كتف، صفاً فوق صف، على الرفوف. كلمات. كلمات. كلمات. كلمات مكتوبة. كلمات محفوظة. كانت المكتبة مستودع كلمات. كلمات لحل الشيفرات. كلمات للتعلم. كلمات أضيفها إلى معجمي. وكلمات وُجدت لتكون لي.

كانت كلمات الكتب شديدة التباين مع كلمات لغتي الأولى. فالإشارة لغة حية، معاصرة، لغة إيمائية بصرية، تشتمل على أشكال يدوية، أوضاع يدوية، تعبيرات وجهية، وحركات جسمانية. ولأصوغها ببساطة، أجد أنها أكثر اللغات جمالاً، وفورية، وأكثرها قدرة على التعبير، ذلك أن الجسد بأكمله يندرج داخلها. الإشارة كصورة، تعادل ألف كلمة. إشارات والديّ كانت تمضي عبر يديهما ووجهيهما وجسديهما لتصبّ مباشرة في وعيي. وهكذا، باعتباري طفلاً لم أتلقَ اللغة تلك سلسلة وحدات متقطعة تضاف إلى أفكاري، بل امتصصت معنى الإشارة ككل، مرة واحدة، من خلال عينيّ.

أما الكلمات المطبوعة فكانت شأناً آخر تماماً، وكلما تعلمت المزيد منها، اكتشفت مفاتنها الفذة أكثر فأكثر. عندما أقرأ كتاباً، أتريّث عند كل كلمة، ثم أُسمِعُها لذهني لأتلقف المتعة المجردة التي تقدمها لي. كل واحدة منها نوته موسيقية، وكنت أستمتع بها لذاتها، ولذلك الصوت الذي تؤلفه مجتمعة مع كلمة أخرى مجاورة. أفضل ما في الأمر كان سماع التناغم في جملة تامة. كانت هذه لغة الذهن، أما الإشارة فكانت لغة القلب. الإشارة كانت رسماً تصويرياً جميلاً، يتشرّب العاطفة المستحضرة مع معنى ما. أما اللغة المكتوبة- لغتي الثانية- فهي لغة تتطلب ذهناً متأهباً لترجمتها.

كنت على شفا أن تصبح القراءة شغفي الأول، إذ أضحى فرع المكتبة العامة في بروكلين ملاذ طفولتي، متسلحاً ببطاقة المكتبة، كنت أستطيع الهرب إلى هذا المزار الهادئ، كلما سحقتني أوامر والدي الملقاة على عاتقي. في هذا المكان البالي، ذي الرائحة الحلوة، المملوءة بعبق صلصة الصويا الخافتة، كنت ما إن أفتح كتاباً، حتى أمضي بسحر ساحر، إلى أطراف الأرض.

هكذا بدأت أمضي فترات أطول في المكتبة، محاطاً بكل الكلمات التي أملت بتعلمها، مستمعاً إلى موسيقاها في ذهني، فيما كل ذلك مغلف بالشذا المريح للطعام الصيني.

أجدني مراراً، وإلى اليوم، أقوم باستنشاق تمهيدي أمام أي كتاب من المكتبة، كأنما أتوقع أن رائحة التشاو مين[1] الخفيفة، ستؤدي مهمة رفع الصفحات من مكانها.

(1) تشاو مين chow mein : طعام صيني من النودلز ويضم إضافات أخرى كالدجاج مثلاً، بحسب الطلب.

-9-
الوقوع في الحب

أول حب عرفته كان في الصف الثاني ابتدائي. في الواقع، لم أقع حينذاك كثيراً في الحب، بقدر ما جاء الأمر اختيارياً بملء إرادتي، وبصورة عملية، لكي أبدو في حالة حب (لن يكون الأمر مماثلاً في حياتي المقبلة، إذ سأتزوج ثلاث مرات– ولاشك في أنني رجل يتحلى بالتفاؤل أكثر مما يتحلى بالحسّ البراغماتي).

ففي اليوم الأول من السنة الدراسية تلك، رصدت عيناي فتاة جديدة في فصلنا. كانت مقاعدنا مرتّبة أبجدياً، وبما أن اسم عائلتي يبدأ بـ «يو» (U)، أُجلست في مؤخر الصف، أما هي فكانت تجلس في مقعد إلى يميني، وتحديداً تحت النافذة، بسبب اسم عائلتها الذي يبدأ بـ «دبليو» (W). اول ما حفظته ذاكرتي بشأنها، كان تلك الهالة القدسية التي أحاطت بتجاعيد شعرها كأنما شعاع شمس سقط للتو على رأسها. كانت أشبه بملاك. أنفها الصغير، المستقيم، المنمّش، ولمزيد من الكمال، امتلأ ثغرها المبتسم دوماً، السخي، بأسنان صغيرة، بيضاء إلى درجة لا تصدق.

لم أكن قد تبيَّنت أنها تفوقني طولاً بأشواط، حتى أمرتها المعلمة بالوقوف لأول مرة في مقعدها لإلقاء قصيدة. تعاقبت السنوات، وخلالها، انتقلنا من فصل دراسي إلى آخر، حتى بلوغنا المرحلة الثانوية، إلا أنني لم أستطع مجاراتها في الطول. اتضح بشكل دائم أنها أكثر الطلبة طولاً في فصلنا، كما في كل فصل آخر انتقلنا إليه. كان اسمها إيف.

الميزة الأخرى التي لفتتني بشأن إيف، هي يدها اليسرى. ما لاحظته في الحقيقة، هو غياب يدها اليسرى التام، إذ كانت تظل مودَعة في حضنها طوال

الحصة. وإن وقفت لتقرأ، دفعتها في عمق جيب ثوبها الطرطان[1]. بدا ذلك غريباً، وغير متجانس، بما أنه عنى حملها لكتاب الشِعر بيد واحدة طيلة فترة قراءتها منه.

تعاقبت الحصص الدراسية لأسبوع كامل قبل أن يحلّ لغز هذا الغموض، والفضل في ذلك يعود إلى عطسة في أحد الصباحات. ففي حين كانت بيدها اليمنى تغمس قلمها في المحبرة الموضوعة على طاولتها، غلبها العطاس، فما كان منها، إلا أن رفعت يدها اليسرى غريزياً، نحو فمها. فبان لي إذذاك خنصر يدها الأيسر، معقوفاً، فوق الإصبع المحاذية له. كان الخنصر أشبه بصورة عصا الراعي في كتاب قرأته.

رأتني إيف أحدق في يدها، فأسقطتْها بسرعة في حضنها، حيث توارت تحت لوح طاولتها السفلي. توجهت برأسها محدقة إلى الأمام، بملامح صارمة على محياها، وترافق ذلك مع احمرار وجنتيها خجلاً. وقد استولى عليها إحساس بالحرج.

خلال ذلك العام الدراسي، انتبهت أن الأطفال الآخرين أصبحوا واعين ليد إيف. وكما سائر أطفال المعمورة، بقساوتهم الغريزية، كانوا يعمدون إلى الحملقة بيدها كلما ظهرت تلك اليد، وبصورة نادرة، للعلن. كما أنهم كانوا يشرعون في الضحك لمرآها. أما إيف، فيخالجها شعور بالذل أمام تلك النظرات، فتنكمش أمام صوت قهقهاتهم، ولا تقف أبداً بصورة مستقيمة. إذ عمدت دائماً إلى تقليص طول جذعها. إلا أن جسمها لم يكن يتداعى بصورة فجائية أمام ضحك زملاء الدراسة، بل ما كانت لتسمح لنفسها إلا بإحناء ظهرها بعض الشيء. وفي الغالب، لم يكن الضحك موجهاً ضدها. فأيّ شيء قد يستثير ضحك الأطفال. لكن إيف اعتبرت أن أي ضحكة يطلقها هؤلاء

(1) الطرطان: قماش صوفي مقلم بخطوط مختلفة الألوان متقاطعة على زوايا قائمة.

تتعلق بيدها المشوهة.

كلما رأيتها بذلك الأسى، كنت في مكمن عميق من روحي الصغيرة، أجد نفسي معنياً بما تشعر به، ذلك لأن لدي سبباً للشعور بالخجل، مثلها تماماً، كان يضعني في خانة العنصر المختلف. الأطفال، إذا ما وُسِموا بالاختلاف لسبب أو لآخر، فإن الأمر يحمل لهم حرجاً حاداً. في حالتي، كان الأمر متعلقاً بوالديّ المختلفين، وكنت أشعر بالخجل لذلك، بالطريقة نفسها التي شعرت بها إيف بالخجل لشكل يدها.

يوم أقمت اتصالاً ما بين خجلي وخجلها، قررت أن أقع في حبها.

استغرقت المسألة بعض الوقت، لكن إيف كانت قد أصبحت تشعر بالراحة لوجودي. ومع أن مسكنها في شارع وست تنث كان قاب قوسين أو أدنى من منزلي، غير أنه في تلك الأيام، كانت مسألة قاب قوسين أو أدنى بمثابة عالم آخر للأطفال في مثل سننا. فنحن أطفال شارع وست ناينث، لم يكن ثمة داع لمغادرة حينا. ففي وست تنث لا شيء إطلاقاً أفتقر إليه هنا خارج باب منزلي في شارع وست ناينث– قبل التقائي بإيف. بعد فترة وجيزة، وجدتُني أحمل كتبها في طريقنا إلى المنزل، عند نهاية كل يوم دراسي. كما رتبت أن ألتقيها كل صباح، قبل بدء المدرسة، امام رواق منزلها الواسع.

أخيراً، قدمتني إيف إلى والدتها. لم يكن لديها أب. أما سبب غياب الوالد، فذلك ما لم أفهمه البتة. ولم يكن موضع نقاش بيننا.

ثم ما لبثت أن دعوت إيف لزيارة منزلنا. وافقت، وقدمتُها على نحو واف لوالدتي. وبما أن إيف لم تطلعني بشأن غياب والدها، فلم أخبرها كذلك بأن والدتي صماء. لم أجد سبيلاً لذلك. مع أنني كنت متأكداً من أن الأمر لن يشكل فرقاً لها.

وعلى رغم دهشتها من أنني تحادثت مع أمي بالإشارة حالما قدمتها لها،

إلا أن إيف لم تحدق بإمعان أو تتصرف بما يوحي شعورها بالفكاهة لواقع الحال. لكنها، بعد ذلك، أطلقت عليّ وابلاً من الأسئلة: «كيف تعلمت النطق بالإشارة؟»: «كيف كنت تتواصل مع والديك قبل ذلك؟»، «هل كانا دوماً أصمّين؟» «لماذا لستَ أصماً مثلهما؟» بدت أسئلتها نابعة من اهتمام صادق، ولم تشعرني بأي حرج.

كان لدي أيضاً بعض الاستفهامات. «هل وُلدتِ هكذا؟» «أعلقت يدك في باب؟» هل بإمكان الأطباء تقويم خنصرك المعقوف؟» وأسئلتي كذلك، لم تصبها بالحرج.

طلبت مني بعد فترة أن أعلّمها الإشارة. وبما أن معظم مفردات الإشارة تطلبت الحاجة لاستخدام كلتا اليدين، فقد واجهت بعض الصعوبة بادئ الأمر. لكن أخيراً، فقدت حساسيتها لذاتها أمامي، وانطلقت تتعلم أشد الإشارات تعقيداً وصعوبة. كانت تستخدم يديها الاثنتين لتُري أمي الإشارات التي تعلمتها. أمي بدورها تومئ قائلة: «إشارات واضحة جداً. جميلة جداً»، فأترجم ما قالته أمي لإيف.

ذات يوم، أخبرتنا المعلمة أنه ابتداء من الشهر التالي، سيكون على كلّ تلميذ، ومع أول حصة صباحية، أن يقوم بتقديم مشروع تعليمي وشرحه. وعلى الواحد منا اختيار مشروعه. واقترحت علينا بعض الأفكار لمساعدتنا. قالت إنه بالإمكان التحضير لمشروع علمي، على سبيل المثال، فراشات في إناء. ما إن قالت ذلك، حتى سيطرت فكرة واحدة على جميع الأطفال: *فراشات في بروكلين*؟ همهمات معترضة انتشرت في أرجاء الفصل. «أو يمكنكم أن تقدموا ديداناً تحفر للوصول إلى مسكنها». لكن أين سنجد الديدان؟ فبروكلين عملياً، مرصوفة فوق الإسمنت والحصباء. المزيد من الهمهمات. «أو بإمكانكم بناء مزرعة نمل». كان هذا الاقتراح الأخير عملياً بما فيه الكفاية. ذلك أننا نعرف

أين وكيف نجد النمل في حينا. لكن لا نستطيع جميعنا العمل على المشروع ذاته.

بعد أن أُرهقت واستنفدت ذخيرتها من الأفكار، استسلمت المعلمة «سيكون أي مشروع تقومون به مقبولاً». أضافت، «أصالة تقديمكم للمشروع هو كل ما يهم. فلتجعلوه مثيراً للاهتمام. وإذا رغبتم، فبإمكانكم العمل ضمن مجموعة من شخصين لتقديم مشروع واحد».

تبادلت وإيف النظرات على الفور. وفي توافق صامت، عملنا على رص قوانا كي نحضر لتقديم مشروع ما. لكن ما عساه يكون موضوع مشروعنا؟

استلزم الأمر نقاشات مطولة في قاعة الطعام، قبل أن يتمخض عن اتفاقنا على فكرة وجدناها ممتازة. ستكون أصيلة، كما ألحت المعلمة. كما أننا متأكدين من أنها ستكون مثيرة للاهتمام. الآن علينا ضبطها، أو على إيف القيام بذلك على الأقل، بما أنه تقرر القيام بمشروع النطق بالإشارة. أطلقنا على مشروعنا تسمية «الكتابة على الهواء».

أمضينا إيف وأنا، كل دقيقة فراغ خلال الأسابيع الأربعة اللاحقة، نتمرن على الإشارة أمام رواق مسكنها. كنا شديدي الحماسة فانجذبت لمرآنا، حشود من أولاد الحيّ المذهولين.

«علمانا! علمانا!»، راحوا يطالبون زاعقين. «نريد أن نتعلم لغتكما السرية».

أنا، الذي كنت دائماً محرجاً لاضطراري إلى النطق بالإشارة مع أبي على مرأى من العامة، رأيتني الآن مغتبطاً لانجذاب الحشد لمعرفتي لغة التخاطب الغريبة هذه. بدأت أتباهى، مزدهياً بإيماءات مبالغ بها، أكثر تعقيداً مما علمني إياه ابي. طبعاً كانت تلك الإيماءات أساساً، ضمن لائحة في معجم الإشارات، لكنني آثرت تقديمها للتأثير فقط، ولم أبذل أدنى جهد لتوليفها في سياق كلامي

ما. لكن ذلك لم يكن مهماً بحال. فالأولوية هي لمدى تعقيدها وخفَّتها.

إشارتي البهلوان قلبت المنزل رأساً على عقب. كان والدي قد اصطحبني في الآونة الأخيرة إلى سيرك الأخوين رينغلينغ في حديقة ساحة ماديسون وعلمني إشارات عدة تتعلق بالسيرك. كلها كانت جديدة، ذلك أنه لم يسبق لنا الاستعانة بها في شقة بروكلين. ما إن تلقفتها، حتى بت أتحيَّن أي عذر لاستعمالها. «انظري أمي» أشرت بعدما قفزت على سريري «أنا بهلوان». فيما اتخذت سبابتي وإصبعي الوسطى، شكل رجلي بهلوان يقف على ظهر راحة يدي اليسرى المنبسطة. بعد ذلك، الرجلان في يدي اليمنى أُثنيتا، قفزتا، انقلبتا، ثم نفذتا شقلبة مزدوجة في الهواء قبل أن تعاودا الوقوف على راحة يدي اليسرى، مبتهجتين بنجاحهما، مهتزتين قليلاً من أثر الارتطام. كانت إشارتي جيدة جداً، أقسم أنك كنت لتستطيع رؤية نشارة الخشب وهي تغطي حلبة سيرك يدي اليسرى. على الأقل، أثار ذلك تصفيقنا، أمي وأنا.

أما بالنسبة للإشارات الخفية، فكان أفضلها، وبما لا يقاس، تلك التي تصوِّر *قضاء الحاجة*. الإبهام الأيمن تمسك به قبضة اليد اليسرى. ثم وبسرعة– أو ربما في حال أحد ما يعاني إمساكاً، وببطء حاد– يُسحب الإبهام من قبضة اليد اليمنى المقفلة. وبسرعة أكبر عندما تكون قد تناولت الخوخ.

أحب الأطفال ذلك! وبات بإمكان كل طفل في الحي أن يقول «خراء» بالإشارة.

جاء اليوم المنشود كما هو مقرر. وبدأ تقديم المشاريع.

شهدت وإيف، أثناء جلوسنا، شتى أنواع العروض المملة، والشروحات غير المفهومة، كان منها: لماذا تضيء اليراعات (رفضتُ قطعاً القيام بذلك في مسكنها المؤلف من مرطبان مربى، إذ كانت مشغولة بلعق مربى العنب تحت الغطاء)، وأين يذهب البعوض ليقضي نحبه بعد أن يلسعك (هذا العرض أبرز

عشرة من البعوض الميت والمستلقي بسكينة فوق سرير من أوراق الشجر، في قعر المرطبان الخالي من الهواء، والذي أغفل الولد ثقب غطائه بمسمار) وكيف تتحول اليرقة إلى فراشة (لم نصدّق هذا العرض لدقيقة)، قبل أن يحين دورنا.

وقفنا في جبهة الصف. كانت الفكرة أن تقف إيف خلفي إلى حد ما، فتُحجبُ عني رؤيتها، وتحمل- بيدها اليمنى طبعاً- رسماً لإشارة يجدر بي تأديتها. ما إن تلفظتُ بالكلمة المنوطة بالإشارة، حتى نفذتها مستعيناً بذاكرتي، كأنني في مسابقة للتهجئة البصرية.

عندما قامت المعلمة بتقديمنا، شكل نصف الصف إشارة «خراء». وكاد النصف الآخر أن يقع عن الكراسي من فرط الضحك. وقفت المعلمة مذهولة، ولا أدنى فكرة لديها عما يحدث. أضحت الغرفة مستشفى مجانين لأيد تتحرك في الهواء.

إشارات «خراء، خراء، خراء» الهائمة في الأثير، قُذفت باهتياج في الهواء. وكان هناك إعصار من «الخراء».

استغرق المعلمة بعض الوقت لتستعيد السيطرة.

قدمتنا مرة أخرى، أنا وإيف، محذرة أن أي هيجان إضافي، سيؤدي بفاعله لمكافأته بنزهة إلى مكتب المدير.

بدأنا. نادت إيف «بطريق». أخفضتُ يديَّ الاثنين، الراحتان مقلوبتان إلى الأسفل، والأصابع مضمومة إلى بعضها، تستكين إلى جانبي خاصرتي. دافعاً من ثم كتفيَّ إلى الأمام، رحت أرفع كل كتف وأخفضه بالتناوب. ولأشدد على هذه الإشارة، ترنحت قدماً، بقدمين متيبستين، محاكياً المشية المتثاقلة لطيور البطريق وهي تجتاز الطوف الجليدي. صفق الجميع.

«أيل»، طلبت إيف. الآن افتعلت ما تخيلته وجه أيل مجفل، ربما مصدوماً بالمصابيح الأمامية لسيارة على طريق فلاتبش العام، واضعاً كلتا يدي فوق

رأسي، بعشر أصابع منبسطة ومصوبة نحو الخارج كشعبة من قرون الوعل القاسية. هززتها بصورة مقنعة، متوجهاً إلى الأطفال الذين انفجروا بالهتاف.

«ظبي»

صرت ظبياً.

«موظ»

صرت «موظاً».

أحب التلاميذ هذا. «المزيد. المزيد!».

«فيل؟» ألّفت يدي كوباً استند كعبه إلى أنفي. تحركتْ رشيقة، ثقيلة، خارج أنفي، متعرجة نحو الأسفل، ومن ثم نزلت تبحث عن الفستق الذي شاهدتْه المخيلة، مبعثراً على الأرضية المتسخة لحلبة سيرك أذهاننا.

انفجر الصف بصيحات مرحة. قضت إشاراتي عليهم. كان هذا أفضل من عشرة من البعوض الميت، وحزمة اليراعات التي لا تصدر ضوءاً.

إيف أخذتني إلى غابة حيوانات وحديقة مشبعة بالعصافير الغريبة.

ثم شرعت بلائحة إشارات تفوق في تعقيدها ما اتفقنا عليه.

اول تلك الإشارات كانت حول مفهوم كلانا متآلف معه. «ما الإشارة التي تدل على *الحرج*؟» سألت.

قمت بإشارة تعبر عن اللون *الأحمر*، كما في الدم، محركاً سبابتي أعلى وأسفل شفتي الحمراوين، ومن ثم قامت راحتاي باحتضان وجهي كطفل لحظة وضعه في المهد، متحركتين إلى الأعلى ببطء، كأن الدم الأحمر يتصاعد، مخضباً كامل وجهي بخجل يتبرعم ناجماً عن إحساس بالمهانة.

فُتِن الرفاق في الصف.

ثم سألت إيف: «ما إشارة *المنبوذ*؟» لم أرسم أي شيء. وقفت صامتاً.

طالبتْ مرة أخرى: «*المنبوذ*؟».

ظللت واقفاً في مواجهة الصف، كل النظرات مصوبة عليّ، وأنا مسدل يديّ المهزومتين، وقد انتابني خجل صريح ينم عن الحرج، غامراً وجهي، فبطريقة ما نسيت تماماً هذه الإشارة.

أدركتْ إيف أن لا فائدة ترجى من سؤالي هذه الإشارة مرة أخرى.

أفلتتْ البطاقات من يدها وهرعت نحوي لإنقاذي.

«المنبوذ» إشارة تستوجب العمل بكلتا اليدين لتنفيذها.

ودون أن تتردد لحظة، تناولت يدها اليسرى من جيبها ووضعتها في الهواء أمام الصف ليراها. راحة الكف مفتوحة وجهاً لوجه أمام الجميع، الخنصر المعوج في وضعه الملتوي الدائم، وبيدها اليمنى «الطبيعية» المفتوحة، سحبت أطراف أصابعها عبر راحة يدها اليسرى المقيتة نحو خنصرها.

فجأة أغلقت يدها اليمنى، كأنما تقبض على شيء، ثم سحبتها وبخفة، من راحة يدها اليسرى، كأنها اكتشفت جسماً مقرفاً هناك، وفي حركة قوية، قذفت به نحو الأرض، محافظة على تعبير بالنفور، حتى جعلت الصف يتوقع أن الجسم القذر سيثب ويهرول خارجاً من الغرفة.

صعق الجميع صامتاً لهذا الاداء. فهم الأطفال أن ما قامت به إيف، كان إشارة ذات دلالة– بالنسبة لها.

لم يضحك أحد.

ثم فجأة، انفجر الصف مطلقاً صيحات الاستحسان. الآن انتاب إيف خجل، اعتزازاً وليس حرجاً.

منذ ذلك اليوم، لم تعد إيف تواري يدها عن الأنظار.

وفي تلك اللحظة، وقعت بصدق ودون أي حسابات مسبقة، في حب إيف.

-10-
حكايات تُروى

بعد ظهر أحد الأيام، وعقب انتهاء الدوام المدرسي، أرغم هطول الأمطار الغزيرة والفجائية، كل الأولاد في حيِّنا على اللجوء إلى شققهم. وكما هي عادتها كلما رأتني مرغماً على البقاء داخل المنزل، جرتني أمي إلى المطبخ، أقعدتني إلى طاولة الطعام، وشرعت تطهو لي شيئاً آكله. أحببت مشاهدتها تطبخ: تضع القليل من هذا، ثم تضيف بعضاً من ذاك، ثم كمشة من شيء آخر (لم تستعن بوصفات الطبخ الجاهزة، ولا اعتمدت يوماً إلى مقادير محددة)، تخلط المقادير، تشعل الفرن، وتنتظر ريثما يطهى تماماً طعامها الشهي، معتمدة على الحدس ومن دون النظر ولو لمرة واحدة إلى الساعة.

بعد أن وضعت أمامي كمية من الماتزو براي[1]، شرعت تنظر إليّ وقد ارتسمت على وجهها تعابير لم أرها قط قبل ذلك.

«أتدري، لم يكن أبوك خياري الأول كزوج»، أشارت.

وعلى الرغم من جودة مزيج البيض المفتت وخبز الماتزو المقرمش اللذيذ، كففت عن تناول الطعام. *عما تتحدث أمي الآن؟ أي شيء هو هذا؟* فكرت.

«وددت إطلاعك على قصة»، أشارت. «أريدك أن تفهمني».

وضعتُ شوكتي على الطاولة وركزت انتباهي على يدي أمي ووجهها وجذعها. وأصغيت إلى صوت إشاراتها. كان عصياً على الأصدقاء استيعاب مغزى إشاراتها، أما أنا فكنت أفهم كل كلمة تقولها.

«في صباي، كما تعلم، أحببت ارتياد شاطئ كوني آيلند. كان مكاني المفضل في العالم بأسره، بمنأى عن مدرستي. كنت فتاة شقية، غير مطيعة، أغرمت

(1) الماتزو براي matzoh brei : خبز فطير يأكله اليهود في عيد فصحهم.



أمي وأصدقاؤها على شاطئ كوني آيلند

بالفتيان. كنت مهووسة بهم. وكانوا بدورهم مهووسين بي)).

هناك أكثر من إشارة للدلالة على الجنون/الهوس، لكن تلك التي خصتها بالاستعمال تضمنت تقبيل ظاهر يدها المقفلة. كانت تطبع على يدها قبلة بعد قبلة، مشيرة بوضوح إلى قوة مشاعرها، حاجتها إلى القبول، وتوقها لأن تكون محل اهتمام.

ولكي تنقل لي ما لحضورها من قوة تأثير عليهم، شدّت أصابعها كمخلب، ثم جعلت تحرك يدها بحدة مقابل وجهها، إلى الأمام والخلف، دالة كم بلغ هوسهم/ جنونهم/ بها.

ثم أخبرتني بحبها الكبير الذي خسرته.

((حبي الكبير كان شاباً صحيح السمع. أغرمت به وبادلني العشق بدوره)).

أخذت تصف أدونيس[1] كوني آيلند ذاك، الذي أودع في ضباب الذاكرة، وأعاد ذهنها بعثه في ذلك النهار بزهو وكأنه بانتظارها لا يزال، عند الخليج رقم 6، دامغة كلماتها عنه بحب وبتفاصيل كثيرة. كان جلده أسمر ذهبياً، قالت، لتعرضه المتكرر لأشعة الشمس، مرفقاً بمعالجته المستمرة لبشرته بمزيج معد خصيصاً لهذه الغاية، من دهن الدجاج، زيت الزيتون الأولي، واليود. «كلما صوبت نظري عليه» أشارت، بعينين حالمتين، «توهج جلده، وغُمر جسده بضوء ذهبي».

يبدو أنه كان يمارس رفع الأثقال، ذلك لأن جسمه، كما قالت، كان مملوءاً بالعضلات، حتى تلك الأماكن التي لم تتخيل أن يكون للصبيان عضلات فيها. عندما قالت ذلك، أقسِمُ أنها تورّدت خجلاً.

«كرهه أبي»، أشارت. «كان قد سمع عن هذا الشاب عبر جاره، الذي أسر له بأنه يقبلني ويلامسني تحت ممشى الشاطئ الخشبي. لم يكن ذلك صحيحاً. كان سيفعل لو سمحت له. كنت مغازِلة. مثيرة الرغبات. لكنني كنت أيضاً فتاة صالحة». ابتسمتْ، مستعيدة في ذهنها بلا شك، صورة الفتاة الجميلة، المفعمة بالحياة، النقية التي كانت عليها منذ صيفيات خلت. ثم تجهَّم وجهها.

«بعد أن عدت إلى المنزل في الأحد الأيام، قادمة من الشاطئ، استقبلني أبي بصفعة على وجهي. صعقت. لم يضربني يوماً. أبي، ماكس، هو غجريّ كما تعلم. عاشت عائلته في الغابة في وطنه الأم، كما أخبرتني أمي. (عاشوا كحيوانات). قالت. ولا أعتقد أن أمي أحبته».

«ومع أنه كان حراً باستخدام يديه للتواصل مع أخويّ، إلا أنه دللني بالمقابل. لم نملك المال، ولم يحظ بعمل ثابت، لكنه لم يوفر فلساً لابتياع هدايا لي. أعتقد أنه بقي طيلة حياته حزيناً لصممي. لم يستطع معرفة السبب، لكنه لام نفسه.

(1) أدونيس: للدلالة على جماله الفائق، وربما استخدمها الكاتب غامزاً من قناته للتهكم.

أحسّ بالذنب».

«بعد أن تلقيت تلك الصفعة، خمّنت سبب غضبه. فالشاب الذي جننت به، عاطل عن العمل. لا حرفة لديه. وهو ليس مصاباً بالصمم. إذن، فالأمر كما في لعبة البايسبول: ثلاث ضربات تكفي لإخراجك من اللعبة».

«حظر أبي عليّ رؤيته مرة أخرى. وفي عطلة الأسبوع التالي، ذهب إلى الخليج السادس لمجابهة ذلك الفتى غير آبه بعضلاته. أخذ أبي يصرخ ويلوّح بذراعه في الهواء مهدداً، وما أن ضحك الفتى في وجهه ساخراً، حتى قام أبي القوي كثور، بلكمه».

«من يومها، لم يعرني ذلك الشاب أي اهتمام. بت محطمة الفؤاد، خصوصاً كلما رأيته يغازل فتاة أخرى صماء. لست متأكدة إن أغرمت به حقاً أم لا، لكن ما صبوت إليه، أدركت ذلك لاحقاً، كان اهتمامه بي. اهتمام أولاه شخص يتمتع بحاسة السمع نحوي، ولم يظهرها أي شخص آخر».

ذُهلت لهذه القصة. كل درايتي بالجدّ ماكس بدت لا شيء. فكرة كونه غجرياً سحرتني. الغجر الوحيدون الذي تعرفت بهم، كانوا في فيلم *الرجل الذئب*. كانوا قوماً غريبي الأطوار، شريري الهيئة، يطوفون في الغابة بعربات تجرها الجياد. أما فكرة أمي الفتاة اليافعة المغرمة بأحد ما غير أبي، فكانت غير قابلة للتصور.

واصلت أمي سرد حكايتها. «ثم عمّم أبي خبراً على مجتمع الصم في نيويورك: *جدوا رجلاً أصماً لابنتي الصماء. يعنيني فقط كونه ذا حرفة. لديه عمل. ليس متبطلاً*. أضاف، *ستكون البطاقة النقابية إضافة ممتازة*».

لم يسعني إلا أن أفكر باستغراب فيما سأكونه لو تزوجتْ أمي من رجل صحيح السمع. أي حياة، فكرت، سأعيشها في منزل يتقاسمه مناصفة والد ناطق ووالدة صموتة؟ استعصت هذه الصورة المتخيَّلة عليّ، وغدوت مسروراً

لضرب جدي، الغجري ماكس، ذلك الفتى الذهبي البشرة منذ عدة أعوام. كما أنني أحب والدي، ولم يبد معقولاً بالنسبة لي ولو للحظة أن أحظى بأب سواه.

«هكذا التقيت لو. لم أحبه في البدء، بمقدار ما ظننت أنني أحب ذلك الفتى. إلا أنني لم أعرف شيئاً عن الحب عندما كنت مجرد فتاة. ولحظة وَضَعَتْك المرضة بين ذراعيّ فور ولادتك، أيقنت أنني فعلت الصواب».

اقتربت من الطاولة، قبلتني، وأشارت: «كُل!».

تذكارات: ما تحمله الأسماء

في شارعنا، كان اسم التحبب لبول أبروزي: بولي، فرانك عرف بفرانكي، توماس: تومي، جون: جوني، رونالد: روني، وزميلي هارولد فكان يدعى هشي. كنت الطفل الوحيد المدعو مايرون في الحيِّ السكني، ولا يمكن اشتقاق اسم تحبب منه. لكن ذلك لم يقف حائلاً أمام الأصدقاء الذين أسموني: مايك- ومن ثم، بالطبع، مايكي.

كان ليروعها، إن تجنبنا أن نقول ليصدمها، اكتشاف أمي بأنني تنازلت عما اعتبرته، لأذنيها الصماوين، اسماً موسيقياً- جميلاً اختير ليكون: *مايرون*.

إلا أن الآباء الصم ابتكروا أسماء تحبُّب لأطفالهم. وهم فعلوا ذلك تجنباً للضجر وضياع الوقت، اللذين قد ينجمان عن تهجئة كل حرف في اسم الابن كلما أراد أهله التحدث إليه أو جذب انتباهه. لذلك، وهبوا أطفالهم اسماء موجزة وفي متناول الإشارة. وقد عرفت أسماء التحبب تلك بالأسماء- الإشارات.

لكن ليس من السهل اختيار الاسم- الإشارة، إذ يتحتم بقاؤه اسماً مستعملاً لمخاطبة الابن لبقية طفولته- وغالباً، لبقية حياته.

أحبت والدتي اسم مايرون حباً جماً، حتى إنها عمدت إلى تجسيده بالإشارة. أولى محاولاتها كانت ابتكار إشارة باستخدام حرفين اسمي وشهرتي الأولين، «أم» (M) و«يو» (U). حسبتْ أمي على الفور أن ضمهما سيبدو شبيهاً بخوار البقر- مووو. وذات يوم، نظرت إلي وجعلت ليديها شكلاً تقريبياً لقرني بقرة، طاوية الأصابع الوسطية لكل يد باتجاه راحة اليد إلى الداخل، بارزة الإبهام والخنصر. هذه *القرون*، وضعتها على رأسها، بالإبهامين وقد لامسا صدغها، ملتويين إلى الأمام فيما صوتها الأصم يقول **موو**. «م.ا.ي.ر.و.ن»

تهجأت أصابعها. «هل أعجبك الاسم؟».

لم يعجبنِ!

في صباح أحد الأيام، وفيما كنت أهم بالنزول للعب، اعترضتني أمي لتشير «انتظر! عندي لك اسم جديد». يعتقد الصم أن الاسم المثالي عليه أن يعبّر بإيماءة واحدة عن جوهر أبنائهم. الاسم- الإشارة الذي اختير لي هذه المرة، بدا لها فارغاً من أي تفكير. كانت واثقة من أنها قبضت على طبيعة ابنها المحبوب- الصبي الذي يعربش براحة تامة على أي حائط أو فرع شجرة. حدّقت في عيني، وأخذت تحك أطراف جسمها بصورة متكررة- الأمر الذي عنى، طبعاً، إشارة القرد.

ودون حاجة للشرح، رفضت هذا الاسم- الإشارة أيضاً. فأنا لا أريد أن تظهر أمي فجأة أثناء لعبي مع الأصدقاء في الشارع، وتناديني بالإشارة التي تدل على قرد.

عجزتْ أمي عن إيجاد اسم- إشارة أقبل به، فعادت إلى أول الأسماء التي خاطبتني بها حينما كنت طفلاً- مههههاارنن.

طوال حياتي، لم أبدِ اهتماماً باسمي. فضلت دوماً مناداتي بمايك. زوجتي الحالية، زوجتاي السابقتان، أولادي الثلاثة، أحفادي، شركائي في العمل، زملائي، أصدقائي، وحتى في المصرف، الجميع ينادونني مايك. في الواقع عندما تركت منزلي الأصم الصموت، انتهيت كمايرون لجميع الناس باستثناء والديَّ. وذات يوم، وبينما أتحدث إلى والدتي- وقد شارفت عامها التاسع والثمانين، ولم يعد بمقدورها الاعتناء بنفسها- استجمعت شجاعتي لأسألها سبب تسميتي مايرون.

أمي الصماء، التي لم تعرف أذناها الصوت، أجابت دون تردد للحظة: «لأنه يبدو جميلاً جداً».

يوم تسلمت أول نسخة من كتابي الأول للأطفال، قبل نشره، توجهت على الفور لأريه إلى أمي. احتضنته بحب كأنه كائن حي لا مجرد كتاب، ثم خطّت إسمي بإصبعها، فيما تكشَّف ثغرها عن ابتسامة واسعة. «رائع»، أشارت. وقالت: «مههمهاااارننن».

فضلت منذ تلك اللحظة أن أُسَمّى مايرون.

-11-
صوت الألوان

في تلك الأيام الرائعة بالنسبة إلى التحصيل العلمي العام، وقبل وقت طويل من إلحاق الأطفال الصارم رسمياً باختبارات وطنية بأمر من الحكومة التي اعترفت لنفسها ببعض المساءلة، وفرت مدارس بروكلين الرسمية حصصاً روتينية في الفن والأشغال اليدوية. وأنا، باعتباري طفلاً لم يتحل بأي موهبة في الفنون، صرت أحضر إلى المنزل كل أسبوع، ورقة رسم مجعدة، ومغطاة بخربشات عويصة، تتخللها لطخات عرضية من اللون. لكنني، كسائر رفاقي في الصف، كنت أتلقف ثناء المعلمة، وأُمتدَحُ بسخاء من والديَّ، كرمى لـ«عملي الفني».

أطلعت أبي مرة على رسم كنت أتممته في الصف، شارحاً- بما أن الشرح كان ضرورة لا غنى عنها- أنني أصوِّر جسر بروكلين.

«وهنا طيور النورس». أشرت بإصبعي إلى كتلة من الخطوط السوداء المتشابكة. كنت فخوراً.

«أجل» نطقتْ يداه بتردد. «أظن أنني أراها».

فوق هذا الخراب الرهيب، كنت قد تركت جسماً مستديراً ملوناً بالأحمر. شديد الحمرة. كانت البقعة الوحيدة المكونة بلون واحد على الصفحة أكملها، بحساسية فنية متشنجة إلى حد بعيد.

«هذه هي الشمس»، أشرت بخيال مبالغ فيه. «عنونت هذا الرسم (الصباح في بروكلين)».

حدق أبي مذهولاً بالدائرة الحمراء. «حمراء»، قال لي، «إنه لون الغضب. لهذا اللون صوت مرتفع. صوت مرتفع جداً. مرتفع جداً حتى يكاد يؤذي

أذنيَّ».

كما ذكرت سابقاً، فقد اعتقد أبي أن كل لون له صوت ما. بدا ذلك مستهجناً، ذلك أن أبي أصم ولا قدرة له على سماع الأصوات.

«لماذا تعتقد ذلك؟»، سألته ذات مرة.

«في المدرسة رأيت رسماً لرجل يضع كفيه على أذنيه. في تلك الصورة المزعجة، كان الرجل يصرخ. السماء فوقه غاضبة اصطبغت باللون الأحمر. لم أنس ما حييت هذه اللوحة».

«الأزرق لون هادئ منعش»، قالها نافخاً وجهه، «مثلما للماء وعصير الفواكه صوت رطب».

كنت عاجزاً تماماً عن تخيل ما عناه والدي بقوله. رطب؟ كيف يبدو الصوت الرطب على أي حال؟

كان ذلك اليوم شاقاً فلم تتح له الفرصة ليسألني عما تبدو عليه أصوات الألوان.

«ما صوت اللون الأسود؟»، سألني ذات صيف بينما نتمشى على جادة سورف في كوني آيلند. كان منتصف شهر أغسطس، وكنا نسير نحو الشاطئ. احتشدت في السماء فوقنا غيوم عاصفة رمادية اللون، أوشكت على الارتطام ببعضها بعضاً. وكلما اندمجت غيمتان، تحولت المساحة المشتركة بينهما إلى اللون الأسود. وكلما تكدست غيمة سوداء هائلة الحجم فوق الأخرى، أظلم اللون الأسود أكثر فأكثر. نسيم بارد مثقل بالملح مشط جادة سورف فجأة من جهة ناثان، محملاً بروائح الصلصة والخردل، الكنيش[1]، وزبدة الذرة الحارة، ومسحة رقيقة من الفوشار.

(1) الكنيش: طعام شاع في ألمانيا وأوروبا الشرقية، يتناوله اليهود خاصة، ويتألف من عجينة محشوة، تطبخ أو تشوى.

أضحى نهارنا ليلاً، وتكفل البرق وحده بكسر الظلام، تلاه قصف الرعد. تحطمت كتل الغيوم، وما لبثت أن تشققت، وسكبت الأمطار المدرارة من السماء، محولة الإسفلت الساخن، إلى أنهار من الركام، مبتَلَعة داخل مصارف المياه، قبل أن تتكثف في مويجات تزحف عبر جادة سورف. توقف الجميع عن التنزه، وأخذوا يركضون في الشوارع بحثاً عما يقيهم شر البلل، فالمطر انهمر غزيراً تسوقه بالرياح. حاولت جرّ أبي من يده لكنه لم يحرك ساكناً، ظل ينظر إلى أشد السماوات التي رأيتها في حياتي حلكة.

«كيف يبدو صوت اللون الأسود؟»، سألني مجدداً.

الرعد المدوي كان قادراً على إحداث ضرر بالغ بأذنيَّ. فقد أخذ يقرع فوق رأسي.

«يبدو شبيهاً بصوت الرعد»، أشرت، مكرراً ضرب قبضتي ببعضهما.

«لست أفهم ما تعنيه»، أشار، وقد طفت خيبة الأمل على وجهه، «وكيف يبدو صوت الرعد؟».

بعد أن أسقط بيدي وقد بتّ منقوعاً بالماء وأخذت أرتجف، أشرت: «إنه كالمطرقة»، رافعاً قبضتي ومخفضها، وكأنما أعالج قبضتي الأخرى بمطرقة غير مرئية.

فكر أبي بهذه الصورة، استرخت ملامح وجهه دالة على استيعابه. «أجل، كما المطرقة. المطرقة الصلبة كيديَّ».

ضم يدي إلى يده راضياً بتشبيهي الأخير، لنركض نحو أقرب سقيفة. الأشجار الهزيلة على الرصيف، خضعت منحنية للريح. وتعرّت أغصانها من الأوراق التي تبعثرت مدوّمة في كل اتجاه.

«أشعر بالرياح تلامس وجهي. أخبرني، كيف يبدو صوت الرياح؟»، سألني.

كنت أحاول جاهداً استدراك إجابة عن سؤاله هذا، عندما هدرت السماء فوق المحيط بانفجار الغيوم السوداء. أخذ دولاب مدينة الملاهي يدور في الهواء، وبدأت عرباته البيضاء الفارغة تتأرجح فوق ممر الشاطئ الخشبي، عاكسة أشعة الشمس الذهبية.

«لا عليك»، أشار أبي. «سنصل إلى الشاطئ وسنحظى بمكان ممتاز دون الآخرين». لازمت أمي المنزل ذلك اليوم لإصابتها بزكام، فاضطر أخي للبقاء بجانبها. «أرسل تحياتي إلى الصم»، طلبت مني ما إن دلفنا خارج الباب ذلك الصباح. «وبلغ سلامي إلى بن»، أضافت متوجهة لأبي، بيدين ضاحكتين.

لم نكن أول الواصلين إلى بقعة الشاطئ الصغيرة، التي طالب الصم بأن تخصص من أجلهم، منذ فترة بعيدة، مكاناً يجتمعون فيه. ثلاثة أزواج من برونكس، وزوج من كوينز، كانوا هناك قبلنا. فالحال هذه لا تتغير، إذ إن هؤلاء لم يقبلوا يوماً بأن تتدنى مرتبتهم بالجلوس في الجانب الأكثر دفئاً من الحلقة الدائرية، المتاخمة للممر الخشبي، والتي سيعاد تشكيلها من جديد كلما وفد مستجم آخر. قمنا بإضافة كرسي البحر خاصتنا إلى الحلقة، التي تمدّد محورها على الفور واتسع لاستضافتنا.

تدفق الصمّ طيلة فترة الصباح من كل مناطق نيويورك الخمس. كل إضافة للمجموعة، استدعت تعليق الحوارات في الهواء لرفع الكراسي وإعادة تعديلها، قبل أن تستأنف الأيدي تحليقها الجوي، بإيماءات جنونية متبادلة.

كنت مفتوناً بالتنوع الكبير للغة البادية للعيان، بالأساليب العديدة التي عكست كل منها شخصية مختلفة، وانتماء جغرافياً مغايراً، كما الاختلافات بين الجنسين. نزوع الرجال إلى إشارات أكثر عزماً وتوكيداً مقارنة بالنساء. وأولئك ذوو الشخصيات المقدامة، أومأوا بإشارات واسعة، في حين انقبضت وتقلصت إشارات جلسائهم ممن اتسموا بشخصيات خجولة، لتصبح أكثر

حذراً. بدا بعضهم شديد التحفظ، فرسموا في الهواء أكثر الإيماءات تردداً، في سلسلة صغيرة من الإشارات المكتومة الواهنة. آخرون نطقوا بإشارات عاصفة، متخلّين عنها في الهواء، واومأ بعضهم باحتشام. أناس أشاروا بعنف، وآخرون برقة. كانت هناك أيضاً إشارات مبالغ بها بشكل كوميدي، وأخرى أكثر انضباطاً واستنطاقاً للفكر.. الثنائي اللذان انتقلا إلى برونكس من جورجيا، تكلما بلهجة إيماءات لم أفهمها. بحسب أبي، فإنهما يومئان بتشدُّق، وذلك صحيح، فإشاراتهما تدفقت من أيديهما كشراب مركّز، غليظة وبطيئة.

وبصورة غريبة، فإن سيدة صماء أصيبت قبل سنوات بسكتة دماغية، كانت تتلعثم كلما نطقت بالإشارة. كأنما الإشارات ملتصقة بيديها. لذلك، كانت تهز يديها لإجبار الإشارات على الفرار ومغادرة أصابعها، علّها تُفهم.

إشارات رجل ما بدت عرجاء، ساذجة وطفولية. رصدني أبي وأنا أحدق والحيرة على وجهي، ثم أخذ يشرح.

«عندما كان صبياً، عاش في مزرعة. نما كطفل أصم هناك. كانت لديه عائلة كبيرة من السُمع، لكن من دون درايتهم بأي إشارة. أراد أبوه صبياً يعينه في شؤون المزرعة. فلم يدخل مدرسة الصم قبل بلوغه أربعة عشر عاماً. هناك، تعلم النطق بالإشارة، لكن بعد فوات الأوان. هو ليس إلا صبياً صغيراً أصماً كما يصور له ذهنه. يتكلم طيلة الوقت كطفل. بسيط. لن تتحسن حاله. أمر محزن».

إشارات أبي مالت لأن تكون سريعة، بَرِمة نافدة الصبر، مُلِحّة على الظهور بصورة من يعيش في مدينة كبيرة.

بعد سنوت طويلة، عادت بي الذاكرة إلى ذلك المنظر الشامل لصور الكلمات التي طليت في الهواء فوق رمل كوني آيلند، لأرى أنها كانت من

التعقيد والغزارة اللونية، بحيث قاربت في الشكل سقف كنيسة سيستين[1].

«أين سالي؟» أشارت يدان (سالي هو الاسم المحبب لأمي وقد عرفت به منذ سني مراهقتها في مدرسة لكسينغتون للصم) تلك يدا بن المقيم في كوني آيلند. كان واحداً من رفاقها الصبيان الكثر في شبابها.

«إنها في المنزل. زوجتي، سارة، مصابة بالزكام»، أجاب والدي، متلفظاً بعناية اسم سارة، مشدداً على كلمة زوجتي.

كره أبي بن، ولم يفلح في تعديل اهتمام أمي به منذ زمن بعيد.

«هو قطعاً شخص وسيم»، شاهدته مرة يتحدث إلى مورت، صديقه الذي تعرف إليه في مدرسة فانوود للصم، حينما كانا طفلين.

«والأكيد أن شعره لم يتساقط ولم يخسره، لكنني أراهن على أنه مصبوغ. كما أنه يخون زوجته ماري»، أضاف. كانت يداه تهمسان بإشارات حذرة بحيث لا يتاح لأحد ملاحظتها.

«آه، لو، دعك منه، هلا فعلت؟»، أشار مورت. «كان ذلك منذ خمس عشرة سنة خلت. من يأبه؟ أنت عضو في نقابة العمال، أما هو فتافه!».

«سهل عليك قول هذا»، رد أبي.

« زوجتي، سارة، تسلِّم عليك»، توجه أبي إلى بن، بوجه متجهم يكذب دماثة التحية.

في تلك اللحظة، وصل أربعة أزواج صم يجرون وراءهم بجهد كراسي للشاطئ ومظلات وسلال تنزه، فيما تشبّثوا بأطفالهم خشية أن يفقدوا حياتهم العزيزة في هذه الفوضى.

أعيد تشكيل الحلقة لتستوعب القادمين الجدد. غرست الكراسي في الرمل، إلى الأسفل وارتفعت الأيدي إلى الأعلى مرفرفة على نحو جامح، كأجنحة

(1) تمتاز بسقفها القيم الذي تركت ريشة مايكل أنجلو عليه العديد من التصاوير الدينية.



إروين وأنا برفقة والدنا على شاطئ كوني آيلند

سرب أوز محلق بفزع إثر إطلاق بندقية النار صوبه. لم يروا بعضهم بعضاً منذ نهاية الأسبوع الفائت، وهناك أخبار كثيرة ليتجاذبوا اطرافها.

جلسنا نحن الأطفال على مناشف البحر في وسط الحلقة المتمددة، كحيوانات داخل قفص بشري مكوَّن من آبائنا، وكراسي البحر، وشمسيات الشاطئ، فشكل ذلك وقاية عازلة ضد احتمال أن نُفقد. فهي تجربة مرعبة بالنسبة لأي طفل يُفقد في كوني آيلند يوم الأحد من شهر أغسطس، لكنها أشد قتامة بالنسبة لطفل ذي أبوين أصمين. عندما يُفقد الطفل (وهو خطر قائم في أي لحظة، بما أن الشاطئ دوماً مزدحم)، يقترب شخص بالغ منه ويبادره بالكلام، متعاطفاً لرؤيته يبكي من صميم قلبه، ثم يصطحبه إلى أقرب عامل إنقاذ. أقول «يصطحبه» لأن الفتيات نادراً ما كن يتجولن ويُفقدن تلك الأيام. في نقطة عامل الإنقاذ، يُسأل الطفل عن اسمه. متسلحاً بهذه المعلومة

الأساسية، يعلق عامل الإنقاذ الطفل على «درابزين» مجثمه المرتفع، ولا يكف أثناء ذلك، عن النفخ في صافرته مصدراً سلسلة صياحات تفلق الآذان. أما في مثل حالتنا بالطبع، فلا نفع للصافرة، بما أن الصوت سيهبط على آذان صماء. كان رجاؤنا فقط أن يلاحظ أهلنا أخيراً فقدان أحدنا، فربما، ربما فقط، يكفون عن التحدث لأصدقائهم لمدة ويهرعون لإيجادنا.

عند العصر، ومع وصول آخر الوافدين، بعد سفرهم بالمركب وقطار الأنفاق آتين من ستايتن آيلند، تنتهي الحلقة بمائة من كراسي الشاطئ في دائرة تامة. على كل كرسي، يجلس رجل أصم أو امرأة صماء. كل جليس يتحدث بالإشارة بانفعال بالغ إلى جليس آخر، وأحياناً يكون الجليس بعيداً عنه، بعيداً جداً في الدائرة.

القليل من الأسرار كانت تكتنف مجتمع كوني آيلند للصم.

«ماذا يشبه صوت الموج؟»، سألني أبي عن اللون الأزرق. «أراها تتحطم على الشاطئ. لابدّ من أن لها صوتاً».

لكنني منهمك في بناء قلعة رملية. فالجدران السميكة الرملية رُطِّبت بالماء وقُوِّيت. أبراج ثلاثة بإفريز ناتئ من الطين وقفت عالياً رائعة المظهر، مزخرفة بأسوار ذات فتحات، ونوافذ مجوفة. جسر يعبر من فوق خندق. وتراني بعد ذلك مأخوذاً بنحت جنود رمليين ضئيلي الحجم لحراسة المكان بأسره. لم يكن عندي وقت لإخبار والدي كيف يبدو صوت الموج. تظاهرت بأنني لم أر يديه.

هزني، لكن ليس بلطف. «كيف يبدو صوت الموج؟»، كرر.

لا فائدة ترجى. نبدأ مجدداً. «صاخباً»، أجبته دون أن أفكر. «لابد من أنه صاخب» أشار بصبر، «لكن ثمة أشياء كثيرة صاخبة. أشعر بالصخب من خلال باطن قدمي. كل شيء صاخب، لا بدّ من أنه متمايز بطريقة صخبه».

حشرني في الزاوية.

«حسناً»، نظرت ساهماً فيما أشير بيدي، رافعاً كتفي دلالة على أنني أعمل فكري حقاً، فقد شكّلت ملامحي بما يفيد أنني غير متأكد تماماً من إجابتي، وأن باستطاعتي تقديم أفضل من ذلك.

«صوتها يكون *رطباً* ما إن تتحطم فوق الرمال».

ما إن تفوهت بهذا، حتى أيقنت على الفور أن أبي لن يعفني من سؤاله ماهية الصوت *الرطب*. لامست أصابعي شفتيَّ، اللتين فُتحتا وأُقفلتا مقابل إبهاميَّ في إشارة على *الرطوبة*، وعلى الفور عاجلني طالباً «أي نوع من الرطوبة؟ أهي رطبة كالنهر؟ كالمطر الخفيف؟ أم كالدمع الحزين؟».

أُربِكت. «رطبة كالموج!» كل ما استطعت فعله بداية. غير أنني استتبعت بنطقي لإشارات: «الأمواج لها صوت كصوت مليارات قطرات الماء الصغيرة المنفصلة عن بعضها بعضاً حين يصفعها الرمل القاسي، أصواتها الصغيرة تتجمع لتؤلف صوتاً وأحداً هائلاً. صوت رطوبة المحيط»، أضفت يائساً.

طوقني أبي بذراعيه، وحملني. جلس على ركبتيه ونطق بإشارة «هذا أفضل. إنني أفهم الآن».

ثم ما لبث أن هز مورت أبي من كتفيه. «لو! لو! انظر! ها هي سالي أتت».

بثقة، دخلت أمي حلقة الصم الدائرية، ممسكة بيد أخي إروين. كانت ترتدي ثوب سباحة أزرق من قطعتين، ذات نسيج صوفي. كما وضعت غطاء للرأس مطاطياً أبيض اللون، تخللته أزهار صفراء بالغة الصغر، حاجبة شعرها الأسود المتراص المقصوص. كانت في كل صيف، تقص شعرها بهذه الطريقة. تبدو جميلة. لكنها ما كادت تجلس على كرسي الشاطئ، حتى أصبح بن في مرمى نظرها، ناطقاً إشارات متحمسة كطاحونة هواء في قلب عاصفة.

أقسم أنني رأيت أبي يتمتم لنفسه بإشارات: «سأقتل هذا الرجل».

حيَّت والدتي بن بإشارة، ثم أمسكت بيديه وثبتتهما على جانبيه، غامزة من قناته بأن يصمت، واستدارت نحو أبي مطلقة ابتسامة امتدت وسع شفتيها.

لو كان أبي فطيرة إسكيمو[1]، لذاب من دفء تلك الإبتسامة.

(1) فطيرة الإسكيمو: تحلية من الآيس كريم المكسوة بطبقة من الشوكولا. اختُرعت مصادفة عندما حار صبي بين أن ينفق مصروفه على الآيس كريم أو الشوكولا.

-12-
المثلث وكلب الشيواوا

في تلك الأيام الغابرة، لم يكن أطفال مدارس بروكلين ملزمين بمواد أكاديمية نظرية وأخرى عملية فحسب. فبالإضافة إلى مادة الفنون، أجبرنا على تلقي دروس موسيقية والتمرن عليها. أما أنا المتناغم ظاهرياً مع الصمم، فقد وجدتني في هذا المضمار بلا أي كفاءة مطلوبة.

في أول درس موسيقى لي، جعلتنا المعلمة ننشد «بارك الرب أمريكا» وهي تنقر على أصابع البيانو المخلخلة بعض الشيء. ومع هبوط أشعة الشمس الباكرة متدفقة عبر النوافذ الوسخة لغرفة الموسيقى، انحرفت سبيكة مُغْبَرّة من الضوء الذهبي منيرة أفواهنا التي جهدت لتلفظ الكلمات. ولحظي العاثر، كان السواد الأعظم من تلك السبائك الضوئية يسقط فوق شفتي، اللتين لم تنبسا بكلمة طيلة الوقت الذي استغرقته الأنشودة. إخفاقي هذا في المشاركة، لم يكن لينأى بعيداً عن العين.

«مايرون»، تسأل المعلمة «أأكلت القطة لسانك؟».

«لا، يا سيدتي»، أفلح في إخراج هذه الكلمات من فمي.

«فلنبدأ من جديد»، تقول للصف، «وهكذا يستطيع مايرون الانضمام إلينا».

حاولتُ. حقاً فعلت. إلا أن البيانو كان يُجبَر على التوقف وتتوقف معه مسيرتي في الإنشاد داخل المدرسة العامة.

«مايرون»، تقول المعلمة بلطف بالغ «من الآن فصاعداً ستكون مسؤولاً عن أكثر العناصر أهمية لبلوغ كورسنا الغنائي نجاحه التام».

ومع هذه الكلمات، وضعت في يدي قطعة معدنية مثلثة الأضلع.

«ما هذه؟»، سألتُ. «تبدو كمثلث».

«*تماماً*» أجابت بنبرة تعجب. «يا لمبلغ ذكائك لتدرك هذا بسرعة».

لم أقم بغناء نوتة واحدة برفقة الكورس منذ تلك اللحظة. فقد خصص لي مكان في مؤخرة الفرقة، أحمل فيه المثلث بوساطة سلك أمسك به بيد، في حين أقرعه بنعومة وظرف، كما يحلو لي، بقضيب معدني نحيف تحركه اليد الأخرى. الطنين الطفيف والمتقطع غرق في لجة الأصوات الغليظة لزملائي في الصف.

«تمرن»، قالت المعلمة بنبرة إرشادية بعد أن قدمتني إلى الفرقة مع المثلث. «التمرن يجعلك ممتازاً»، أضافت، ثم أرسلتني إلى المنزل مع المثلث مكتفية بهذا الكلام. *ماذا سأفعل به؟* تساءلتُ. *لأتمرن*. خمّناً.

تسلقت سلالم الطوابق الثلاثة باعتزاز، بعد ظهر ذلك اليوم، قابضاً على المثلث، فيما العصا الفولاذية السحرية مستقرة في جيبي للأمان. حييت أمي وأخي اللذين استقبلاني على الباب، ولوحت بالمثلث واثقاً من نفسي بشدة.

«أنا موسيقار»، أشرت لأمي، متلفظاً بها في الوقت ذاته لأخي. «قالت لي المعلمة إنني أكثر أعضاء الكورس أهمية».

«هذا جميل»، أمي، ابنة أزمة الكساد الكبير، ردت علي. «اجلس. تبدو جائعاً. سأحضّر لكما بعض الماتزو براي».

«لكن عليّ التمرّن. المعلمة قالت هذا».

«كل أولاً– ستحصل على بعض الطاقة لتتمرن»، أشارت بشكل قاطع، وقد ابتعدت يداها عن قفصها الصدري مسافة مشكّلة قبضتين.

كان لأمي نظرية حول الحياة مفادها أن أي مشكلة ممكن حلها، أما التغلب عليها، فلا يتطلب أكثر من معدة مملوءة.

وصل أبي المنزل كعادته، ذلك المساء، متأبطاً صحيفة.

«هناك الكثير مما يستحق الكلام عنه»، قالها لي ولإروين بشكل دراماتيكي. «الأخبار اليوم جد مثيرة».

بعد كل عشاء، وبينما تنشغل أمي بترتيب الصحون، يجلس أبي، إروين وأنا إلى الطاولة، ثم يبدأ بإشاراته قراءة العناوين الرئيسة لصحيفة اليوم. ويسهب في شرح أهمية كل عنوان. غالباً ما تكون الأخبار حول أحداث أوروبا وإنجلترا وحول رجلين مضحكين، أحدهما سمين قصير القامة له حنك بارز، والآخر ذو قصة شعر سيئة وبقعة من شارب فوق شفته العليا. كان لأبي القدرة على تقليد هتلر وتشارلي شابلن كذلك. ورغم أخبار أوروبا السيئة، غير أن أبي كان قادراً على بعث الضحك فينا ما إن يبدأ بإيماء مشية موسوليني المتبختر وتحية هتلر السخيفة ووعيده السيطرة على العالم.

موسوليني وهتلر هما الشريران. فرانكلين روزفلت هو الرجل الطيّب، يليه ونستون تشرشل. أتذكر تفاصيل تلك الأيام بوضوح.

«لدي شيء مثير أخبرك عنه أيضاً»، اعترضتُ طريق إشاراته. «أصبحت العمود الفقري لكورس الصف»، أضفت ناطقاً بأصابعي، فلم يكن في معجمي إشارة تعني «عموداً فقرياً».

ركضت نحو غرفتي لأحضر المثلث.

«انظر»، أشرت، «هذا مثلث، والمعلمة تعتمد عليّ كي أتعلم كيفية استعماله. (تمرن)، قالت، (ستقود الكورال)».

«ولدي، الموسيقار»، قالها بإشارات تفيض جدية. «هل ترغب في أن يكون لديك شيواوا؟» نطق جملته هذه بدقة وحساسية شديدة. وقد أحسست بالدوار لمراقبة أصابعه تتلفظ بهذه الكلمة الطويلة المحشوة بالواو والألف المتكررة والموصولة ببعضها بعضاً. أما في منتصف الطريق بين الألف والواو المنطوقتين، فكان وجهه ينقلب إلى ابتسامة عريضة. كنت حذراً من حسه

الفكاهي الدائم، والمهيأ في أي لحظة كي يأسرني داخل واحدة من نكاته. لكن كان علي أن أبقى ثابتاً لأرى أين سيفضي كل هذا، كما كان يفعل جورج بيرنز بغرايسي[1] على المذياع.

«وما هو الشيواوا؟»، نطقتها بأصابعي مضيفاً عشرات أحرف الألف والواو الزائدة.

«إنه كلب»، أشار مربّتاً على ركبتيه، وعاضّاً أصابعه. في تلك اللحظة، كان واضحاً تماماً، يده المفتوحة تقلد مخالب تفرك أذنه اليمنى مرة بعد مرة. «كلب صغير جداً، بأذنين كبيرتين للغاية».

عيشنا في شقة صغيرة داخل بروكلين، لم يسمح بالخوض إلا نادراً، في نقاشات حول شراء كلب أياً يكن حجمه. لكن إشارات أبي أتاحت لي رؤية هذا الكلب بالغ الصغر، الفضولي، ذي الملامح التي تنم عن ذكاء. كانت إشارات أبي بليغة التعبير، حتى كدت أسمع نباحاً حاداً منبثقاً من تصوير الكلب الذي كونه أبي في الهواء.

«كزافييه كوجات»، تهجأ إصبعه الاسم، «القائد العظيم لفرقة الرومبا، يحمل كلب شيواوا في جيبه حين يقود فرقته. والآن لديك المثلث، وأظن أنه يجب عليك استعمال كلب في جيبك أيضاً».

ومع كلماته هذه، جذب أمي من مكانها أمام المجلى، بمريلتها وهيئتها كاملة، ثم بدآ الدوران في المطبخ، منزلقين بنعومة على مشمَّع أرضية اللينوليوم، على وقع الرومبا التي لم يسمعها أحد سواهما.

حانت أخيراً ليلة الحفل في المدرسة. المسرح مملوء بالناس. فلا أحد من آباء بروكلين كان ليفوّت فرصة سماع طفله العزيز، الموهوب بما لا يقاس، وهو

(1) جورج بيرنز (1896– 1996) وغرايسي آلن (1895– 1964): ممثلان وزوجان اشتهرا بتقديمهما برامج كوميدية للإذاعة والتلفزيون. وبعد وفاة الزوجة، أكمل جورج مسيرته بنشاط حتى قبيل عامه المائة. واشتهر بشكل حاجبيه وسيكاره.

يؤدي الغناء تلك الليلة.

أبي، أمي وأخي قدِموا باكراً بغية الحصول على أماكن أمامية. ورغم عدم استطاعتهما سماعي أقرع على المثلث، إلا أنهما أرادا أن يكونا من القرب، بحيث يتخيلان الأصوات الجميلة التي بكل تأكيد، أصدرها.

بعد أن لاحظتْ والديَّ يتحادثان بإشارات مضخَّمة، نقلتني المعلمة لأقف أمام الكورس، قريباً جداً من حافة خشبة المسرح.

السنوات الكثيرة تحول بيني وبين تذكُّري لتفاصيل تلك الأمسية. يبدو المشهد معتماً في ذاكرتي. أستعيد محاولاتي الغامضة العقيمة للقرع على المثلث تزامناً مع الموسيقى، فأراني لاهثاً خلف الإيقاع، متأخراً عنه ببضع ضربات.

لكن ذاكرتي كريستالية البريق عند الجزء المتلعق بسحنة الاعتزاز التي اكتست وجه أبي وأمي، المبتهجين في مقاعدهما– لا لشيء آخر وإنما– لموسيقاي. فبما أنهما أصمين كحجر، لم يسمعا أي صوت، إلا أنني بدوت بأسلوبي اليائس في الضرب على المثلث، أصماً بطريقتي الخاصة.

بعد الحفلة، لم تغادر ذهني صورة يديه وهو يرسم في الهواء شيواوا كزافييه كوجات، فكنت كمن يختلس النظر إلى جيب قائد الفرقة هذا، الواقف قبالة خطوات راقصي الرومبا. أبي هو الفنان الذي رسم تلك اللوحة، وهي بالإضافة إلى عشرات اللوحات الأخرى التي ابتكرها من أجلي، لا تزال إلى اليوم معلقة في صالة عرض ذهني. لوحته الأخيرة كانت من الوضوح، بحيث إنني أردت الاستحواذ على ذلك الكلب المرسوم بحيوية.

لا فرصة لنجاح حملتي بامتلاك كلب، دون دعم أمي. فكرت. فهي من سيعتني بالكلب، دون أفراد عائلتي، أثناء غيابي وأخي في المدرسة، وغياب أبي في العمل. كانت الحاجة إلى موافقتها ملحة، قبل الدنو من أبي.

خططت لحملتي جيداً وبتأن شديد، مستثمراً كل ما أعرفه عنها. أدركت،

لا يمكنني البدء معها دون ملء معدتي أولاً. فبعد تناولي الطعام، ويُفَضَّلُ أن يكون ذلك حتى التخمة، سأفاتحها بموضوع الكلب. عندئذ، أواصل الكلام من دون أن تقاطعني قائلة «اجلس. وكُل».

لكن فور شروعي بالحديث بهذا الشأن، لم تتردد لحظة في إطلاق قصة على نحو مفكك، مستعيدة فيها رغبتها كطفلة في تبنّي كلب.

دوافعنا كانت مختلفة تماماً.

«مساء كل يوم أحد، كان أبي يوصلني يقطار الأنفاق من منزلنا في كوني آيلند إلى المدرسة، مدرسة لكسينغتون للصم، على جادة لكسينغتون في المدينة».

«كنت أحضر كل حصص أيام الاسبوع وأنام في مهجع الطالبات. هناك تعلمنا النطق بالإشارة- من زميلاتنا الأكبر سناً، ثم من بعضنا بعضاً. تبادلنا الأحاديث بالإشارة طيلة الليل بما أن أساتذتنا صحيحي السمع حظروا علينا استخدام الإشارة خلال النهار. اووه، كنا شقيات جداً». هنا، استعملت إشارة سيئات، لكن الإيماءات التي رافقت ذلك، الشفتان مضغوطتان بكشرة خبيثة، والكتفان المرفوعتان بـ «الفتيات يبقين فتيات»، تهتزان، موضحة بذلك أنها لا تقصد سيئات حقاً، وإنما شقيات.

من الآن، ستكون براعتي في قراءة إشارات والدي، نضجت إلى حدّ أنني لن أعود أبذل جهداً لأفطن بلاغة لغتهم. الإشارة الواحدة قد تحمل عدة معان، ليس بحسب سياقها الكلامي فقط، بل وطريقة تبليغها أيضاً: شكل اليدين أثناء القيام بالإشارة، استعمال قواعد الوجه اللغوية، موضعة اليدين بالنسبة إلى الجسم ككل، وبالتأكيد استخدام الجسم بكامله. *سيئات* تحولت إلى *شقيات* في ذلك اليوم، لكن فقط بتطويع أمي للغة التعبير بالإشارة، كان يمكن أن تتحول إلى *شريرات*، *بذيئات*، أو *كريهات*، وذلك بالنظر إلى محتوى الكلام.

يدا والديَّ، جسماهما، وجهاهما، وإشارات كل منهما كان يعاد تشكيلها بغير جهد، لنقل مجلدات من المعلومات.

لطالما أثارت إعجابي، قدرة أمي في الإشارة، وأدركت أنها أكثر دفقاً، تعبيراً، وتوسعاً من أبي. افترضت ذلك لسبب دخول أمي مدرسة الصم في سنة مبكرة، دون والدي، وبالتالي لُقِّنتْ الإشارة قبله. ولهذا علاقة أساسية في حال تَتَبُّعِكَ خيوط اختلاف شخصيتهما. فأبي شخص عملي، مباشر، مفعم بالقوة، يبذل جهداً للتركيز– كذلك إشاراتي. أما أمي، من ناحية أخرى، فهي أكثر وجدانية، سابحة في الخيال، كقصَّاص موهوب بالفطرة. كنت أتوه في إشاراتها التصويرية، غزيرة الألوان.

«عندما تطفأ الأنوار» تابعت، «نذهب مباشرة إلى غرفة الحمام، التي لا تُحرَم من الإضاءة في أي وقت، نتحادث ونتحادث حتى لم نعد قادرين على



أمي وصديقاتها يتحادثن بالإشارة في مدرسة لكسينغتون للصم حوالي عام 1922

إبقاء عيوننا مفتوحة. كانت الإشارة كل حياتنا، أما قابليتنا للاتصال ببعضنا بعضاً، فقد عادلت في ضروريتها ضرورة الماء للحياة، كانت واحتنا التي غرفنا منها شكل اللغة ومغزاها، وسط الاتساع الرهيب لصحراء الصمت واللا فهم التي كانت عالم صحيحي السمع.

«كل ليلة جمعة، كان يأتي أبي لاصطحابي إلى المنزل، فنحزم أمرنا عائدين إلى بروكلين بقطار الأنفاق. كان علينا الانتقال عبر خطي قطارات للوصول إلى كوني آيلند، الواقعة في نهاية خط شاطئ البحر. كنت أشعر بأن وقت الرحلة طويل، فخلالها لا يتفوه أبي بشيء. لم يكن يتقن إشارة واحدة ينطق بها، عدا تلك التي ألّفها بنفسه لي في صغري. إشارات واهنة يصيبني تكرارها بالحرج أمام زميلاتي في المدرسة. كانت أشياء بدائية نيئة تفتقر إلى الكياسة والمعنى. أشعرَني استعمالها بأنني ساذجة، متخلفة، كنت أحرج حتى حين أتحادث بها مع أبي وأمي. كانت تلك لغة البُلَهاء. وأنا لم أكن بَلهاء».

تجمدت يداها في منتصف الجملة. معلّقة في الهواء أمام جسمها، بدتا ساهمتين في التفكير، في التذكُّر.

«أحببت والدتي. أحببت والدي. أحببت أختي الصغرى وإخوتي الأصغر سناً. لكن أحداً منهم لم يعرفني حقاً. لم يتعلموا لغتي. ظللنا غرباء عن بعضنا بعضاً لأعوام وأعوام. تمنيت أحياناً لو كنت مصابة بالعمى، وليس الصم. كنت سأسمع صوت أمي على الأقل. كنت سأطلعها على مخاوفي وأحلامي، وحبي لها».

لم تتكلم أمي معي بهذه الطريقة من قبل. بدأت أشعر بالأسى لسؤالها عن كلب. لم أفهم كيف أفضى طلبي لاستدراج كل هذه الذكريات، لكنني أحسست بالأنانية. كما تلمست في أعماقي شعوراً بالغضب. كنت غاضباً لكل ما عانته. أحسست بالعجز لأول مرة، كأن ما فصل بيني وبين ألمها، مرآة.

فأبي كان محارباً، مُعارِكاً وحشية الحياة اليومية التي شنها عالم السمع ضده. لكن أمي ذات نسيج مختلف، فقد ارتدت كساء التسليم بالأمر الواقع. كانت غير محصنة. ومع تصديَّ لكل هذه العواطف المتضاربة، أكملتُ سرد قصتها.

«عندما وصلت ووالدي إلى شقتنا في كوني آيلند مساء يوم جمعة، حيَّتني أمي على الباب بابتسامة مشدودة إلى شفيتها النحيلتين، طبعاً مع عناق وبريق حميم في عينيها».

«أخذتني من يدي على الفور نحو المطبخ، العابق برائحة البصل والثوم ودجاج السبت.

«كانت لغة أمي للحب: طبخها. بخيلة في عواطفها، وحتى في ابتساماتها، لكنها عبرت عن مشاعرها نحوي بآلاف الوجبات التي أعدتها لي وحدي، بل وظلت تطعمني بيدها حتى بعد بلوغي سناً أستطيع إطعام نفسي بنفسي».

إشاراتها جعلت لعابي يسيل ورقرقت عينيَّ بالدموع. كنت حزيناً وجائعاً في الوقت عينه لمشاهدة أجزاء تلك القصة تُفَضُّ بيديها المعبِّرتين.

«بعد العشاء، ذهبت إلى غرفتي، حيث أمضيت معظم وقتي خلال عطلة الأسبوع. حاولت والدتي دفعي لمغادرة الباب، بإشارات بدائية، مقترحة أن أهبط السلالم وأخرج للعب مع الأطفال الآخرين. لكنني لم أفعل ذلك. حين كنت طفلة، جربت أن ألعب مع الأطفال، كانوا فور رؤيتي يهربون، كل باتجاه مختلف، ليلتقوا في مكان آخر اتفقوا عليه مسبقاً، كزقاق، يتجمعون هناك، يقهقهون لنجاحهم في التملص مني».

توقفتْ عن تحريك يديها وابتسمت لي.

«كنت على وشك إخبارك قصة عن كلب ما، لا عن دجاجات»، ثم ضحكت.

«كنت طفلة وحيدة، دائماً وحيدة في المنزل. لا أتكلم مع أي فرد في

العائلة، ولا أحد منهم تعلم التخاطب معي. أردت اقتناء كلب يكون رفيقي. سألت والدي أن يبتاع لي كلباً هدية عيد مولدي القادم. وربما، ليتحرر من عقدة الذنب، وافق على الفور. لم يرفض لي طلباً، لكنه صَدَّ نفسه عني. لم أستطع النفاذ إلى دواخله، لأن لا لغة نتقاسمها».

«في إحدى صباحات السبت، كنت لا أزال نائمة، عندما شعرت بشيء من الفرو، حيوي، بلسان رطب ودافئ يمر على خدي. مستيقظة، رأيت قبالة وجهي صرة من الفرو البرتقالي اللون. كان جرواً. حملت كرة الفرو البرتقالية المرتبكة تلك على امتداد ذراعي، ثم ادرت وجهه باتجاهي، بينما كافح للتحرر. كان رائعاً، وكان لي».

«قلت شكراً.. شكراً.. شكراً.. لك أبي. لكن مثلما هي العادة، كلما تكلمت، تقلص وجهه وانغلق. لطالما جفل والدي بسبب صوتي، لذلك عرفت أنه بشع. لكنني ولمرة واحدة، لم أبال. فقد حظيت بكلب».

«أسميته تشابي. كان يتبعني أينما ذهبت، من غرفة إلى غرفة، صاعداً ونازلاً خلفي على سلالم بنايتنا، داخلاً السرير معي وخارجاً منه كذلك. أحبني وأحببته كما لم أحب شيئاً آخر في حياتي كلها».

«لكن هل كبر؟ بالطبع أيها الفتى. كبر. لاحقاً، وجدت أنه من فصيلة التشاو. تلك الفصيلة سريعة النمو، ووفرة الشعر البرتقالي عليها تجعلها تبدو أكبر وأكبر».

«تشابي كان كلباً قوياً، وأحَبَّ الثلج. في الشتاء، ترى فكيه ممسِكَين بياقة معطف أخي، فيسحبه على عقبيه فوق الثلج، أمام مبنانا السكني».

«كانت لدينا لغتنا المشتركة. تفاهمنا بشكل ممتاز. فكلما أعطيته أمراً، نفَّذه. صوتي لم يجفله، ولم يدفعه لأن يدير ظهره. وبمجرد أن أهمس اسمه، حتى يأتي إليّ ولو من غرفة أخرى، متحلقاً حولي في الممر. كما علمته الإشارة.

تشابي تعلم الإشارة، بعكس والديَّ وإخوتي وأختي الذين لم يبذلوا أي جهد لاكتسابها. بدأت أظن أن تشابي أذكى منهم جميعاً».

«باتت عطلاتي الأسبوعية تمر عبر لطخة من الفرو البرتقالي، فلم أكن لأشعر بفراغ لجزء من الثانية. كان من الصعب وداع تشابي كل اثنين، ما إن يهم أبي بمرافقتي إلى المدرسة. لكنه كان بالمقابل حاضراً، مترقباً عودتي مساء كل جمعة».

لا أتذكر يوماً بدت فيه أمي بهذا القدر من السعادة وهي تسترجع تفاصيل كلبها، صديق الطفولة، منذ البعيد.

«لكن في أحد الأيام، فقدت تشابي للأبد. كان يومها يقفز محاولاً الانقضاض على ابن الجيران، الذي لم يكف عن مضايقته وقتها. حاولت أن أسحبه، فعضني. لم يعرف أن ذلك الشخص أنا. تفاعل مع المسألة كأي كلب آخر– بدافع حماية نفسه غريزياً. الجرح الذي أحدثته العضة كان عميقاً، فنُقِلتُ بسرعة إلى مستشفى كوني آيلند، حيث عولجت يدي بالقطب لإقفال الجرح.

«بعد عودتي وأبي من المستشفى وجدت تشابي بانتظاري على الباب كعادته. بدا حزيناً. وسامحته».

«لم يمض أكثر من أسبوع على هذه الحادثة حتى رحل تشابي. عرفت لاحقاً أن أبي باعه لثلاّج بخمسة دولارات. لم أحصل على كلب مجدداً».

فجأة اضمحلت كل رغبة لدي باقتناء كلب. فلدي المئات من الاصدقاء، وأنا لست وحيداً. هناك الكثير لأفعله ولا مجال للاهتمام بكلب غبي عجوز.

«ماذا سنأكل اليوم؟»، سألت أمي. «أنا جائع».

فهذه الموسيقى، طبعاً، كانت لتجد سبيلها حتى لأذنيّ أمي.

ولم يَدُر أي حديث مجدداً بشأن كلب.

-13-
لغة والدي

هناك حائط في بيتنا تُعرض عليه مجموعة من صور العائلة القديمة. لكن ما من صورة بصرية تنافس في حدتها الصورة التي أحفظها لأبي في الذهن. أذكره بأنفه الصغير الضامر لدرجة مدهشة، بشعره الأسود الكثيف المفروق في منتصف الرأس تماماً بحدة موس حلاقة، وعينين كزوج من البرك المائية الداكنة المؤطرة بحاجبي استفهام، عبرهما كان يرى العالم الذي صارع فيه، وغالباً بنجاح محدود، ليفك «شيفرته». فمه صغير وفارغ. لا لغة فيه. شفتاه هزيلتان ضئيلتان. لا تلفظان كلمة. فلغة أبي في يديه.

يداه قويتان. لغته كذلك، قوية. لم يكن ليتوارى عن الأنظار برسمه لإشارات صغيرة في الهواء أمام المارة. إشاراته ماكرة، مهيبة، رعديدة، أو تبريرية. على شاشة الذاكرة، اللقطات المصورة تتحول إلى فيلم، أما الإشارات فتنقذف من يديه كعصافير برية محلقة للتو. وكما صَفْقُ أجنحة العصافير البرية تلك، لم يمكن ممكناً كذلك كبح يدي والدي. «انظر إليَّ أيها العالم»، تتلفظان. «أنا رجل أصم. لكنني فخور بنفسي. وليذهب صحيحو السمع إلى الجحيم، لا أكترث». حين يغضب، تغضب إشاراته. ويشي وجهه بالغضب. يبدأ الغضب بالتدفق عبر جسمه حتى لتشعر بحرارته. كان غضبه موجهاً بشكل خاص نحو عالم السمع. لزمه وقت ليتأقلم مع العدائية الجاهلة التي جيَّشها ضده أولئك صحيحو الحاسة، بشكل يومي- أدرك في النهاية، أنهم جهلاء بلغة الصم- إلا أن ما أثار حنقه هو عدم مبالاتهم به. تجاهلوا وجوده، وكأنه، كرجل أصم، لا صورة له ببساطة.

حين يكون سعيداً، تصبح إشاراته مرحة جذلة، تحلق بشكل جنونيّ. تنفرج

أساريره ويسترسل جسمه في النطق ببهجة.

فوق هذا كله، فإن عائلته الصغيرة لطالما جلبت له الهناء. ولكم احتضنتْنا إشاراته.

خلال جلوسنا إلى طاولة المطبخ في إحدى المساءات بُعيد العشاء، توجه إلى أخي وإليَّ بالقول: «أصحاء السمع يتجاذبون أطراف الحديث باستخدام أفواههم فقط. الكلمات تخرج متعثرة من الفم، الواحدة عقب الأخرى. تخرج كقطار من الكلمات. لا يتضح المعنى حتى تظهر من نفق الفم، الحافلةُ الأخيرة في القطار (المستعملة للعمال). إنها كلمات جافة، كحشرة ميتة. كلام الشفاه لوحة بلا ألوان. يمكن أن ترى الشكل، وأن تتلقف المغزى. لكنها عديمة النكهة، كصورة بالأبيض والأسود. لا حياة في صورة بالأبيض والأسود.

«لغتي لا تقوم فقط على اللونين الأبيض والأسود. لغة يدي ووجهي وجسمي مصورة بالألوان. عندما أحتد، تكون ملتهبة حمراء كالشمس. عندما أكون جذلاً، تزدان لغتي بلون أزرق كالبحر، وأخضر كالمروج، وأصفر كالأزهار اللطيفة».

«لغتي لغة الله. فهو وضع لغته في يدي ما دمت حياً على الأرض. في الجنة، لن أحتاج إلى لغة الإشارة. سأتحدث مباشرة معه».

لطالما تصرف أبي كتلميذ تواق لمعرفة أوجه الاختلاف بين لغة اللسان ولغة الإشارة. أما الآن فقد قرر أن ليشرح لنا الفرق ما بينهما.

«أنت تتكلم بفمك»، أشار: «قل طبل».

ثم راقب بعناية فمي وأنا أقول «طبل».

«قل رعد».

وضع راحة يده مقابل فتحة فمي ما إن هممت بقول «رعد».

«قل تحطَّم».

قلت، «تحطم».

«لا أرى صوتاً جهورياً صاخباً عندما تخرج هذه الأشياء من فمك مسموعة». أشار بيديه. «ولا أشعر بقوة الصوت المنبثق من فمك».

«أجل»، أجبته. «لأفسر بالكلمات صخب صوت الطبل، أو الرعد، أو التحطم، يجب عليّ استخدام مفردات أخرى، كلمات تصف الكلمة الأصلية. نعوت».

«أعرف بعض النعوت الناطقة». قالها بسخرية. «النعوت كلمات للزينة، كشرائط فضية لامعة على شجرة ميلاد خضراء. هي كلمات لا تشتمل على معناها الحقيقي. الشجرة الجميلة الخضراء في غنى تام عن أي بهرجة. شجرة كهذه هي أجمل بكثير في الأرض مما ستبدو عليه في غرفة الجلوس، مزينة بالبهرجة الفضية الجذابة، والأضواء، والكرات المتدلية على أطرافها. كلامك بالشفتين ركيك. يتطلب الأمر مزيداً من الكلمات لتفسير كلمة واحدة».

فكر لدقيقة ثم قال: «راقبني الآن وأنا اتكلم بيديَّ».

رسم بإشاراته طبلاً. حمل بكل يد عصا غير مرئية، ثم بدأ يضرب على الطبل المتخيل. بلطافة.

إروين وأنا بُهرنا بما يشبه التنويم المغناطيسي ليديه وهما تهبطان على الطبل. وقد أخذتا تتحركان الآن بتسارع، وبنشاط متزايد، حتى مثلت نصب عينيَّ أطراف العصوين الهابطتين على جلدة الطبل، وبدأت «أسمع» صوت يديه، فيما غاب إروين في ضحك طروب.

لكن وجهه بدا ساهماً فجأة في تركيز شديد، انحنى جذعه متأثراً بالضرب الذي احدثته يداه بقرعهما العصوين المرئيتين الآن، على الطبل المرئي كذلك. تردد إليَّ صوت وجهه وجسمه وكلتا يديه بشكل غير منفصل، وكان صوتاً

من القوة إلى درجة أنه يثقب الآذان. غطيت أذني، وتبعني أخي بحركة مماثلة ليحجب سامعتيه.

أوقف أبي ضربه. كانت يداه خاليتين. العصوان اختفتا الطبل لم يعد موجوداً. الصوت تبدد أثره.

«لغتي هي لغة الصورة»، أشار وهو يلهث. «ولا حاجة إلى شرح المزيد».

وصلتنا وجهة نظره. ابتسم وتناول الصحيفة التي أحضرها معه من العمل ذلك اليوم.

«اقترب لترى»، الآن سأفعل سحراً. سأصنع لكل منكما قبعة بأربع زوايا. قبعة كتلك التي نضعها أنا وزملائي في مبنى الصحيفة، لنحجب رذاذ الحبر عن رؤوسنا».

وبينما شارفت أمي على تجفيف آخر الصحون، نشر أبي أوراق الصحيفة على طاولة المطبخ. بعد أن انتقى منها تلك المناسبة، المطوية تماماً وآلياً، في منتصف الصفحة، أذن ليديه البدء بالقيام بذلك السحر. طوى الورق المزدوج في أكثر من اتجاه، خادشاً الأطراف بأظافره الصلبة، ليدس أقسام الورقة المطبوعة ببعضها بعضاً، مواربا كل ثنية، وتجعيدة، في شكل قبعة بدت أماراتها بالظهور.

وبعد أن ضبط الطيات النهائية في مواضعها المفترضة، فضَّ الشكل الورقي المكسو بالكلمات المطبوعة، وأمام عينيّ، حمل القبعة الصحفية ثلاثية الأبعاد، التي لم يكن لها سوى بعد واحد ورقي قبل لحظات. وضعها بعطف على رأسي. وبطريقة ما أعجوبية، فإن القبعة- كما دوماً- كانت ذات مقاس مناسب تماماً.

«أنت الآن عامل طباعة. مثلي. لا حبر سيتسرب إلى شعرك، لن تُلطِّخ مخدتك ولن تثير غضب الأم سارة».

أعاد العملية نفسها ليضع قبعة أصغر على رأس إروين. ظلت القبعتان فوق رأسينا إلى حين دخولنا غرفة النوم.

حتى إنني في تلك الليلة، حلمت بأنني عامل طباعة أقف أمام آلة طباعة ضخمة بجانب أبي. كنا نلبس قبعات ورقية. ورأسه حُجِبَ عن أي رذاذ حبر.

تذكارات
أسلوب بالمر

عدت من المدرسة ذات يوم بدفتر مملوء بسطور من الأحرف المكتوبة بخط بهي رائع، كقطيع غزلان تتقافز عبر الصفحة. بين هذه الزخارف الفارعة، حُشِرَتْ خطوط رديئة من اليرقات المدبدبة ببطء.

كان هذا أول احتكاك لي مع أسلوب بالمر الكريه في فن الخط، الذي خلصت السلطات التربوية في بروكلين، وبحكمتها، إلى أنه أساس تعليمي لكل طالب ناشئ. أما في حالتي فقد اعتُبر أمراً حاسماً. «مايرون، أيَّ شيء على كوكب الأرض تشبه كلماتك هذه؟» قالت المعلمة، بسخرية تامة. «هذه الصفحة أشبه بزريبة دجاج خائف. ماذا يمكن أن تعني خربشات الدجاج هذه؟» حاولت أن أشرح لها، وبصدق، أن بعض الكلمت عويصة عليّ. كان ذلك مثيراً للدهشة، فقد قمت بكتابتها لأول مرة في حياتي منذ لحظات فقط.

سمعت زملاء الصف الخونة يضحكون، وكنت أراقب بهلع، المعلمة وهي تملأ دفتري بخطوط رشيقة، وأحرف أنيقة– أحرف كبيرة وصغيرة تعاقبت.

«الآن يا مايرون، عد بدفترك إلى المنزل وتمرَّن!».

بعد إتمام أمي توضيب صحون العشاء عن الطاولة، بدأت بالتمرن على الخط. في المساحات الفارغة بين كلمات معلمتي الشبيهة بقطعان الغزلان، تركت كتابة رديئة، بشعة خرقاء، كنسخة شخصية عما تركتْه المعلمة. أثناء ذلك، جلس أبي إلى جانبي ليقرأ الصحيفة.

لكنه ما لبث أن وضع الصحيفة جانباً، ثم أدار دفتري باتجاهه ليرى ما كنت أكتبه.

«ما الذي تفعله بحق السماء؟»، أشار. امتلأت قسمات وجهه بارتباك

صاف.

«أتمرن على الخط».

«وهل *هذا* خط؟» قالها مشككاً. «لماذا إذن لا أستطيع قراءته؟» أضاف– ليس ضرورياً، قلت في نفسي.

لم أقصد بذلك أن أكون فظاً، لكن بسبب إدراكي أن هذا النقاش لن يفضي إلى مكان. استرجعت دفتري لأستأنف على الصفحة، خربشاتي المعذبة النكدة– والتي– حتى لعقلي– بدت مدعاة للشفقة.

خطوط تعيسة مِن.. ماذا؟ نعم، أدركت أنها بالضبط كما قالت المعلمة: خربشات دجاج.

وضعت قلمي جانباً بإحباط مطلق. كنت ولداً مهزوماً. وفوق كل هذا، آلمتني يدي.

نظرت إلى والدي، رأيته مأخوذاً بإشارات مضخَّمة، مشكّلة بأصابعه التي كانت تنحت أحرف الأبجدية بدقة وهي تتهجاها. كان يبدو وكأنه يقتطع تلك الحروف، واحداً تلو الآخر، من حجر رخامي، بإتقان.

حلّقت إشاراته وارتفعت بزهو طاووس مبهرج، ممزوجة مع خفة سنونو طويل الذيل.

«هذه هي نسختي من طريقة بالمر»، أشار قبل أن ينتشل صحيفته استكمالاً لقراءتها.

-14-
ليلة اجتماع الآباء بالمعلمين

لم تكن سنوات حياتي قد تجاوزت التسع عندما وُضعتُ في تحدّ هائل، إذ تحتم عليّ لعب دور الوسيط بين أبي والعالم الخارجي. وكان ذلك في الليلة المفزعة لاجتماع الآباء بالمعلمين.

عندما أبلغت أن أهلي مدعوون– والحضور ليس اختيارياً بطبيعة الحال– للاجتماع بالمعلمين لمناقشة تحسننا (أو تأخرنا بأي حال) في واجباتنا المدرسية، وميولنا الاجتماعية (التصرفات؟ اللعب والمشاركة مع الآخرين؟ السلوك؟ يا له من غم!)، شعرت بقشعريرة في عظامي. فبكل تأكيد، سيلّح أبي عليَّ لمرافقته وأمي إلى هذا الحدث. ولأنه أمر مهم، عرفت بأنه لن يكتفي بكل بساطة، بالملاحظات الملغزة، المخلوطة، المكتوبة على عجل والمضجرة، التي بحوزة معلمة ضيقة الصدر. يريدني– كما درجت العادة منذ بلوغي السادسة– أن أؤدي وظيفة المترجم والمفسّر، كي يتمكن من فهم المعلمة بشكل تام، كما قد يفعل أي أب صحيح السمع يستمتع دون تفكير.

متمسكاً بأمل ضئيل للغاية بعدم مرافقته، شرحت لأبي بأننا الأطفال، غير مدعوين. لكنه أصرّ على حضوري، شأنه دوماً في أي مناسبة تتطلب اتصالاً بينه وبين عالم السمع.

لكن هذه المناسبة، مختلفة بالطبع عن كل ما سبق. فحتى اللحظة، لم أكن سوى مجرد زجاج نافذة بين أبي والعالم الخارجي، تتدفق عبرها اللغة بالاتجاهين، من أبي الأصم الأبكم إلى ذلك العالم وبالعكس– كنت بعبارة أخرى واسطة ذلك التفاعل. لكنني الآن في قلب الموضوع، بل أنا نفسي موضوع مهمتي هذه الليلة. الأفكار والجُمل التي عليّ تمريرها من أبي إلى المعلمة والعكس،

باللغة المنطوقة ولغة الإشارة، ستتضمن آراء شخصية جداً عني. كنت مرعوباً. سبعة أيام قصيرة تفصل بيني وبين المحنة القادمة. رحت أعد الساعات وأعبرها وكأنني أُسحَل على الجمر.

تشابكت في رأسي الهموم لتتعقد وتتضاعف. فعالمي كله إلى هذه اللحظة، العالم الذي تقاسمت عيشه مع والديّ الأصمين الأبكمين، يقتصر على حينا في بروكلين- في الحقيقة على نصف الحي، ذلك أنني لم أغامر إلا نادراً، وربما أبداً، باجتياز الخط الفاصل بين نصفيه. في عالمي ذاك، كنت معروفاً كابن لأبوين أصمين، لا أقل ولا أكثر- وأفضل ما في الأمر، أن أحداً لم يهتم.

عندما تناديني أمي مههههااارينن، من نافذة شقتنا في الدور الثالث بصوت حاد أبكم، لا يلتفت أحد لاكتشاف مصدر الصوت الشبيه بالعويل. وحين يشجعني أبي خلال مباريات كرة المضرب أو كرة القدم، بصوته القاسي الصلب، بالكاد يلاحظ الأصدقاء ذلك. وعندما نتبادل الحديث، بالإشارات، لا أحد يحدق بنا. إيقاعات الحركة المنبعثة عبر يدينا وجسمينا خلال النطق بالإشارة، كانت قد أضحت شيئاً طبيعياً وعادياً كحركة أغصان الشجر المتمايلة أمام مبنانا السكني، كلما هبت نسمة من كوني آيلند.

في حيّنا، في ذلك العالم، لم أكن ملاحَظاً.

لكن كل هذا مقدم على تغير. ففي غضون أيام مؤلمة قصيرة، سأكون مع والديَّ في صالة كبيرة ملأى بالمعلمين والأهل- الغرباء الذين لم يصادفوا في حياتهم شخصاً أصماً، ولا سمعوا صوتاً أبكماً، ولا رأوا أداء بلا مغزى بالنسبة إليهم، حركات مخبولة تقريباً، مجرد تلويح بالذراع، علامات تكشير، وصرير، وتجهم.

وفوق كل هذا، عليّ الصمود حيال رغبة والدي بنقل إشاراته إلى كلمات منطوقة تعبر عن إعجابه بكل واحدة من مهاراتي وسماتي المتعددة، إلى

المعلمة.

حان موعد الاجتماع المحتوم كما هو مقرر.

«مايرون، أخبر والديك بأنني سعيدة جداً بلقياهم أخيراً»، قالتها المعلمة بدماثة، وقد ضبطت صوتها ليبدو ناعماً.

ابتسمت شارحاً كل كلمة لأبي، ملتزماً بسمات محددة رسمتها على وجهي لنقل سعادتها.

«مايرون، قل للمعلمة إننا أيضاً سعيدان»، قالها أبي بإشارات مضخمة، ناطقاً في الوقت نفسه بصوته الجاف.

انكمشت ناقلاً كل ما قاله.

«مايرون، أخبر والديك أنه برغم كونك تلميذاً جيداً، غير أن لديك مشكلة صعبة في الانضباط».

«المعلمة تقول إنه من دواعي سرورها أن أكون تلميذاً في صفها».

«قل لهما، إنك إن لم تحسن التصرف، والسلوك، وتزيد من انتباهك، فإنني ساوصي بإخفاضك إلى صف أدنى مرتبة».

«المعلمة تقول إنني ولسرعة تعلمي، فإنها قد توصي برفعي إلى صف أعلى درجة»، أشرت بأسلوب خلاق.

«علاوة على ذلك»، قالت بصوت عذب مجوّد، «قل لوالديك إنك أسوأ تلامذة المدرسة في ما يتعلق بالانضباط، وإنني لم أصادف مثيلاً لك طوال الأعوام الاثنين والعشرين التي أمضيتها معلمة في مدارس بروكلين كلها. مايرون، أنت بحق نموذج فريد».

«المعلمة تعتقد أنه سيكون لي مستقبل لامع، وقد أصير ربما طيّاراً أو جرّاحاً».

هنا أشرقت أمي ابتهاجاً.

لكن والدي، الذي راقب شفتي المعلمة وحركاتهما النشطة والمطولة خلال الحديث، تجهم وجهه وارتسمت الشكوك على ملامحه.

«هراء!» قالها مستخدماً الإشارة المنزلية للكلمة. ثم كرر بحنق «هراء!».

«الآن، بحق الله، أخبرني بالضبط كل ما قالته المعلمة»، أشار بإيماءات واضحة تمام الوضوح. فأبي، الذي امتلك مهارة في قراءة وجه أيّ كان سمع، كما يقرأ عالم بالآثار المصرية «حجر رشيد»، كان قد فكك هيروغليفيات وجه معلمتي وحركاتها. استنتج زبدة ما قالته السيدة، والآن يريد التفاصيل. انتهى المرح. وها أنذا في غضون لحظة، أعود مرة أخرى لأؤدي بشفافية– لأكون ذلك الزجاج النظيف الذي لن يُحرَّف عبره مسار أيٍّ من أفكار أو تعليقات المعلمة أو أبي، بكلا الاتجاهين.

ناظرة إلى وجهه المتجهم وإيماءاته الغاضبة، توجهتْ نحوي المعلمة بالصوت نفسه الذي كلما أرادت توبيخي في الصف، استعملته، لحملي على الالتزام بالهدوء في الصف، «مايرون، ماذا أخبرت والدك؟».

«حسناً..»، ولم أستطع مواصلة الكلام.

«مايرون، أخبر والدك بالضبط ما كنت أقوله. الآن».

بدوتُ ذليلاً.

لكن معلمتي العزيزة أشفقت عليّ حالما رأتني على هذه الحال.

«مايرون ولد جيد. يقرأ جيداً، وهو ذكي بشكل واضح، لكن عنده مشكلة في الانضباط». ثم ابتسمت وقالت، «إن لديه نملاً في بنطاله». واسترسالاً في استعارتها هذه، أضافت، «وأحياناً أرغب بشدة في سحقه، كنملة».

إشارة *النملة* أيقونية وصورية: اليد اليسرى المقفلة جسد النملة وتوضع على ظهر اليد اليمنى، التي تتحرك قدماً إلى الامام، بينما تتهزهز الأصابع بقوة وكأنها أرجل نملة. وللأمانة المستجدة التي حلت عليَّ، ولأزيل أي شك من

ذهنه، ولألتزم حرفياً بما عنته المعلمة في جملتها الأخيرة، أكملت بالنسخة الثانية من إشارة النملة: قبضتان مغلقتان، وإبهام اليد اليمنى يمتد خارج قبضة اليد، ليقابل إبهام اليد اليسرى، فيُضغط الإظفر بالإظفر، في حركة تسحق جيشاً كاملاً من النمل بين الإظفرين. أنجزت الإشارة الأخيرة ضاغطاً إظفري بقوة، لأصف المشهد، حتى إن أمي ابتسمت– وهزت رأسها موافقة– وسقط أبي في ضحك متشنج تقاطع مرات مع صوته العالي الشبيه بالنباح إلى حد لافت «أجل! أجل!»، مستتبعاً ذلك بإشارة «أحياناً، يحدث لي الأمر نفسه! أرغب في أسحق مايرون كنملة».

إشاراته الواسعة التي أدّاها تعبيراً عن أن *أسحق مايرون* كنملة، جعلته يتشاطر المرح مع المعلمة، على حسابي. لكنني لم آبه. فقد أفلتُّ من أي تفصيل آخر حول مشاغباتي في حصصها.

هذا الحوار الحيويّ، لفت أنظار الآخرين نحو مجموعتنا العائلية الصغيرة في القاعة. لاحظت هذا. كانت العيون تحدق والأفواه فاغرة، وقد ارتسمت دهشة على الوجوه.

تباً. فكرت. *سأكون فظاً كأبي*. وأخذت أحدق بهم في المقابل.

في تلك الليلة، وبعد أن عدنا إلى المنزل وأعطى أبي بعض النقود لابن الجيران الذي لازم إروين واعتنى به أثناء غيابنا، قامت أمي بتحضير كوبَيّ كاكاو لي ولأخي. ثم وضعت فوقهما الكريمة التي جهزتها بخفاقة بيض، في زبدية معدنية باردة. عندما أنهيت شرب الكاكاو، غَرَفَتْ الكومةُ المتبقية من زغب الكريمة البيضاء، مباشرة من الزبدية إلى فمي– ومن ثم إلى فم أخي بعد أن اعترض. نادراً ما كانت تفعل هذا لإروين، لأنها اعتقدت أن هذه العادة في الطعام غير صحية، وكانت حريصة جداً عليه. لم أفهم هذا الأمر، إلا أنها بدت مسرورة بشأني.

لم يكن الأمر مماثلاً مع أبي، الذي بدا جدياً كما لم أره من قبل. صوَّب نظرة صارمة إلى وجهي، وقال «مايرون، لا مزيد من تصرفاتك الحمقاء في المدرسة. أتوقع تقريراً أفضل عن نشاطك المدرسي في اجتماع الآباء– المعلمين المقبل». وأكمل بتردد مواصلاً تفرسه فيَّ «وإن لم تتحسن...»، ثم أدى إشارة سحق النمل– وانفجر ضاحكاً.

تذكارات
الرجل العنكبوت في ناينث ستريت

قبل عشرين عاماً من لسع عنكبوت مشعّ بيتر باركر، طالب الثانوية المجتهد وغير الموجود حقيقة، محولاً إياه إلى الرجل العنكبوت، قررت أنني قادر على تسلق الجدار القرميدي، في شقتنا السكنية. توصلت إلى هذا بعد تمارين قليلة وتفكير أقل.



أنا، متمرناً لأكون الرجل العنكبوت.

فكأيّ طفل في بروكلين عام 1943، كنت شديد الإعجاب بملك الغابة، طرزان. شاهدت جميع أفلامه في مسرح أفالون، صالة السينما المحلية، منذ

الأسبوع الأول لعرضها. كما دأبت شراء كل واحدة من قصصه المصورة ما إن تطأ رف متجر السكاكر في حيّنا. لا أخفي أني فعلاً لم أتحل بصفات التلميذ المجتهد في المدرسة، غير أنني أظهرت تفوقاً هائلاً في كل ما يتعلق بالأفلام والمجلات المصورة. قدرة طرزان الفائقة على تسلق الأشجار كالقردة، وتأرجحه بين الأشجار مستخدماً حبال النباتات المعترشة النازلة من أعلى منبتها، ألهما محاولاتي البطولية الفذة، في التدلي على نباتات معترشة من صنيعي. وهكذا، سرقت قسماً من حبل الغسيل، وصممت النسخة البروكلينية من نباتات أفريقيا المعترشة.

ذات يوم، وبينما «نبتتي المعترشة» مربوطة بإحكام حول خصري، تسلقت شجرة فنائنا الخلفي. ظللت طوال اليوم أتنقل بسرعة داخل الشجرة، وقد اوثقت حبل الغسيل (نبتتي) إلى أعلى جذع في الشجرة، ما مكنني من التأرجح في تقوسات شديدة الارتفاع، حتى إنني حلقت فوق سقف مرأب الجيران. أخيراً، ومع استنزافي لمحاولات اكتساب خبرة العيش في الغابة الأفريقية على شجرة واحدة، استلقيت على أحد أطرافها، لأحلم بمزيد من المغامرات.

شجعني نجاحي في تسلق جذع شجرة واحدة، وتأرجحي على طرف حبل غسيل لكي أجزم بأنني، كطرزان نفسه، أستطيع استخدام هذه الوسيلة في التنقل لعبور «غابتي»– شارع وست ناينث، بروكلين، نيويورك.

لكن المعضلة تمثلت في أن «غابتي» متناثرة، وأشجارها قليلة متباعدة. أما التنقل من شجرة إلى أخرى، فيستلزم مهارة وسرعة عاليتين وقد يرهق الأمر حتى الفهد الصياد، إن لم نقل طرزان نفسه. لكنني، ورغم هذا، كنت مصمماً على استعمال مخيلتي إلى أبعد حدّ، ولذلك فقد فكرت ببديل جدير بالاهتمام: أسلاك خطوط الهاتف شاهقة الارتفاع، التي تلوّت كالأفاعي، من عمود إلى آخر، في الفناء الخلفي لشارعنا. نظرت إليها بمخيلة طفل في العاشرة، ناشط

على نحو مفرط. كان سهلاً أن أتصورها كقبة غابة محتشدة، سأعبرها باستعمال حبل الغسيل خاصتي.

بعد ظهر أحد الأيام، وبينما طوقت خاصرتي «نبتة معترشة» لا طائل منها في الواقع إلا ما أوهمني به ذهني، تسلقت عمود هاتف في الفناء الخلفي. أمسكت بالسلك السميك في الأعلى، وبدأت أتقدم شيئاً فشيئاً، ببطء، وباليد تلو اليد، من عمود إلى آخر، حتى دخلت الجادة «ب»، في نهاية شارعنا. ليس سيئاً، فكرت، قبل أن أعكس وجهتي على السلك، لأنتقل في الاتجاه المعاكس حتى أصل إلى طريق كوينتن. هل سبق لطرزان بصفته صبياً، أن عاش في بروكلين، وهل كان بمقدوره فعل أفضل من هذا؟

لو صودف أن لمحني أحد الجيران من نافذة منزله، لشاهد نصب عينيه ولداً مطوّقاً خصره بحبل الغسيل، متدلياً من أسلاك الهاتف، وقد ارتسم على وجهه التركيز المطلق. نعم، *فأنا* ملك الغابة. لحسن الحظ، لم يلمحني أحد- وإلا لبادر على الفور إلى إخبار والدي بلا شك- وقد جعلت أكرر فعلتي الفذة هذه لأيام وأيام، إلى أن مللت من تأدية هذه الحركات المحدودة، ذلك أن سلك هاتف واحد لم يتح لي، أن أنوّع في حركاتي، لأستمر بالتسلق والنزول بالطريقة ذاتها من فوق «سقف» غابتي. رجعت إلى مجموعتي الواسعة من قصص طرزان المصورة لأتحرى في إمكانية القيام بمغامرات أخرى.

مستخدماً قدرتي المذهلة على الاستنتاج، والتي تمتع بها كل طفل من أطفال بروكلين، موهبة متوارثة تمكنهم من تحويل بيئتهم المعتادة إلى شيء أكثر غرابة، خلصت إلى أن الجدار القرميدي في واجهة بنايتنا هو المظهر الخارجي لمنحدر الغابة. بالطبع، لم أكن أعرف ما الذي يعنيه منحدر الغابة، إلا أنني ما إن نظرت إلى أعلى الجدار، حتى مثلت في مخيلتي الصورة التي لا تمحى لطرزان وهو يتسلق منحدراً محضاً، فيما يطارده أسد من مسافة قريبة. متشبثاً بهذه الصورة

في ذهني، تخيلت أسداً في شارع وست ناينث يطاردني خلسة.

ورأيتني في ذلك اليوم متشبثاً بالحائط القرميدي، واجهة البناية، كما يتشبث عنكبوت في شبكته. فيما أظافري وأصابع قدميَّ داخل الحذاء الرياضي، مطمورة في الفتحات الفاصلة بين كل حجري قرميد متتاليين، على مسافة طابقين من الأرض. كنت أتسلق ببطء، حجراً حجراً، متقدماً إلى الأعلى، بينما أنفاس الأسد الحارة تلامس قدميَّ، وزئيره العميق يتردد في أذني.

وفي تجاهل تام لصراخ أمهات الحي، الصراخ الحقيقي المنبعث من الشارع تحتي، واصلت زحفي إلى الأعلى، منتبهاً إلى سلالم النجاة التي ابتعدتْ عني مسافة سنتمترات إلى اليمين. كانت خطتي تقضي بأن أجذب بقبضتي «درابزين» السلالم اليدوية إذا ما اوشكت على السقوط.

عندما لاحظت أنني فررت من الأسد نهائياً، أطلت السيدة أبروموفيتش من شباك غرفة نومها، ممسكة بخرق من القماش، فهي ستباشر بتنظيف شباك النوافذ، طقسها التي تقوم به مرة في الأسبوع. بعد أن وضعت ردفها المكتنز براحة تامة على عتبة النافذة، قامت بإنزال النافذة من فوق رأسها لتوقفها عند حضنها للسلامة، قبل أن تستدير لتراني متشبثاً بالحائط القرميدي، على قرابة سنتمترات منها. الصرخة التي أطلقتها بمفردها، طغت على كل الصرخات الأخرى مجتمعة لنساء الحي الثرثارات والمتطفلاًت. بدت صرخاتهن وكأنها نسيم هامس شتَّته إلى أجزاء دويُّ صوتها الرعدي.

طرف النافذة المنخفض، أبقاها مسمَّرة عند عتبة الشباك في وضعية جلوس وقد فوجئت مرعوبة.

تجمَّدْتُ، ملتصقاً بواجهة المبنى، عاجزاً عن الإتيان بحركة من هول الصوت. لكنني وبعد أن استعدت فطنتي، عرفت بأن علي الخروج من هذا المأزق بسرعة. لكن، إلى أين، الأسفل أم الأعلى؟ ففي الأسفل، ينتظرني الأسد

المتخيل ذو الأنفاس الفاسدة والنساء الثرثارات المتطفلات- وهن بما لا يقاس، أكثر المخلوقات المفترسة رعباً- إذن فلأتجه إلى الاعلى، نحو شقتنا في الطابق الثالث لكن باستخدام سلالم النجاة.

وبما أن أمي صماء، لم تسمعني أتسلق عبر نافذة غرفة نومها. وبما أنني أحتفظ بنسخة من مفاتيح المنزل، لم تعلم بدخولي مستخدماً سلالم الحريق. ولم تكن تلك، المرة الأولى التي أكتشف فيها حسنة أن أكون ابناً لوالدين أصمّين، إذ ثمة في ذلك الكثير من المنافع العملية.

لكنني تأكدت من أنني مقبل على تصفية حساب وشيك.

عندما عاد أبي من عمله ذاك المساء، كان ثلاثة من الجيران ينتظرون أمام باب الشقة. كتب هؤلاء تقاريرهم الغيورة حول منحدر الغابة خاصتي، وألقوها مباشرة في وجه أبي المتعب، المنهك.

أما بالنسبة للسيدة أبروموفيتش، فلم تبرح شقتها. زوجها الخنوع ظل بوفاء ملازماً لها، وهي مستلقية في الفراش الذي ما إن استعادت وعيها حتى غادرته على الفور.

أما أبي وأنا، فقد تجاذبنا أطراف أكثر المحادثات تشويقاً ذلك المساء، المحادثة التي حددت إدراكي للإشارة إلى أقصى حد. لكن، وكما دوماً، فإن استعمال أبي لغته الحبيبة بذلك الشكل التعبيري، لم يترك شكّاً لديَّ بأن عليّ نهي نفسي عن القيام مجدداً بهذه الاعمال البهلوانية.

لم ير أو يسمع أحد شيئاً عن الأسد في مبنانا السكني. فلا شك في أن الأصوات المرعبة لأولئك النسوة، دفعته ليعود أدراجه إلى أفريقيا.

-15-
الصبي في البزة

كل مساء، وبينما أمي تنهي تنظيف أطباق المائدة، يجلس أبي بجانبنا إلى طاولة الطعام في المطبخ، ليقرأ لي ولأخي- بلغة الإشارة- أخبار الصفحة الأولى من نيويورك دايلي نيوز، الذين ساهم عمال قسمه في تنضيدها. في أيامها الأولى، كانت رحى الحرب العالمية الثانية، تمضي بشكل سيء. كنا نخسر في كل الجبهات معركة تلو الأخرى. «لا تقلقا»، يداه تتوجهان بالإشارة نحو إروين ونحوي، قانعتين بما تقولانه بشكل راسخ، «أمريكا لم تخسر حرباً قط».

كنت أستطيع قراءة معظم كلمات الصفحة الأولى من الصحيفة. وحتى تلك الكلمات التي لا أعرفها، كنت أستطيع لفظها. غير أنني فضلت كثيراً أن يقرأ أبي لي الصفحة. كلمات مثل حرب، *معارك*، جيش، *قذيفة*، *قنبلة* كانت مجرد كلمات بالنسبة لي، بالضبط كما كلمتا *جُرح وقُتل*. لكن حين تقوم يداه المعبرتان، بنطق هذه الكلمات، فإنها تبعث فيها الحياة. بحركة منهما، كنت أرى سقوط القنابل، تحليق القذائف في الهواء، ونشاط الجيوش المتعددة، كما أسمع أنين الجرحى وهمود الموتى. أخبرتْني يداه بقصة الموت أثناء السير في باتان[1]، وكنت أستطيع رؤية جنودنا المنهكين يجرجرون أجسامهم المحطمة فوق الطرق المغبرة الطويلة، كما شعرت بالطعنات التي تلقوها من رؤوس حراب الجنود اليابانيين القساة، أثناء حثهم على مواصلة المسير.

(1) الموت في باتان: تعدّ هذه المجزرة من جرائم الحرب العالمية الثانية التي ارتكبها الجنود اليابانيون ضد أسرى أمريكيين وفلبينيين في باتان/الفلبين عام 1942، أثناء ترحيلهم إلى معتقل آخر. بلغ إجمالي الأسرى يومها 75000، وقد قتل العديد منهم في الطريق أثناء المسير، وبطرق وحشية.

رأيت القذائف تنهمر على سطح السفن الحربية، في معركة ميدواي[1]، النيران والانفجارات تندفع في الهواء، البحارة يتركون السفينة، ما إن يروا الثقوب الخشنة وقد اخترقت خط الماء[2]، والبحر المبقّع بالوقود، يصبح متخثراً بالبحارة المتشبثين بالحطام العائمة. كان أخي يجلس في مطرحه إلى الطاولة، أصغر من أن يستوعب كل هذه الوقائع المثيرة، لكن مفتوناً بالإشارات الدراماتيكية، وقد غمرته سعادة كلما مرت دقيقة إضافية خلال هذا الأداء.

كصبي صغير، كنت صاحب ذهن متّقد يمكنني من تحويل الكلمات إلى صور. وما ساعد على تطوير هذه المخيلة إلى حد بعيد، هو ذلك التواتر المستمر وبشكل يومي، بين الكلمات ولغة الإشارة.

كانت قراءات أبي المسائية، حدث اليوم الأبرز، لأغدو بفضلها تلميذاً مجتهداً في معلومات الحرب. ففيما أصدقائي ينتظرون الموجز الإخباري، الذي يعرض بعد ظهر كل سبت، على الشاشة الفضية، في قاعة السينما، ليشاهدوا وقائع الحرب، أكون في جانب آخر، مشاهداً لهذه الأحداث كل ليلة، على الشاشة البشرية ليدي والدي.

مد الحرب وجزرها، تحوّل لصالحنا عام 1944. بدأنا نحرز التقدّم، ونتوغل. كنت شديد التشوق لمرأى دفق الإشارات من يديه كل مساء، وهو يقرأ لنا العناوين الرئيسة المهللة لإنجازات جنودنا عام 1944 على مشارف إيطاليا[3].

في يونيو من ذلك العام، حُررت روما.

وفي الشهر ذاته، أرست قوات الحلفاء أسطولها البحري على شاطئ

(1) معركة ميدواي البحرية: تعد واحدة من أبرز المعارك على الجبهة البحرية بين الجيش الياباني والبحرية الأمريكية في المحيط الهادئ، وقد وقعت بعد زهاء ستة أشهر على هجوم بيرل هاربور الشهير. وكان الهدف منها إضعاف قوة المعسكر الأمريكي في المحيط الهادئ.

(2) خط الماء: واحد من عدة خطوط على جانب السفينة يُظهر العمق الذي تبلغه عندما تكون فارغة أو محملة جزئيا أو كلياً.

(3) في 1944 تم غزو إيطاليا من قبل قوات الحلفاء في عملية عسكرية أمريكية بريطانية مشتركة .

النورماندي. حلّ أخيراً يوم النصر. وببطء وثبات، بدأت قواتنا تزحف نحو باريس.

كانت الصحيفة مملوءة بصور الجنود في بزاتهم العسكرية، جنود في الخنادق، جنود في طوابير الطعام، جنود في المقدمة، وجنود موتى. وجميعهم في البزات العسكرية، سواء أكانوا من جانبنا أم من الجانب الآخر.

وأردت بزة لي.

كان خالي الأصغر ميلتون، ضابطاً في سلاح المظلات، وكانت مهماته تقع في مكان ما من أوروبا، قبل نقله إلى بورما. وقد أرسل لي حربة، وحزاماً للرصاص وضعتهما عليَّ في الشقة.

خالي الآخر، هاري، كان بحاراً على سفينة حربية في المحيط الهادئ. أرسل لي قبعة بحار بيضاء اللون رائعة، مجوفة بشكل جميل، وكل واحدة من





هاري (إلى اليسار) وخالي الأصغر ميلتون.

ثنياتها قد جُعِلت في مكانها الصحيح. راق لي ارتداؤها بصورة مائلة جميلة. بقبعة البحارة تلك على رأسي، تمشيت في أرجاء الشقة، بخطوات متباعدة، متخيلاً خالي يفعل هذا وهو يثبت سطح السفينة في مواجهة عاصفة في المحيط الهادئ، فيما الأمواج الطويلة تضرب مقدمة السفينة، وتتحطم، موجة إثر موجة.

كانت شقتنا صغيرة. وكنت أجول دائماً بقدمي الحافيتين. مما حدا بأمي، التي درجت على شطف أرضية المطبخ وتنظيفها بالشمع كل يوم- وكل ساعة، بحسب ما بدا لي- إلى تعجّل خروجي من الشقة نحو الرواق في الطابق الثالث. أما أخي فتوجّب عليه البقاء في الداخل، نصب عينيها، حتى تتمكن من الاعتناء به.

لم يمض وقت طويل حتى انضم إليّ أولاد البناية الأكبر سناً، كلّ يلبس خردته من البزة عسكرية- قبعة غريبة الشكل على رأس هذا، وحزام جلدي تالف على جسم ذاك. كنا نسير الهوينى في أرجاء الأروقة رخامية البلاط، مثيرين الفوضى بأصواتنا المقعقعة، نازلين بمحاذاة الدرابزين الأدراج، وحناجرنا تنفجر بالغناء:

«*أنت الآن في الجيش. لستَ خلف المحراث. لن تُثرى من حفر خندق. أنت الآن في الجيش*».

صدى أصواتنا مجتمعة، كان يملأ الطوابق في الأعلى والأسفل وبئر السلَّم كذلك، إلى أن يندفع الجيران من أبواب الشقق، صارخين بنا *لنصمت*! مهددين باللحاق بنا ومعاقبتنا إن لم نفعل.

ولنهرب من الأعداء، نتوجه نحو المصعد ونستقله نزولاً إلى الطابق الأرضي. وفور توقفه، نهرول بجلبة عبر الظلمة المتعفنة بجانب غرف تخزين أسلاك أعشاش الدجاج، والفم المتوهج المفتوح دوماً للفرن، الوحش الخبيث

الحاقد علينا. ثم ندلف إلى الخارج دافعين باب السرداب نحو الزقاق، ناجين بأرواحنا لنمشي ونقاتل ليوم إضافي.

متعباً لكن غانماً مبتهجاً، ألتجئ في النهاية إلى شقتي، حيث أفسح في المجال لإروين حتى يرتدي عدتي العسكرية، بينما أعذبه بالمشي والغناء العسكريين. هذا الاهتمام بأخي، أثار إعجاب أمي، إلا أن ذلك لم يمنعها من تحديد الخط الذي على مشيتنا العسكرية ألا تتجاوزه، خارج المطبخ الذي فَرَكَتْ أرضيته بالشمع بغية صقل بلاطه.

لكن توقي للبزة– المتنفس بصورة أخرى، لطاقاتي اليافعة– لفت انتباه أبي. أتى إلى المنزل غداة سيطرة الحلفاء على باريس في أغسطس، حاملاً علبة كبيرة الحجم طويلة تحت ذراعه. أمرني بأن أفتحها، بعدما وضعها بين يدي بقوة. داخل العلبة، كانت بزة صبي كشافة، جديدة، مجعدة بشدة، بزة كاملة مع حزام الضبط، جوارب عالية حتى الركبتين، وشاح مطوي، وحبل قصير.

«هذه البزة لك. زوج الأحذية الأسود هذا من متجر توم ملك آن[1]»، قالها بإشارة «ومع لمعان جيد فوقهما، ستبدو مثالياً».

لم أعرف ولداً وأحداً في بروكلين منضوياً في سلك الكشافة. *لابد من أن هناك سبباً ما لعدم انضمام أحد إلى الكشافة*. فكرت وأنا أحمل العلبة بين ذراعيَّ.

وبينما أنا مسمر في مكاني، سار أبي بمشية عسكرية (لا أجد أي كلمة أخرى لوصف هذا المشهد)، نحو غرفته، ليعود بالمشية ذاتها، مع صورة فوتوغرافية له وهو طفل، داخل إطار فضيّ. في الصورة يلبس الزي النظامي الشبيه بالعسكر، في مدرسة الصم والبكم، معتمراً قبعة. يعود تاريخ الصورة

(1) توم ملك آن: من أهم متاجر الأحذية في أمريكا خلال القرن العشرين. أقفلت آخر فروعه نهائيا عام 1996.



أبي في مدرسة فانوود للصم والبكم عام 1912

إلى عام 1912. ويبدو فيها تماماً كأولئك الفتية ضاربي الطبول، خلال الحرب الأهلية الأمريكية، الذين يظهرون في كتاب التاريخ.

«تبدو شبيهاً بي تماماً عندما كنت في سنك»، أشار لي، مشدداً على إشارة *شبيهاً* بي. «كنت أسأم بسرعة، مثلك تماماً. كان الأمر يعود دوماً لي، فأقحم نفسي في متاعب هنا أو هناك. في النهاية، أفرغت حياتي ممن أستطيع تجاذب أطراف حديث معه. لا أحد في عائلتي كان على معرفة بالإشارة. الأطفال في مبنانا كذلك لم يعرفوا الإشارة. كنت متروكاً لنفسي. لكن كل هذا تغير حالما انتسبت إلى فانوود، المدرسة الداخلية للصم والبكم، التي صُمِّمَت على طراز أكاديمية عسكرية وقد أديرت كنموذج مصغر من قاعدة وست بوينت. لبسنا هناك البزات النظامية، وكنا نسير بطريقة عسكرية: من صف إلى صف، ومن الصف إلى قاعة الطعام، ومن قاعة الطعام إلى الصالة الرياضية، ومن الصالة

الرياضية إلى الملاعب الفسيحة المفتوحة. عملياً، من مبولة إلى أخرى».

كنت بصدد سؤاله أن يفسر لي معنى إشارة مبولة. لكن يديه توجهتا إلى أسفل، والواحدة منهما أمام الأخرى، وقد اتخذت كل يد معصم اليد الأخرى محوراً لها. فهمت على الفور. ثم تحركتا إلى الامام والخلف– *سائرتين*– فيما الأصابع المتدلية تشير إلى طوابير وطوابير من المشاة، وهم يخطون بانسجام وبتجانس مثالي. وقد بدوت أثناء مراقبتي يديه، كمن نُوِّم مغنطيسياً، فرأيت أبي ورفاقه في المدرسة، صفاً إثر صف، يمشون ويمشون ويمشون.

«لا يمكنك أن تتخيل كم تحسّنت قدرتي على السير، على الرغم من أنني لم أجد حاجة لهذه المهارة الغريبة في برونكس في ذلك الوقت. إلا إذا كنا سنعتبرها مهارة للسير أثناء الأحلام». ثم ابتسم للفكرة.

لكنه وجهه، وكعاصفة، عاد لينقبض من جديد. «لاحقاً، أدركت لما اتّبَعَتْ المدرسة ذلك النظامَ المتشدد علينا نحن الأولاد الصم. فقد ظن أساتذتنا صحيحو السمع، أننا، وبصفتنا أولاداً صماً، سيكون من المتعذر ضبطنا لو تُركنا على سجيتنا، وكأننا حيوانات في غابة. لذلك، ذهب الظن بهم لفكرة أن يتم تأديبنا– فدُرِّبنا من الأساس، على اتباع الأوامر. لكن تلك قصة أخرى».

أمسك بيدي، وأخذني على طريقة المشية العسكرية إلى غرفة النوم، حيث راقبني وأنا أرتدي لباسي الرائع الجديد المجعد، زي الكشافة. *ماذا الآن؟* تساءلت في قرارة نفسي.

وكأنه يقرأ أفكاري، أشار أبي «صبية الكشافة ليسوا جيدين في المشية المنضبطة. لكن الانضباط والامتثال للأوامر هما ما يهم. ويمكن أن تتحلى بجرعة مزدوجة من الاثنين. لكن لا تقلق، فالمسألة لا تتعلق بهاتين الميزتين فقط. ستتعلم أشياء أخرى كذلك. وكلما أنجزت مهمة، ستحصل على شارة الجدارة. سأساعدك على ذلك».

جرى اللقاء الأول في الطبقة الأرضية من منزل قائد الكشافة، على الجانب الآخر من حديقة «سث لو» العامة. بدا ذلك المكان في الطرف الآخر من المحيط الهادئ، رغم بعده مسافة أربعة مبانٍ فقط عن حيِّنا؛ وذلك لأنني لم أكن معتاداً على الطواف بعيداً خارج نطاق الحي.

وبما أنه الاجتماع الأول للكشافة، فقد رافقني أبي، وظل لساعتين– فترة الاجتماع– منتظراً في الخارج. لم أشعر يوماً بمثل هذا الضجر في حياتي كلها. فكل ما فعلناه في اجتماع العرين ذاك، هو ترديدنا ثم ترديدنا ثم ترديدنا لقَسَم الكشافة.

اللقاءات المتتالية كانت بلا فائدة، فلم يتحسن شيء. أسوأ ما في الأمر أن والدي لم يعد يرافقني إلى تلك اللقاءات، مما دفع بأولاد الحي المتنمرين، للاستهزاء بي كلما غامرت بالخروج في زي الكشافة الأزرق السخيف. إلا أن أبي بقي متحمساً للأمر. فهو قد راجع القسم المتعلق بشارات الجدارة في دليل الكشافة، وعزم على نيلي واحدة منها.

وبذلك، وجدتني بعد عشاء تلك الليلة، جالساً إلى الطاولة لفرز زهاء مليون من الطوابع البريدية المتنوعة، والمندلقة من حقيبة بلاستيكية اشتراها أبي من محل لهواة جمع الطوابع. رأيت رؤوساً غريبة المظهر منوّعة الشكل تحدق بي، وقد كست وجوهها أنماط مختلفة من الشعر– سوالف كالمجراف، شوارب شمعية معقوفة، ولبعضها شاربان خدِّيّان[1]– بالإضافة إلى تشكيلة مماثلة من المخلوقات البشعة الغريبة، مطبوعة جميعها بألوان زاهية.

اما في منتصف الطاولة تماماً، فقد استقر ألبوم طوابع جديد، مفتوحاً على الصفحة الأولى، الخالية من أي شيء، التي بدت وكأنها تطلب مني ملئها، كي أنال يوماً ما أولى شارات الجدارة: «جمع الطوابع. ش. ج (شارة الجدارة) رقم 108».

(1) شاربان خديان: شاربان ضيقان عند الصدغين وعريضان مستديران عند الفكَّين الأسفلين.

اعتمر أبي قبعته الورقية، حاجباً ضوء المطبخ عن عينيه، ثم انتقى بدقة طابعاً وأحداً من الكومة المبعثرة. وبعد أن حمله من طرفه بعناية، وضعه أمامي، ثم ناولني زوجاً من الملاقط ذات الرأس الشبيه بالمجرفة، وقصاصة لصق طابع البريد في الألبوم، ثم أمرني بأن أضع الطابع في الخانة المناسبة لحجمه في الصفحة الخالية من الألبوم.

أمسكت الطابع بالملقط الحاد ثم ضغطت به على قصاصة الصمغ– وبفعلتي هذه، انشطر الوجه ذو السالفين إلى نصفين.

تذمر أبي «برفق، بهدوء». يداه، برفق وهدوء، وببطء متناه كذلك، ضغطتا شيئاً غير مرئي.

حاولت مجدداً. جهودي هذه المرة أحدثت تغضناً مثيراً للاهتمام في قرني ظبي التفا بالاتجاه المعاكس، لابتكر صورة خادعة لحيوان مسكين ظهر وكأن قرنيه نابتان من دابره.

وفي يأس وتهور، ودون انتظار لأي تعليق من أبي، سحبت واحدة من أجزاء الورق الملونة تلك، والبدائية القديمة، وبرفق وهدوء، وضعتها تماماً على رقاقة الصمغ في منتصف خانة خالية من أي حياة. وتوقفت، لأترك الصمغ يلتحم بالطابع وصفحة الألبوم.

لكنني لم أتوقف هنا، إذ وبرفق وهدوء، ومتسلحاً بمبتغاي إلصاق طابع داخل الألبوم، قمت عقب ذلك بإبعاد الملقط– الذي سحب معه محيط الطابع، الملتصق الآن بالملقط، تاركاً قلب الطابع المُتحدِّي ملتصقاً بصفحة الألبوم.

عينا أبي تقاطعتا فيما نظرتا إلى الأعلى، وانضغطت شفتاه بغم. يداه المعبِّرتان دوماً، أُخمِدتا صامتتين فوق رأسه. لم يكن هناك ما يقوله. حرثتُ في كومة الطوابع تلك، باهتياج، ويأس، مرة أخرى، ودائماً بالنتائج ذاتها.

أوقف أخيراً نشاط يدي بيديه، «عندي فكرة أخرى» أشار لي.

في الأسبوع التالي، ابتاع لي عدة من سكاكين إكس أكتو للنقش. سكاكين ثلاث، استلقت كل منها منفصلة، على مسند في تجويف داخل علبة خشبية ذهبية اللون. تشكيلة من الشفرات الحادة، بأحجام وأشكال مختلفة، ثُبِّتت بحلقات لباد إلى داخل الغطاء ذات المفصلات النحاسية. أما الغطاء فزوّد، بمزلاج نحاسي منمق ينطبق بدقة داخل سقّاطة نحاسية. فَتَنَتْ المسألة برمتها عينيَّ. كانت رائعة. لكن ما نفعها في هذا العالم؟ تساءلت.

«ش.ج رقم 118. الحفر على الخشب»، أشار لي بتفاؤل. كنت واثقاً من أنه تفاؤل مُضَلّل يهيم دون هدى.

في ذلك المساء، جلس أبي وأخي وأنا حيثما نفعل دوماً عند الشروع ببدء تنفيذ مشروع ما– إلى طاولة المطبخ. بينما أمي كعادتها، تسوي صحون المائدة، وظهرها مواجه لنا، لكن مع ابتسامة على محياها بالتأكيد، ابتسامة مهدَّدة، بأن تتحول إلى ضحكة نابعة من أحشائها.

وضعتُ عدة سكاكين الأكس– أكتو في منتصف الطاولة تماماً، فوق ورقة الجريدة. وبجانب العلبة المفتوحة، كان هناك ثلاثة ألواح من الصابون العاجي.

«سنبدأ بقطع ألواح الصابون وحفرها بهذه السكاكين أولاً. وبهذا فإننا سنُنَشِّط الشفرات، وستكون بدورك تمرنت على الحفر».

بدا هذا منطقيا بالنسبة إلي، تناولتُ إحدى السكاكين، ثم شرعتُ بقطع لوح الصابون، وعلى نحو منتظم، إلى قطعتين، آخذاً في طريقي الجُلَيدة التي بين إصبعيّ الإبهام والسبابة.

أخي المصوب نظره على علبة الشفرات والسكاكين بغيرة، غادر الطاولة مهرولاً، مدفوعاً بمشهد الدم النافر من يدي. كان دائم التذمر من حصولي قبله على الأشياء الجديدة، ومن أنني لا أشاركه، ولا أمرر له الألعاب إلا بعد أن

تصبح قديمة، أو بالية أو معطلة بالكامل. لكنه هذه المرة، وبشكل شبه فوري، فقد أي انجذاب إلى مقتناي الأخير هذا.

وما إن حقن الدم وعولج الجرح وغطي بضمادة، حتى شرعنا في المحاولة مرة أخرى.

«برفق، بهدوء» أشار أبي. بدأت أشعر بالضيق، بصراحة، من هذه الإشارات.

لكن، برفق وهدوء وبطء، تعلمت كيفية استعمال سكاكين الحفر على الصابون الناعم منتجاً في أول عمل لي، شكلاً تقريبياً للظبي. طبعاً بدا أن قرنيه نبتا من دابره– وفي الواقع، كان ملاحظاً على نحو لافت، أنه أشبه بالطابع الذي أتلفته. بحق الجحيم، لم يكن سيئاً بالكامل. يمكنني *فعل هذا*. قلت في سري.

«تمرن»، أشار أبي. فعلتُ ناحتاً حيواناً كل مساء من قالب صابون. بعض الحيوانات كان صنيع مخيلتي على نحو كامل، فكنت أعرضها على أبي وأمي فور انتهائي منها، من دون أن أغفل نظرات أخي المشككة بآخر إنجازاتي.

«رائع»، تومئ أمي بإشارات واسعة، مطلقة يديها كمفرقعات على جانبي وجهها بإعجاب.

«تمرن»، يقترح أبي كابحاً جماح إشاراته. فعلت. بعد وقت ما، أصبح الحمام متخماً إلى حد الفيضان، بحيوانات صابونية متنافرة إلى حد بشع ومضحك، بكل ما قد يخطر للبال من أشكال. كنا نغسل بفيل فاقد إحدى أذنيه. وقد استحممنا أنا وإروين بجرذان وفئران بلا أذيال ولا آذان. حلق أبي ذقنه بزرافات ذات أعناق قصيرة. أما أمي، فنظفت الأطباق بصابون مرعب الشكل، ككائنات الكوابيس، حتى أنني، صانعه، لم أكن قادراً على تفسير مظهره. أما القشور الجلدية التي طفحت بها يداي، نتيجة الحزوز والجروح،

فكان من السهل تمييزها.

بعد الحفر في زهاء مائة من ألواح الصابون- ووحدة دم، سفكت قطرة قطرة- تخلينا عن مشروعنا المسمى «ش.ج رقم 118. الحفر على الصابون». بعد أسبوع على هذا، تم وبعناية، لف بزتي الكشفية بورق، مع كرات مبيدة للعث، وقشارة من خشب الأرز، لتسكن قعر جارور الثياب خاصتي. ما فائدة أن تكون فتى كشافة، هكذا اتفقتُ وأبي، إن لم تكن قادراً على نيل رتق واحد للثياب. أليست هذه شارة جدارة؟

أخي كان متشوقاً. أدرك أن ثمة شيئاً يخصني، سينتقل إليه محتفظاً ظاهرياً بنقائه الأصلي. لكنه مع الوقت، فقد كل رغبة ممكنة باقتناء البزة. إذ لم يكن ضمن أولاد مبنانا، من هو فتى كشافة، ولم ينضم أحد إلى هذا السلك *أبداً*. ولهذا فإن رغبته لم تتحقق، لأظل أنا، صبي الكشافة الوحيد الذي عُرف في شارع وست ناينث.

تذكارات
رقاقة من كتلة قديمة

ضالة أبي المنشودة بأن أنال شارة الجدراة كفتى كشافة، منيت بفشل، لم يكن أقلّ من فشل فريق بروكلين دودجرز للبايسبول في نيل كأس الدوريّ سنة بعد سنة، إلا أنه مع ذلك، كان عازماً على أمشي على خطاه في اكتساب شغف بهواية ما- أياً تكن.

فلأبي العديد من الهوايات، وهو شيء مثالي نظراً لظروف الزمان والمكان، إذ لم يكن تتوافر تلك المساحة الواسعة من وسائل التسلية والترفيه المتاحة للصم والبكم اليوم (وعلى الأخص، برامج التلفزة والأفلام على الأقراص المدمجة المرفقة بشروحات وعناوين). وقد برع في كل هواية مارسها أو جربها.

وهو أيضاً ممن يؤمنون بشدة بعوامل الوراثة الجينية. ولذلك، فقد كان تبريره بألا أكتفي بالعثور على هواية، بل والتفوق بها. وبذلك، بدأت عملية تكديس «المجموعات» التي كان أبي المتلهف يجلبها إلى المنزل، والتي بواسطتها، سأشحذ همتي لإتقان هواية ما.

عدتي الكيميائية، الآي. سي. جيلبرت[1]، كانت مضمومة في علبة خشبية بتصميم منفذ ببراعة، بلقّاطة نحاسية خارجية للأمان. داخل العلبة المزودة بمفاصل، والمزدوجة، تبدو للعيان رفوف من المواد الكيميائية المنسقة، بشكل بديع، مع سدادات فلين للجرار والأوعية، وأطباق من أنابيب الاختبار،

(1) مجموعة تحتوي على عزقات وقضبان وبراغ وعجلات وغيرها من الأغراض المعدنية والبلاستيكية والتي يمكن للطفل استخدامها لبناء أشكال مختلفة كأبراج أو سيارات أو منازل أو رجال آليين.. إلخ.

والملاعق الدقيقة، إضافة إلى ورق عباد الشمس[1]، وملعقة الصيدلي. وكان هناك ميزان صغير إنما فعال ومصباح بفتيل يعمل على الكحول.

وفي جانب كل جرة مواد كيميائية، رقعة لاصقة مثبتة، دون عليها اسم غريب عويص التهجئة في أحيان كثيرة: فينول، كلوريد الأمونيوم، كاربونات الصوديوم، فيروسيانيد الصوديوم، كلوريد الكوبالت (لونه جميل)، أكسيد الكالسيوم، والحديديك كبريتات الأمونيوم. أسماء المركّبات الكفيلة بإسقاط الفك من مربضه، زحفت تباعاً عبر صفوف الجرار المرصوفة على الرفوف الخشبية.

كما زودت هذه المجموعة المؤثرة من المواد الكيميائية، بدليل شفهيّ عنوانه: متعة الكيمياء. وقد ظهر في غلافه صبي ماسكاً برقاً صاعقاً في يده.

كانت تعليمات أبي تقضي بأن أقرأ الدليل قبل الشروع بتنفيذ أي تجربة كيميائية. قبل أن يتركني وشأني لأستمتع بهوايتي الجديدة، مطلقاً إشارة «استمتع بوقتك، تجربة كيميائية».

كنت قارئاً سريعاً ولم يمض وقت طويل حتى أجهزت على التجارب الغريبة البالغ عددها مئتين، والتي أكد الدليل إمكانية إتمامها بنجاح بشرط الاستعمال الحكيم لما يلزم من المواد الموجودة في العلبة.

في فترة بعد الظهر تماماً من اليوم التالي، وبموافقة أمي التي ثارت حفيظتها، بنيت «مختبري» في الحمام.

أقفلت باب الحمام عليَّ متصوراً نفسي ذلك العالِم المجنون الذي شاهدته في فيلم الأسبوع الفائت، شرعت بالعمل على «تجاربي».

حولت الماء إلى «خمر»– في الواقع، ماء صافياً إلى ماء وردي اللون.

(1) ورق يستعمل لقياس درجة الحموضة تقريبياً في المواد الكيميائية سواء المصنّعة في المختبر أم الطبيعية.

كما حضّرت سائل الحبر السري، غير المرئي إلا بعد تعرضه للتسخين على مصباح الكحول.

واستنفدت كمية ورق عباد الشمس، محولاً شرائطه إلى ألوان مدوِّخة، بعد تغميس كل شريط ورقي بمادة سمِّيَّة من التشكيلة.

حتى أنني وبمزج أربع مواد مختلفة في أنبوب اختبار، ابتكرت الدخان الذي ارتفع ليلامس سقف الحمام ويعلق هناك ككتلة ضبابية قبل أن أبعثره بالتلويح بالمناشف.

لكن الشعور بالملل دهمني في النهاية– إلى أن تذكرت ذلك الصبي حامل البرق.

وضعت على عجل الدليل جانباً، وتساءلت ما الذي قد يحدث لو خلطت مواد معينة، بحسب لونها فقط وطريقة لفظ اسمها.

بعد مزج قرابة اثنتي عشرة مادة كيميائية ببعضها بعضاً، عرّضت الخليط للحرارة بإشعال مصباح الكحول. ثم اختبأت في الحوض مراقباً من وراء ستارة الاستحمام، اللهبَ الذي شبّ بسرعة تحت الأنبوب المثبت في الرف المعدني. سرعان ما بدأت الخلطة بالبقبقة– ثم الغليان. قبل أن تنفجر!

طبقة الطلاء في سقف الحمام تقشَّرت. صوت انفجار الزجاج كان مهيباً، غير أنه لم يقلقني، فقد عرفت أن لا شيء من هذا كله سيتناهى إلى أذني أمي.

أما الرائحة فكانت شأناً آخر، فقد بعثت كريهة حتى ليخيل أنها احتوت كل رائحة هادس[1] الكبريتية.

نفحة من تلك الرائحة السافعة حُمِلت بخفة لتعبر من تحت الباب، الذي فتح ما إن جذبته أمي بقوة. على أثر ذلك، اندفعت غيمة كبيرة في الهواء نحو غرفة الجلوس، لتحجب كلّ قطعة أثاث في البيت، وتتسرب إلى داخل قماش

(1) هادس: العالم السفلي في الميثولوجيا الإغريقية وهو اسم إله العالم السفلي كذلك.

الأرائك، قبل أن تستقر هامدة في طيات الستائر المعلقة أمام النوافذ.

«*أي شيء بحق الله*»، نطقت إشارات أبي ما إن دخل الشقة من الباب الرئيس ذلك المساء «*هي هذه الرائحة الكريهة؟*».

أخبرتْ أمي زوجها بدقة أن «ابنه» كان يقيم «التجارب». ولم تستطع تمالك نفسها فأضافت «بالضبط كما قلتَ له».

بعد مضي أسبوع واحد على تخلصي من مجموعة آي سي جيلبرت الكيميائية، جلب أبي معه مجموعة آي سي جيلبرت للتركيب.

فتحت العلبة، لأتبيَّن أمامي وفرة من العوارض المعدنية بأطوال متعددة، مع مجموعة منسقة من القطع المعدنية المخرومة والملونة ذات المزايا الشكلية والاحجام المختلفة، إضافة إلى البراغي والعزقات والفَلْكات[1]. إضافة إلى محرك كهربائي وضع في حيّز مميز.

وبالطبع، وككل ما سبق من مجموعات، فقد أُرفِقَتْ المجموعة الجديدة بكتيّب كدليل استعمال. أما غلاف الدليل، فقد أظهر ولداً إلى جوار عجلة حديدية ضخمة، تصل إلى ما فوق رأسه، وقد علقت في أطرافها عربات ملونة. والعجلة ظهرت وكأنها تدور بقوة المحرك الكهربائي.

مرسِّخاً هذه الصورة في ذهني– لكن دون التفضل بأي اعتبار لإرشادات الدليل– بدأت العمل بنشاط على تجميع العوارض والألواح المعدنية.

«فليساعدني الله» توجهت أمي إليّ بالإشارة، وهي تراقبني وأنا أصل العارضة بالأخرى، كيفما اتفق، من دون أن أنظر ولو لمرة إلى كتيب التعليمات. «أنت تذكرني بأبي، ماكس».

كانت هذه مفاجأة. فأنا أعرف أن أمي لا تكنّ مشاعر عظيمة لوالدها،

(1) جمع فَلكة، وهي حلقة رقيقة مطاطية أو معدنية تستخدم لإحكام الوصل أو منع الارتشاح أو التسرب.

سنقول على الأقل إنها مشاعر معقدة. فسيليا، زوجته التي عانت بسببه طويلاً، لم تعش تحت سقف واحد معه حتى النهاية. إذ أُخِذ على يد زوجة خالي ميلتون، ليكمل ما تبقى من سني حياته في ستوني كريك، في كونتيكت– كمكان لا يتشابه وكوني آيلند بالضبط كما غابات هنغاريا قياساً بمساكن جزيرة مانهاتن. أما الشيء الذي رأته فيَّ ليدفعها ولو عن بعد، للتفكر بأبيها، فذلك ما لم أفهمه.

يبدو جلياً أن آخر أعمالي الطائشة قد فتح مسارب فيضان ذاكرتها، معززاً حضور قصة أخرى لوالدها الفاشل، ماكس الغجري، وزوجته العملية أبداً، سيليا، ذات الأنف النحيل، والشفتين المضمومتين، روسية الجمال والتي لم يخف مقدار بغضها له يوماً.

«كان لوالدي ماكس مهنة واحدة في حياته بأسرها»، أشارت إليَّ. «لكن



والدة أمي، سيليا نحو العام 1902.

عمله توقف في أحد الأيام وانتهى به الأمر بدخوله السجن لأسبوع». إشارة السجن واضحة جداً وبمقدور أي كان فهمها: تتشابك اليدان فيما تمتد أصابع كل يد وتتشابك مع أصابع اليد الأخرى لتؤلف فتحات صغيرة، وتختلس العينان النظر من خلف «القضبان». أما ذهني اليافع وسريع التأثر، فسرعان ما كوّن صورة جدي ماكس، محدقاً بسخط عبر القضبان الحديدية للزنزانة، بينما بادلته سيليا نظرة إدانة ادّخرتها له فقط. «دبّر له أحد معارفه عملاً في الحديد الخام، كانوا من قبل يستعملون الحديد الخام في صناعة سلالم النجاة، التي كان طلبها في ازدياد مستمر، لسرعة نمو عمارات الشقق السكنية في بروكلين. ماكس، بالطبع، لم يفقه شيئاً حول إنتاج الحديد الخام، لكن جهله بالشيء، لا يعد نهاية مسألة ما بالنسبة له، بل بدايتها. ولا أعني بالبداية، بداية تعلمه للمهنة، بل بداية إفساده للأشياء، كالبراز».

لدى أمي نزعة لاستعمال إشارات البراز بصورة عرضية، وقد تأثرت بذلك من أبي، الذي لم يكن بدوره يهوى استعمالها فقط، بل يفخر بابتكاره العديد منها في المنزل.

«ولئن لم يتحلّ ماكس بالصبر لتلقي أي إرشادات»، قالت بإشارة «فذلك لأنه يفضل في قرارة نفسه، الاتكال على حدسه الفطري، الغجري، نشأة الغابة. لذلك شرع في خلط أول عجنة من الحديد الخام، مستثمراً معلومات ضيئلة جداً في هذا المجال».

«ولسوء الحظ، اندفع في تلك اللحظة عبر الباب، مالك هذه النسخة المتواضعة من مصنع بيتسبيرغ للصلد، وقد وقع نظره على الغريب غير المنظّم، الذي راح يمزج السوائل نصب عينيه كما لم يفعل أحد من قبل، ليسأله بحزم ماذا يظن نفسه فاعلاً بحق الجحيم.

(أحضّر الحديد الخام، ومن عساك أنت بحق الجحيم؟) أجاب أبي ماكس.

نادى المالك رئيس العمال طالباً منه تفسيراً عن الأمر.

إلا أن رئيس العمال، الذي يجهل الكثير عن أبي، ومزاجه الهنغاري، أخلى مسؤوليته. عندئذ، ما كان من أبي إلا تناول أنبوب رصاص لينهال به على رأس الرجل. لم يكن ليتساهل إزاء تعرضه لأي نوع من الغبن. وبينما رئيس العمال مغمى على الأرض لا يحرك ساكناً، والمالك يحدق ذاهلاً بأبي الساهم، قال ماكس، وبكثير من الكرامة– كما أخبر سيليا لاحقاً– (أنا مستقيل!) وأضاف، (ولتفعل أقصى ما بوسعك). أمرت الولاية بأسبوع سجن عقاباً له على فعلته. أسبوع بدا خلاله متفاخراً بأن يسجن من أجل قضية عادلة.

لم يعمل بعدها لحساب أحد. فعوضاً عن ذلك، قرر السير قدماً في مسيرته مصنفاً نفسه، صاحب حرف يدوية متخصصاً ومحترفاً. مخيلته تجاوزت حدود مهاراته بأشواط، هذا إن استحوذ على النزر اليسير من المهارات، فهو افتقد القدرة على التمهل لاكتساب المزيد. وهنا، تذكِّرني أنت به».

«بالتناوب، عمل ساقفاً ثم سمكرياً» أكملتْ أمي، «أما عمله ساقفاً، فقد كان يقيس السقف بالاتجاه المعاكس ماشياً إلى الوراء. وسمكرياً، فكان يفتح صمام أنابيب الغاز بدلاً من إغلاقه، ما يتسبب بتسرب الغاز في الحي بأسره».

نحن الآن على مشارف المساء. سيصل أبي المنزل آتياً من العمل في غضون ساعة. وبالنسبة لأمي، حان وقت بدء تحضير وجبة المساء. قُطعت حركة يديها في منتصف الجملة لتعلقا في الهواء مضاءتين بالإنارة الرمادية، مفكرتين.

«نعم، بطريقة ما، فأنت رقاقة منتزعة من كتلة قديمة».

-16-

متنمّر بروكلين

فريدي كان المتنمّر في حيِّنا، ولعنة وجودي. مصدر ألمها وخرابها. كان أكثر الأولاد غضباً في الحي بأسره، وربما الأكثر غضباً بين جميع أولاد بروكلين. كان يظل مسعوراً من شروق الشمس حتى غروبها. فكل ولد في الحي عدو طبيعي له. استغربنا بعض الأحيان هذا السلوك. فما الذي يدفع بفريدي إلى هذه الدرجة من الحنق؟ ما الخطأ الذي ارتكبناه بحقه؟

ولولا سرعتي، لتمكن فريدي من القبض عليَّ في سباقات الجري، التي درجت العادة على إقامتها أسبوعياً، في أول المساء. كنا نجري على العشب وممرات حديقة «سث لو» العامة، خلال مدة وجيزة، أي فترة ذهابي إلى اجتماعات سلك الكشافة وفق رغبة أبي. ولئن كان الوشاح الأصفر الكريه يطير فوق كتفي مما جعله يكسب، فلكم تمنيت لو أنني أطول بأربعة إنشات وأزود حجماً بثلاثين باونداً. إلا أنني لم أكن كذلك. وإدراكي لهذا الواقع دفع بي لزيادة سرعتي درجة، تاركاً فريدي يلهث خفي، وقد نجوت بجلدي سليماً مرة أخرى.

هدفُ فريدي، غير المتحقق إذن، هو أن يباغتني على حين غرة ليُعمل فيَّ «الكيّ الهندي»، عقابه الشائن. فإن قبض على صبي، ودائماً يكون صبياً ذا حجم أصغر من فريدي، ترى يديه الشبيهتين بعرقوب خنزير وقد أمسكتا بأكثر المواضع ليناً من ذراع الصبي، ثم لُفّت الذراع على نحو تتجه معه كل يد سمينة في مسار معاكس لليد الأخرى. أما النتيجة، فهي نفسها: عويل هائل من ألالم للصبي سيئ الحظ وساعد أحمر كأنما تعرّض للشي على موقد بنسن[1].

(1) موقد بنسن: يستعمل على وجه الخصوص لتسخين المواد الكيميائية وتحفيز التجارب داخل المختبرات.

وإن لم يؤد الكيّ الهندي الغرض في حَثِّ الصبي على التماس السلام، ينتقل فريدي إلى عقابه التالي، الضرب ببُرْجُمَته: وخزات قصيرة، وحادة يكيلها على الرأس ببرجمته، والتي بعكس يده، دون شحوم وبالتالي فهي مدببة على نحو تام. أما الولد المسكين، فبعد تلقيه هذا الضرب، يُلاحظ، وبشكل يثير الفضول، بروز كتلة في رأسه، غالباً بحجم بيضة. وهذه عاقبة وخيمة من عواقب إلقاء فريدي القبض عليك.

وبما أنني، ودون أولاد الحي جميعاً، الوحيد الذي أمكنه الفرار من خدمات فريدي هذه، فقد اكتسبت مكانة خاصة في قلبه الحقود. إذ لم يفلح في الإمساك بذلك الولد دائم النجاة منه. أما اذا حدث وعلقتُ في زقاق أو ما شابه، فسرعان ما أراوغ برشاقة مستخدماً سرعة بديهتي مفلتاً من براثنه بأمان. وهذا ما كاد يفقده صوابه، خصوصاً أنني فور ابتعادي عن متناوله، أشرع في الضحك عليه والتهكم. وقد أُثبِتَ لي في ما بعد، أن هذا سيكون سبب هلاكي.

لكن فريدي لم يكن ولداً غبياً. صحيح أنه سمين بعض الشيء وربما أخرق، وبطيء في الجري، لكنه ليس متبلد الذهن. وكوني دائم الفرار منه، لا يلغي احتمال أن يجد طريقة للإمساك بي تنم عن تفكير عميق. ولهذا، فقد ابتدع خطة ليخرس تهكمي المهين، ولينهي وسائل نجاتي المخزية له.

سطح مبنانا المغطى بورق القطران، لا يمكن بلوغه إلا من خلال باب معدني ثقيل، وهذا السطح كان كما أسلفتُ، حديقتي الخاصة، المكان الأوحد في حيِّنا البروكليني الضاج، حيث يتسنى لي الانفراد بنفسي. وقد احتفظت بنسخة من المفتاح الذي يقفل به الباب. كان ذلك المفتاح أثمن ما أملك. فبواسطته، أنأى بنفسي عن الضجيج المستمر والنشاطات المتواصلة التي يضجّ بها مبنانا. وأجلس، بظهري المسنود إلى أسفل الجدار القرميدي، أقرأ كتاباً، أو أطرح على نفسي أسئلة تتعلق بحياتي، أو أكتفي فقط بتأمل الغيوم السابحة في

عرض السماء الزرقاء فوق بروكلين. ومن على ذلك السطح، سطحي، وفي يوم صاف حقاً، أستطيع أن ألمح المحيط الأطلسي، العاكس لأشعة الشمس الصباحية، متمدداً على بعد أميال قليلة، إلى جوار كوني آيلند.

ولا حاجة للقول، إنني أحجمت أحياناً عن أخذ الحيطة والحذر خلال تأملاتي الحالمة تلك، إلى أن حانت ساعتي المشؤومة بعد ظهر أحد الأيام هناك.

ففريدي، كان قد راقب تحركاتي ودرسها على مدار أسبوع، مما سهل عليه التخطيط للقبض عليّ بغتة. ولئن لاحظ بإمعان اختفاءاتي المفاجئة والتي لا تفسير لها، فقد تبعني بصمت أثناء صعودي إلى السطح.

وبشكل عام، فأنا وبعد أن أطأ السطح، أقوم بإقفال الباب بالمفتاح، ولئن كنت في ذلك النهار على عجلة من أمري لقراءة كتاب جديد، فإنني أغفلت فعل ذلك.

ولاستغراقي التام في مأزق كانت تواجهه الشخصية الرئيسة في الكتاب، أخفقت في سماع فريدي ينسل نحوي. لكن ما إن التقطت أذناي صوت خطوات حذائه الرياضي، فوق السطح المفروش بالحصى، حتى كان قد فات الأوان.

قفزت في مكاني، وقذفت رأسه بالكتاب الذي تجنبه بشكل آلي، ومن ثم جريت هارباً. كان كتاباً سميكاً اشتمل على عدة فصول ومغامرات. وبما أنني اعتدت على قراءة مجلات مصورة خفيفة لا قيمة لها، فقد حُدِّد الآن مصيري.

كانت نجاتي من هذه المصيبة قصيرة الأجل. اندفعت مسرعاً نحو باب السطح، ليتضح أن فريدي قام بإقفاله. ركضت مجدداً، كجرذ مخبول داخل متاهة، في كل أرجاء المكان. عبرت الملاءات المنشورة على حبال الغسيل، ودرت حولها، وحول المداخن الثنائية، وحول فتحات التهوئة الغزيرة الناتئة

والتي برزت من خلال السطح، ولازمني فريدي كظل في تلك المطاردة.

لكنه، بعض مضي وقت، كان لا بد من أن يحشرني في زاوية. فعلقت.

لا أذكر بعد هذا، إلا أنني متدل فوق حافة السطح، ورأسي إلى الأسفل.

وللغرابة، لم أشعر بخوف. كنت مفتوناً بشكل غير مألوف، وقد تراءت من تحتي، طوابق البناية الستة. فبوضعي الجانبي، مُنحت مجال رؤية كعصفور، فوق حبال الغسيل التي امتدت خارجة من نافذة في كل شقة. لو قرر فريدي أن يفلتني في تلك اللحظة، لارتطمت بحبال الغسيل لأرتد عنها، كما ترتد الكرة الفولاذية عن المصدات في لعبة الفليبرز، قبل أن تنهي رحلتها– بالخروج في شق صغير في الآلة– دون الإصابة بخدش. هذا ما تبادر إلى ذهني. لكن وبما أنني لست كرة من الفولاذ، ومن غير المرجح خلو الأمر من الخدوش، فقد نبذت هذه المقارنة من حسباني.

وبفضل مخيلتي المدهشة، فقد مثلت من تلقاء نفسها، وبوضوح، صورة جديدة في ذهني: أثناء سقوطي، أعلق داخل واحدة من حمالات الصدر الضخمة المتدلية من حبل السيدة أبروموفيتش.

الجدير ملاحظته، هو كيف يجمّد إحساس المرء بدنو أجله الأفكار في رأسه. كنت أستطيع مشاهدة السيدة أبروموفيتش، بسحنتها المصدومة، بعد أن سحبتني ببكرتها، جاهلة الأمر، مع الثياب المغسولة. غذت هذه الصورة فيَّ الشعور بالتسلية، فانفجرتُ مطلقاً ضحكة.

الضحكة هذه كانت خلاصي. فقد سمعني فريدي، وظن أنه أخفق في كسر شوكة سلوكي الساخر منه. ولأنه لم ينو قطّ إسقاطي (آمل ذلك)، فقد عاود رفعي نحو السطح.

بعد هذه الواقعة، لم يتعرض لي فريدي بمضايقة مطلقاً. فبينما قدم أسوأ ما لديه، أطلقت ضحكة في وجهه. هو لم يصادف مثل هذه الشجاعة من قبل.

أما أنا فنجوت من امتحان مجنون لا يجهّزك لمثله إلا فريدي. لأصبح موضع حسد كل أولاد البناية.

-17-
شلل الأطفال

سجّل عام 1945 أعلى معدلات الإصابة بشلل الأطفال في أمريكا. ولذلك، أرغمت كل أم في بروكلين، حلقوم أطفالها، على جرع كمية من زيت كبد سمك القُدّ. أما السائل المقزز، القذر، الغليظ، الزيتي، سمكيّ الرائحة فكان يعلق بشفاهنا، ويكسو ألسنتنا ويلبث لساعات في حناجرنا. كان من المستحيل التخلص من الطعم، لذلك استسلمت نفوسنا لواقع أنه سيزول من تلقاء نفسه، وفي الوقت الذي يحلو له.

«إنه مفيد لك»، تشير أمي غاضبة بسبب تمنّعي يومياً، فترغمني في الغالب على فتح فمي لجرع حصتي من السائل. كرهت السمك أكثر ما كرهت، وازدريت زيت كبد القد، المنتجَ الجانبي للسمك، الأكثرَ هلاكاً بين كل ما ابتكره الانسان– الشر النقي المقطّر مخبرياً.

ولئن كان أخي، من ناحية أخرى، معتاداً على تناول الدواء كل يوم للجم نوباته المرضية، فإنه لم يجد مشقة في جرع زيت القد وربما وجد طعمه مناسباً.

«إنه يؤذيني أكثر مما يفعل بك»، توجهت بإشارتها نحوي بعد أن تجرعنا الكمية اليومية من الدواء.

وذلك قبل أن تُنهي النقاش بالضربة القاضية: «أتريد أن تصاب بشلل الأطفال؟».

كان موضوع شلل الأطفال يتردد بصورة يومية على مسامعنا، نحن، أطفال بروكلين، من الجنسين، خاصة في الصيف. فالصيف بالنسبة لنا، كان فترة ذهبية، وأيامه رائعة خالية من الهم. فنهاره متصل بسلاسة باليوم الذي يليه.

إلا أن الحال اختلفت كلياً بالنسبة لوالدينا: «لا تتعرض للحم أكثر مما ينبغي. أتريد أن تصاب بالشلل؟» (وهذا يتبع دوماً وبشكل ثابت بالجملة التالية «هذا ما حصل للرئيس روزفلت عندما كان لا يزال في مقتبل شبابه. أتريد أن تُجلَسَ مثله على كرسي مدولب لبقية حياتك؟) «لا تنزل إلى الماء مباشرة بعد الأكل. سوف تصاب بتشنج معوي وتموت. وإن لم يحدث هذا، فستصاب بشلل الأطفال». «ابق بعيداً عن الحشود لئلا تصاب بشلل الأطفال». «لا تتسخ. ستصاب بشلل الأطفال». «لا يمكنك الذهاب إلى السينما هذا السبت. هناك فتى في المبنى المحاذي أدركه شلل الأطفال». «لا تشرب من النافورة العامة. ستصاب بشلل الأطفال». «توقف عن تناول الطعام إن حطت ذبابة عليه، لئلا تصاب بشلل الأطفال». لا تفعل هذا. لا تفعل ذاك. ومن بعدها الكلمات النهائية اللعينة: «هل تريد أن ينتهي بك الأمر برئة حديدية[1]؟»

ولأنها أرادت التشديد على أن مسألة المرض ذلك، هي ما يقف وراء تلك السلسلة اليومية من المحظورات واسعة النطاق التي فرضت علينا، لم تكتف باستعمال الإشارة العادية لـ(*لا تفعل*)، بل وظفت أمي إلى جانبها إشارة أخرى تحمل المعنى ذاته. فإشارة لا *تفعل* البراغماتية هي محل استخدام أمي يومياً لدواع اعتيادية، مع قيامي بأعمال تؤثِر ألا أقوم بها- نفض إبهامها من تحت ذقنها. وكي لا تدع مجالاً للنقاش، وللتأكيد، استعملت إشارة لا *تفعل* بيدين متقاطعتين، مصوِّبة باطن كفيها في وجهي، وقد أخذت راحتاها تنفصلان ثم تتقاطعان من جديد، فيما لم تحد عينيها عني، وعلى وجهها، أشد عبوس استطاعت تكوينه.

يُحفظ هذا التعبير الصارم على وجهها إلى أن أسلِّم بصحة تحذيراتها باعثاً

(1) الرئة الحديدية: جهاز حديدي يوضع فيه الجسم ويترك الرأس والعنق مكشوفين، ويستعمل لمساعدة المرضى الذين يعانون قصوراً في العضلات ولا يستطيعون التنفس، وقد استخدمت بكثافة بين عامي 1940 و1950 فترة تفشي شلل الأطفال.

فيها الرضى– ولا أفعل هذا بمجرد إيماءة موافقة من رأسي أو هزة بالقبضة المتجمدة ليدي كإشارة على الموافقة، وإنما وإلى حد لافت للنظر، بتهجئة أصابعي «حسناً! حسناً!.. حسناً، بالفعل!»

اما إذا، معاذ الله، أصبت بالزكام، أو بآلام في المعدة، فتضعني فوراً في السرير، وإلى أن يزول الزكام أو تختفي آلام المعدة– ويكون عليّ إقناعها بهذا– تظل تحوم فوقي كأنني غُلِّفت بغيمة لطيفة.

إلا أن مراقبة أخي كانت أشد صرامة. فعقب توارد خبر صحفي جديد حول إصابات بشلل الأطفال، تحظر عليه الخروج فتبقيه في المنزل، إلى جانبها، لتنأى به عن اي احتمال ضئيل بالإصابة بشلل الأطفال– أو أي جرثومة أخرى لها علاقة بالمسألة.

لم يعرف أحد كيف يصاب الأولاد بالشلل، لا الطبيب، ولا العلماء، ولا الأساتذة في المدرسة، ولا الآباء. وحتى السيدة بيرنبوم، التي تتجسس طوال اليوم على المبنى بأسره، بينما تتكئ خارج نافذة غرفتها، مسندة ذراعيها السمينتين على مخدة، لم تعرف السبب، رغم درايتها *بكل* شيء. قناعة الآباء باعتبار الحرارة الحاضن الأعظم لجرثومة الشلل، كانت شائعة؛ ولذلك شهدوا أيام الصيف الذهبية بتنبه خاص للخطر. فكلما هبطت موجة حر على بروكلين، أودع أطفال الحي غرفهم.

وبينما أستعرض خدعي السحرية على أخي في غرفتنا ذات يوم، تساءلت: ماذا لو أصيب ولد يعاني الصرع، بشلل الأطفال، هل ستتوقف النوبات؟ هل هو سحر؟ كما تساءلت: هل الناس الصم محصنون ضد الاصابة بشلل الأطفال؟ إذ لم أسمع عن أصم أصيب بهذه الجرثومة. لم يصب والدي مثلاً. «لدينا ما نعانيه كفاية دون شلل الأطفال»، حدثني بإشارته ما إن طرحت عليه ذلك السؤال «لربما أراد الله استثناءنا».

لكن الله لم يستثن باري غولدشتاين، صديقي في الجهة المقابلة من الشارع. ففي أواخر الصيف، ومع بدء تلمسنا لإشارات الخريف في الهواء، معتقدين أن الخطر المحدق بنا قد زال مؤقتاً، قذف تيار هوائي حار، البرودة بعيداً. ومع اشتداد موجة الحر الأخيرة هذه، مرض باري. وتحول مرضه إلى شلل أطفال. بت أعرف شخصاً مصاباً بشلل الأطفال.

نُقِل باري إلى مستشفى كوني آيلند ليوضع بشكل فوري داخل الرئة الحديدية. عانى في الأسابيع الأولى، إلا أن حاله استقرت في النهاية. قامت الرئة الحديدية بالتنفس نيابة عنه.

ذات يوم قام والد باري بزيارتنا حاملاً في يده ورقة كتب عليها بخط يده: «يمكنك ومايرون زيارة ولدي إن أردتما. سيروق له الأمر».

في أول سبت بعد هذه الزيارة، استقللنا قطار الأنفاق أنا وأبي إلى كوني آيلند، واستتبعنا ذلك بمشي على الأقدام وصولاً إلى المستشفى. وطوال سيرنا، لم يتكلم أبي بإشارة واحدة معي. فليس هناك ما يقوله ليخفف من هول صدمتي إزاء بلاء صديقي، وكآبتي لما آلت صحته إليه.

كان مستشفى كوني آيلند بالنسبة لنا، نحن الأولاد، موضع الكوابيس المروعة. فقد تناهت إلى أسماعنا من قبل، قصص عن أولئك الذين يدخلون هذا المكان ولا يخرجون منه أبداً. كنا متأكدين أنه المكان الذي يذهب إليه الناس لكي يموتوا. وحين وصلنا، بدا شكل المستشفى أشد رعباً من أسوأ مخاوفي: ممرات مظلمة، باردة، غرف رمادية اللون خالية من البهجة رصت عليها من الحائط إلى المقابل الأسرة المسكونة بالمرضى مريعي المظهر.

أوصلنا المصعد إلى الطابق العلوي، فغادرناه هناك لنلج ممراً مظلماً، ينتهي بعد مسافة بعيدة، بغرفة واحدة واسعة، مضاءة بعدة أنوار تكف البصر، متدلية من علو. وفي الغرفة، رُتِّبَتْ صفوف من الرئات الحديدية، المرصوفة واحدة

تلو الأخرى، في خطوط أنيقة. وقد نتأ رأس في نهاية كل آلة، متوحّداً ومسنداً على مخدة. وثبتت فوق كل رأس مرآة مائلة. فبالنظر إلى المرآة، يمكن للمريض رؤية ما يكمن تواً خلفه.

وبفضل مرآته، رآني باري. وبان لي وجهه المقلوب في المرآة ذاتها- فتنبهت إلى ابتسامة علت شفتيه.

رأسه وحده كان مرئياً لي. أما ما تبقى منه، فكان داخل الرئة الحديدية.

كانت زيارتي له مثمرة. فقد أخبرته بكل ما حدث في حينا منذ أن أصيب بالمرض (تحاشيت ذكر كلمة *شلل الأطفال*، ولم ألفظها ولو مرة.) وبعض ما أخبرته إياه دفعه إلى الضحك.

أخبرني أن بإمكاني ركوب دراجته الهوائية حينما يعود إلى المنزل.

ثم دخلتْ بعد قليل ممرضة، لتواكبنا إلى الخارج، «هذا الصبي يحتاج إلى الراحة».

ودع كل منا الآخر، وما إن هممت بالمغادرة حتى قال: «هل تعلم، إنني مصاب بشلل الأطفال».

خلال عودتنا إلى المنزل، وكنا لا نزال في عربة القطار، أشار أبي مبدياً أسفه «مسكين، ولد مسكين».

لكنه تلا ذلك بإشارات فوجئت بفحواها: «عرفت الآن لماذا لم أسمع بأصم أصيب بشلل الأطفال». صمت، متأملاً. «لم يكن الله ليبتلي أصماً بهذا المرض. فكيف سيتمكن عندئذ من النطق، إن خُبِّئت يداه في الرئة الحديدية؟ بأي وسيلة سيعبر الشخص الأصم عن خوفه ويداه مكتومتان؟»، ولم يضف إلى ما قاله إشارة واحدة حتى بلوغنا المنزل.

أمطرت كل يوم تقريباً خلال ذلك الخريف. دراجة باري استقرت في شرفته، حيثما تركها بعد ركوبها آخر مرة، استقرت كتذكار صامت به. لم

تتزحزح من مكانها طيلة فترة المطر، ومع بدء موسم الشتاء، أضحت مكسوة بالصدأ. وعقب أول تساقط للثلوج، اختفت بصورة تامة تحت طبقة من الثلج، عنى ذلك الآن، أنه بالنظر إلى شرفته البيضاء الصامتة فور خروجي من المنزل في الصباح، فإنه لن يكون ثمة داع أن تثب إلى ذهني مجدداً، تلك الصورة لباري في رئته الحديدية، عاجزاً عن ركوب دراجته.

إلا أن أبي لم يكف، طيلة الشتاء، عن التفكير بشلل الأطفال، كما بالرب الذي سيضرب الابن الصغير مايرون بالشلل.

لكن الرب لم يثر اهتمامي بالطريقة التي قدم بها في المعبد الخشبي المهلهل القريب من سكننا، برائحته الكريهة، والرجال غرباء المظهر، الذين يستحيل نسيانهم بزيهم القماشي الأسود طيلة أيام السنة. فتلك الاجتماعات الغامضة والخصوصية هي عالم جدي لأبي، ولا تمت لي بصلة. عالمي هو *اللحظة* المعاشة في حي بروكلين الآن، وليس منذ خمسة الآف سنة.

إلا أنني لم أدرك أبداً شعور والدي تجاه هذا الموضوع. فعائلتي لا تقيم شعائر السبت. ولا نلتزم بشعائر أيّ عيد يهودي، كالعديد- وليس الجميع- من أصدقائي اليهود. ورغم أن أبي أدى شعائر البار ميتزفا[1]- تجربة كانت بالنسبة له، مبهمة تماماً- إلا أنه لا يفقه شيئاً عن الصلوات. فهو بعيد كل البعد عن الطقوس الأسبوعية في المعبد المجاور، كما لم يحضر يوماً طقوس الأعياد الكبيرة. ما الهدف من هذا؟ فهو لا يستطيع إنشاد التراتيل، ولا قراءة الكلمات. فالرب لم يكلمه، وحتى إن فعل، لن يسمعه والدي. إذ إن التعابير العبرية القديمة، ليس لها مترادفات في لغة النطق بالإشارة.

(1) يدخل اليهودي سن الوصايا ما إن يبلغ عامه الثالث عشر. فيقام له حفل ديني يسمى «بار ميتزفا» (bar mitzvah). وفي الطوائف اليهودية الأرثوذوكسية، يقام الحفل للفتاة عند بلوغها الثانية عشرة ويسمى «بات ميتزفا» (bat mitzvah). وتتضمن الشعائر تلاوة الصبي أو الفتاة مقاطع من التوراة، وذلك في المعبد.

تحدث أبي إليّ بشؤون عدة، ما عدا الرب. لكنه، ذات يوم، دخل علينا عائداً من عمله باكراً على غير عادته. فقد ضربت المدينة عاصفة ثلجية، ولهذا صرف العمال بعد نصف دوام بعطلة مدفوعة الأجر، فالورق استنفد بالكامل، ومخزون موجودات ورق الطباعة بقي في الشاحنات التي تقطعت بها السبل وسط أكوام الثلج شمال المدينة. جريدته كالعادة ملفوفة تحت إبطه، لكنها لا تفيض أخباراً فليس هناك أحداث رياضية (بسبب العاصفة الثلجية)، ولا تقارير عن جرائم الليلة السابقة في بروكلين (للسبب ذاته على الأرجح)، أما الحرب، فثمة أخبار قليلة عنها (لحسن الحظ). ولئن افتقد الأخبار التي تشكل خميرة نقاشنا اليومي عادة، ولأنه في مزاج غير قابل للتفسير، شرع ذلك النهار، في حديث فردي، مونولوج متلعثم حول دور الرب في حياته.

«كان والدي في وطننا الأم، رجلاً شديد الورع»، أشار لي، «وفي الوطن



أبي في البار ميتزفا

الأم كان أبوه قائد جوقة الترتيل. أخبرت في طفولتي أنه كان لأبي ملكة صوتية جذابة. لديّ بعض ذكريات بهذا الخصوص، لكنني أعجز عن سبر غورها عميقاً. أتذكره يغطي نفسه كل صباح بشال، يلف ذراعه وجبينه بالتفيلين[1]، المحفوظ في حقيبة من المخمل عنابية اللون، وقد طرزت فوقها أحرف عبرية بخيوط من الذهب الثقيل». إشارته لـ «عبرية» كانت واضحة: اليدان تهبطان عن ذقنه بحركة مكررة، تفتحان وتغلقان فتمسدان لحية طويلة متخيلة. «ثم يبدأ أبي بالتمايل منحنياً إلى الأمام، فيتكلم مع أحد، أحد ما لا أراه، يكون موجوداً في الغرفة معنا. أبي كان يتكلم، لا شك في ذلك، فشفتاه تتحركان وتتحركان وتتحركان».

«كنت يقظاً بشأن أبي باعتبار أنه يهودي، لكنه لم يضمني إلى طقوسه اليومية. وكيف له أن يفعل؟ فنحن ما تحدثنا مرة. وما تقاسمنا لغة حقيقية. بقي الرب مبهماً بالنسبة إليّ طيلة حياتي. وما زال. كأي شأن آخر بالنسبة لنا نحن الصم، فالحياة أحجية، وعلينا القيام بجمع آلاف القطع لإكمال المشهد». خلال قوله الأخير، كانت أصابعه تدور حول بعضها بعض، وكأنها ترتب قطع أحجية بطريقة معقدة أو متشابكة، أحجية لصورة عملاقة متملصة من شكل محدد. ثم أخذ يحدق فيَّ ساهماً. «أحياناً أعاتب الرب لأنه جعلني أصماً، دون أخواتي وأخي. لماذا؟ كنت مجرد طفل صغير. ما الذنب الذي اقترفته؟ لم أفهم أبداً. أنظر الآن إلى صديقك باري. مجرد ولد لطيف. يبتسم دائماً لي، ويحاول أن يحييني بالإشارة. لن يعود بمقدوره اعتلاء دراجته مجدداً. لماذا قد يفعل الرب أمراً كهذا؟ ولماذا يجعل من أخيك، الولد الرائع الجميل الذي لم يؤذ أحداً، مصاباً بالصرع؟ لماذا ابتلاه الله؟ وهل يراه حين يقع أرضاً؟ وهل يهتم لأمره

(1) التفيلين tefillin ويسمى تميمة الصلاة. سلسلة من الأحزمة الجلدية والمكعبات التي تحتوي على بعض الكتابات المقدسة بحسب الديانة اليهودية، وتستعمل كحماية أو حصانة إلهية من الأخطار.

حين يعض لسانه ويتطاير الدم من فمه؟».

لم ينتظر جواباً مني. جلس إلى طاولة المطبخ مطرق الرأس. قرأت ذلك على وجهه وفي هبوط كتفيه. جعل يحدق ساهماً، ضائعاً في متاهة أسئلة لا إجابات عنها، إلى ان استعاد تركيزه ببطء. أخذ ينظر إلي بأغرب تعبير رأيته يوماً على وجهه، في حين دبت الحركة في يديه.

«لكن حين أجدف بالرب، أفكر بوالدتك سارة. أفكر بك وبأخيك. أفكر بأن هذه الأحجية ستبقى إلى الأبد، معدومة الإجابة».

تذكارات:
نهاية رئيس

في الثاني عشر من أبريل عام 1945، توفي الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت بغتة، في وارم سبرينغز بولاية جورجيا. بدا وبشكل متزايد طاعناً في السن، مرهقاً وحزيناً مع استمرار الحرب. ولئن كان الرئيس الوحيد الذي عرفته، فقد صُدِمتُ لخبر موته. في ذلك المساء، أحضر أبي الجريدة إلى المنزل. وبعد العشاء، أشار ناطقاً العنوان العريض في الصفحة الرئيسة: «ف. د. ر مات». كانت إشارته منضَّدة وسوداء، تماماً كتنضيد وسواد العنوان الرئيس المطبوع، ويداه حزينتين في حداد. «كان مُقعداً. أصيب بالشلل في شبابه. وإلى حين إصابته، كان كأي شاب آخر». صمت بعدها. «وأنا، كنت كأي ولد آخر، إلى أن مرضت. شُلَّت أذناي بعد ذلك. بالضبط كما شلت قدماً الرئيس. لكن انظر ماذا فعل ف. د. ر. ربح الحرب».

ثم بكى. كانت تلك أول مرة أراه فيها يبكي. ولم يصنع قبعة ورقية من الصفحة الأولى للجريدة تلك الليلة.

-18-
الصبيّ يغدو رجلاً

في السادس من أغسطس 1945، أسقطت طائرة أمريكية واحدة قنبلة واحدة على مدينة هيروشيما، لتمهد بذلك لنهاية الحرب العالمية الثانية.

لكن قبل شهر من هذه الواقعة، في اليوم الذي دخلت فيه عامي الثاني عشر، ألقى أبي قنبلة عليَّ. إذ أعلمني بوجوب إتمامي شعائر البار ميتزفا العام المقبل، حالما أبلغ الثالثة عشرة. الأنباء صاعقة بالضبط كما أنباء قنبلة هيروشيما الذرية. بار ميتزفا؟ عجباً، منذ متى يكترث أبي للطقوس التقليدية في الديانة اليهودية؟ فقبل أن يتحدث معي عن حسه بالاغتراب عن الرب، لم يتبلور عندي أي انطباع، حول احتلال مسألة الدين حيزاً، سواء سلباً أم إيجاباً، من أفكاره.

فهو ورغم كونه ابناً لوالدين يهوديين، إلا أن نشأته افتقرت إلى منهج الديانة اليهودية، اللهم إذا أخذنا بعين الاعتبار البار ميتزفا الزائفة التي أداها. فبحسب روايته، لا يذكر نفسه إلا وهو يرتدي وبصورة مبهمة، تلك البزة والقبعة، ذات سبت، مرافقاً والده إلى المعبد المحلي قبالة الشارع. دُفع هناك ليعتلي المنصة الخشبية، حيث وقف بشال غطى كتفيه، وقبعة رجل ما استقرت على رأسه. ثم أخذ يراقب بإمعان ما يجري حوله دون أن يفهم شيئاً، وقد وقف قبالته حاخام ذو لحية رمادية، وشفتين مشعرتين، تحركتا بسرعة ميل في الدقيقة.

«لم يكن لدي أي فكرة» قال «حول ما يجري. عجز الجميع عن تفسير الأمر لي، ولم يكلّف أحد نفسه عناء المحاولة. وكمعظم ما عشته، صبياً في عالم السمع، فإن لا شيء مما اختبرته بدا منطقياً».

علل جدي المسألة على النحو التالي، ابنه الأكبر لا قدرة له على السمع، ولذا، فهو غير قادر على مشاطرتهم الطقوس الدينية الرسمية. ألم يذكر موسى

في التوراة وهو يعلم الكهنة «اقراوا على مسامعهم؟» فكيف لابنه الأصم أن يسمع تلاوة التوراة؟ وبما أن الرب لا يتكلم بالإشارة، فكيف سيعرف الله بطاعاته؟ ولذلك، حظي أبي بطقوس البار ميتزفا بصورة صامتة، كان حفلاً أبكماً، فارغاً من أي مغزى. قال إنه أخيراً وفي خضم تلك الطقوس، لاحظ أباه والدموع تنهمر على وجهه، لتختفي في لحيته. دموع فرح أم دموع حزن؟ لم يتبين أبي ذلك.

لكن أبي الآن يبدو مصمماً، وهي مفاجأة لكلا الجانبين من العائلة، أن يتمم ابنه البكر، حفيد الجدين الأول، مراسم البار متزفا. سيثبت لهم جميعاً، ورغم كونه أباً مبتلى بالصمم، بأنه يعرف كيف يربي ابنه صحيح السمع، وفق السائد، وبأنه، كيفما قيست المسألة، أب صالح كأي أب سليم السمع.

أمضيت الفترة المتبقية من تلك السنة، وهي حقاً الفترة الأطول في حياتي اليافعة، متحملاً دروس البار ميتزفا الأسبوعية. كانت سنة كئيبة من الروتين الببغائي، والتراتيل غير المفهومة المؤداة على وقع نغمة قضيب القصب في يد الحاخام، وهو يقرع طاولتي، كما والضربات العنيفة المتقطعة والموجهة بدقة نحو براجم يدي كلما تلعثمت في صفحة من الصفحات المغمة. كدحت لأشق طريقي غير المتميزة لإتمام دروسي، وألفيت التجربة عذاباً مطلقاً.

وعندما اعتليت في الختام منصة معبدنا المحلي لأقرأ ما يتوجب عليّ من التوراة، وأتبع ذلك بتلاوة خطبة «اليوم وأنا رجل»، ابتهج وجه أبي مبتسماً لي في الصف الأمامي بين جماعة المصلين، وقد تألق على وجهه اعتزاز علني- اعتزاز لم ينتقص منه واقع أن لا شيء مما تَلَوْتُ، تناهى إلى سماعه. استُحِق الجهد الذي بذلته. يداه ظلتا قابعتين في حضنه، لكنني قرأت على وجهه كل ما شعر به. وكما فعل أبوه تماماً منذ سنوات طويلة، كذلك أبي، بكى في سره.

أما أنا، ولد البار ميتزفا، فالفائدة التي نشأت عن هذه التجربة، نتيجة



أثناء إتمامي البار ميتزفا، 1946

اضطراري الانطلاق بخفة لإنجاز التمارين الدينية، كانت زيادة مذهلة في سرعتي. أضحيت سريعاً كالريح.

فبحسب التقاليد اليهودية، بت كـ«رجل يهودي راشد» مؤهلاً لإكمال عدد العشرة رجال، المطلوب لصلاة الجماعة، ضمن الطقوس اليومية المقامة في المعبد الذي لا يجذب إليه الرقم المطلوب من المصلين. وهكذا، في منتصف مباراة كرة قدم في حينا، غدوتُ وأصدقائي، نُقاطع فجأة بثمانية مصلين خفيفي الحركة، أرسلهم الحاخام لتمشيط الحي بحثاً عن ولد البار ميتزفا لتكتمل شروط الصلاة الجماعية: فأنا آخر أهدافهم الحديثة. كنت أسمع تقريباً الهمسات المتحمسة، لأولئك اليهود الورعين، رشيقي الخطوة رغم كبر سنهم، وهم يقتربون باحثين عن أحد ما بأعين تستقر في النهاية عليَّ: الصبي الذي صك حديثاً في بار متزفا. أما أنا، فلم ينحسر يوماً حجم وثبتي الأولى، تلك

الياردات التي تقطعها قدماي بحذاء الرياضة، تجنباً لذوي المعاطف الطويلة السوداء المرفرفة في مطاردة حامية. كانوا بشكل لا يصدق، سريعين، لكنني نجحت بالإفلات منهم. ومع الوقت، رُكِّزت غاراتهم على صبيان الميتزفا الأحدث، والأبطأ.

وبما أنني الآن «رجل» فقد كبرت بصورة رسمية. لطالما شعرت في طفولتي بكبر سني، لما للأمر علاقة بدوري مفسراً لوالدي في عالم السمع، وها أنذا أرغم بشكل رهيب على الكبر، لينظر إليّ باعتباري ناضجاً دون اعتبار لسنوات عمري الحقيقية. لكنني كنت جديراً بذلك.

فبالنسبة إلى أبي، أنا غير ناضج إلا إذا دعت الحاجة. وغالباً ما أكون طفلاً له. حين نصادف موقفا أصماً في عالم السمع الخارجي، يحين دوري لأتحول بشكل اضطراري إلى أداة في يده تتناسب وحاجته لناضج. وأعود طفلاً بعد أن ينتهي الأمر.

هذه التحولات كانت مدوِّخةً- طفل- ناضج- أداة- طفل- عرضاً حقيقياً للمشي على سلك مرتفع، لا أجرؤ على النظر تحته خوفاً أن أقع. وواقع أنني غدوت رجلاً، كما أعلن الحاخام، لا يشي بأي تغيُّر البتة.

حين بلغ أخي الثالثة عشرة، لم يقام له حفل البار ميتزفا. فتمسُّك أبي الهش بالدين، وإحساسه بنفسه والداً يهودياً، قُذفا كلياً داخل البار ميتزفا خاصتي. والمناسبة تلك أرست القطيعة مع أي اتصال شكلي بربه الغامض (إلى أن ووري الثرى بعد اثنين وأربعين عاماً في المقبرة اليهودية في بروكلين إلى جانب والده ووالدته في يوم ماطر بارد). فقبل ذلك، لم نقم صلوات السبت، كما لم نشارك في أي طقوس دينية بمناسبة الأعياد الكبيرة في المعبد الخشبي القريب. وبعد إتمامي البار ميتزفا، لم أحضر للمشاركة في أي من طقوس صلوات السبت، طيلة سنوات عيشي في بروكلين.

عرفت بعلاقة أبي المعذّبة مع ربه. وكوني ولداً، لطالما استوقفني صمم والديّ، وكان لدي أسئلتي المشوبة بالحنق، له. وهذه الأسئلة تضاعفت عند رؤيتي أخي وهو يعاني جراء داء الصرع. وأخيراً، كففت عن الاهتمام بالأمر برمته.

-19-
فودفيل في الشارع 86

درجت العادة بعد انتهاء الحرب، على أن نذهب مرة في الشهر لزيارة جدتي سيليا في منزلها الكائن في شارع 86 في بروكلين. كانت أمي تتقدمنا، أبي وأخي وأنا في هذه الزيارات. وفي منزل جدتي، كنت تجد أبناءها وأحفادها متحلقين حول مائدة العشاء ليلة سبت، يتلون صلوات الشكر لعودة خاليّ ميلتون وهاري، سالمين من الحرب. كان ميلتون مظلياً أدى خدمته العسكرية في غابات بورما الكثيفة، وهناك انتهى به الأمر بالإصابة بالملاريا، أما هاري، فعمل بحاراً على متن الباخرة الحربية يو.أس.أس ميزوري، حيث وقعت اليابان وثيقة استسلامها، وقد شهد الحدث بأم العين مباشرة على سطح السفينة. ربحنا الحرب، كما تنبأ أبي. والآن بات كلاهما في المنزل.

ما إن نصل إلى منزل سيليا، حتى تدخل أمي إلى المطبخ- مصدر انبعاث روائح الطعام المذهلة- لتمد يد العون إلى أختها الصغرى، ماري، وتطهو أطايب المأدبة التي استغرق الإعداد لها أسبوعاً كاملاً. فالدجاجة نتفت وها هي الآن في الفرن، ولحم صدرها المنقوع بالخلّ يشوى في المقلاة، ولسان البقرة الضخم يتمدد ساكناً في قدر على موقد الفرن، وكلها بانتظار اللمسات الأخيرة- اللمسات التي ستشكل الوجبة كاملة لعائلة من أربعة أفراد.

أما أخي وأنا، فنسارع في الانضمام إلى أبناء خالنا، الذين وبحكم قدومهم من أماكن بعيدة، يكونون أول الواصلين. قريبي المفضل، كان ابن خالي دايڤد، ستيفان، الذي يصغرني فقط بأشهر قليلة. ليس ثمة ما يجمعني بإيفان، فهو طويل نحيف، فيما قامتي متوسطة الطول وأكثر امتلاءاً. هو أشقر البشرة والشعر، فيما أنا داكن البشرة وشعري أسود غامق. في الصيف، يكتسب جلدي سمرة

التعرض لأشعة الشمس، أما هو فيحترق. كان يسبح بأسلوب أبيه، كالسمكة، فيما أماثل والدي بأن أرسو في الماء. هو مباشر، يتجه انتباهه كلياً أو على نحو شبه كلي نحو ما هو خارج عن الذات، فيما أنا باطني، أتفحص أفكاري ودوافعي ومشاعري. باختصار، عُرفنا صديقين حميمين، بحكم اختلاف أحدنا عن الآخر بشكل تام، وافترضنا أننا صديقان إلى الأبد.

وبينما يلعب أبناء الإخوة، يقوم أبي بالانضمام إلى إخوة أمي، دايفد وهاري وميلتون، فيتناول من غير إبطاء، غليوناً من جيب سترته يعقبه إخراجه لتبغ والنت، تحضيراً لحشوه في الغليون. ورغم كونه أصماً، وجهل إخوة زوجته التام بلغة الإشارة، إلا أن الأمر لا يكاد يستغرق لحظات تبادل التحية معهم، حتى ينغمس الكل في مناقشة– بطريقة ما. و«المناقشة» هذه، تسري وفق إشارات مضخمة الشكل تقدَّم من جانبهم، وتخمين محض وقراءة شفاه من جانب والدي. أما سوء الفهم الناتج عن مساحة «النقاش» هذه، فكان أمراً مضحكاً، بل فاق ذلك، لأن أبي المتمتع بحس الفكاهة في سره، بالغ في إساءة استخدامه للألفاظ.

السياسة، كانت موضوعاً ذا أهمية خاصة لأبي وميلتون، أصغر إخوة أمي. وبسبب الضائقة المالية التي غلفت طفولته في كنف العائلة، خلال الكساد الكبير، فقد اعتقد جازماً بأفضلية المجتمع الاشتراكي، المنتهج المساواة، مقارنة بالنظام الرأسمالي الذي ينهش فيه البشر بعضهم بعضاً كالكلاب. كانت تلك أفكاره حتى قبل أن يخوض غمار الحرب في إسبانيا، لإسقاط نظام فرانكو، ضمن لواء إبراهام لينكولن. أما دايفد وهاري، فلم تثر السياسة يوماً اهتمامهما. فدايفد، الأخ الاكبر لأمي، اكتسب سمعة واسعة النطاق في بروكلين إذ عرف بـ«دوق كوني آيلند»، وكما أُخبرت لاحقاً، فإن جلّ ما وقع في دائرة اهتماماته اليومية، لم يتعد الخمر والنساء والأغاني. أما هاري، الأخ الأوسط، فكان كتوماً



خالي الأكبر دايفد، دوق كوني آيلند

صموتاً، كأمه التي اشتهرت بهذه الميزة، وهو لم يتخلّ يوماً عن سلوكه هذا، بإيلائه الاهتمام لأي موضوع كان، أما السياسة على وجه الخصوص، فاحتلت أسفل القائمة ضمن أولوياته.

غير أن دايفد وهاري، كلاهما، سُحِر بالمناقشات السياسية المطولة بين أبي وميلتون، لم يشدهما قلب الحوار أو مضمونه (الذي كان متواضعاً)، بل الطريقة التي بموجبها تتصل أجزاء تلك المناقشات المفتعلة ببعضها بعضاً. ولئن افتقر أحدهما للغة الآخر، لم يكن هناك مناص من استخدام الإيماءات، اللغة الجسدية التي بدا أبي بالطبع، متملكاً لأدواتها، غير أن ميلتون تدبر أمره– إن ليس تقنياً، فبابتكار وحماسة واقتناع. وتخللت المناقشة الطويلة وقفات بينها تدخين متواتر للغليون.

فإخوة أمي الثلاثة مدخنو غليون. وما إن يضع أبي الغليون غير المحشوّ

بالتبغ بعد على شفتيه حتى يتبعه ثلاثتهم. يجلسون، وقد لاحت الجدية المفكّرة على سحناتهم، وقد وضعوا الغلايين في أفواههم، فيكون متوقعاً استهلالهم التدخين بشكل متزامن، كإعلان تبغ والنت، الأكثر شهرة في ذلك الوقت. لكن أبي في هذه الحالة، ودونهم جميعاً، يتفرد بحيازته منتج والنت في جراب التبغ، أما هم فيحملون تبغاً لا اسم تجارياً له، أكثر خشونة، وأدنى جودة.

هذه اللوحة المتجمدة تنفرط ما إن يبدأ أبي بحشو غليونه. الرائحة العطرة للتبغ الناعم في يده، تضيء فتحات أنوف أصهرته، التي تترقب الهواء المحيط لاستنشاقه. وإذ ينهي أبي مهمته في دك التبغ بمودة داخل تجويف غليونه، يشرع ميلتون بالتلويح بغليونه الفارغ في وجه أبي، فلا يكون على أبي إلا تجاهله متعمداً.

بعد ذلك، يشعل أبي غليونه بعود ثقاب خشبي، بشكل بطيء للغاية، ويمجّ بعمق. الجرعة الأولى من الدخان محبوسة ملء فمه المغلق، وقد انتفخ خداه لأطول وقت ممكن، وعيناه فتحتا على وسعهما، أما شفتاه فلفهما على جذع الغليون برضا مبالغ- وقد طرفت عينه وهي تنظر إلى ميلتون، لينهي الأمر بهزة من رأسه كعلامة: لا.

لطالما عرفت أبي كأكثر الرجال كرماً، لذلك فهمت أن انضمام إيماءته بالرفضه القاطع، إلى طلب ميلتون، ليست إلا افتتاح المناورة- التي يحرّكها المبدأ السياسي لـ«المشاركة»- لنقاش مطول تستعرض فيه مزايا روسيا الستالينية ونظامها الشيوعي، ضد أمريكا هاري ترومان المكتفية ذاتياً، وكل هذا بالإشارة، ما يرفع من الأداء في عرض كوني أيلند الهزلي.

ميلتون، بعد تلقيه إشارة أبي، يحمل نفسه على مشاركة أخويه تبغه الرديء، حريصاً على عكس صورة أخويه يتلقيان حصصهما من التبغ قبله، كإشارة رمزية للمبادئ السوفييتية الاشتراكية، الواحد للكل، والكل للواحد. وليؤكد

هذه النقطة، ينتظر حتى يشعل كل أخ غليونه، فيقوم من بعدهما بإشعال غليونه- مستعملاً العيدان الورقية، عيدان عامة الناس.

لكن، ولسوء حظه، لا تشتعل العيدان، حتى بعد محاولاته المتكررة.

عندئذ، يتناول أبي العيدان الورقية من يدي ميلتون، بإيماءة ممتدة، ثم يبدأ بقدحها تحت أنف ميلتون، مؤكداً أنها ستصدر فرقعة خفيفة، لكن لن تدب النار فيها. ولحظة تنفد عيدان ميلتون جميعها، تكوّن يداه إشارة مطرقة، ثم يزيل رأس ميلتون بتعبير نابذ، مقطباً وجهه مقلداً ببراعة صورة جوزيف ستالين في يالطا.

بعد أن يستعطي عود ثقاب من دايڤد، يقوم ميلتون بإشعال غليونه. يسحب الجرعة الأولى بفمه إلى أن ينتفخ خداه، فيتبع ذلك بأن ينفث الدخان باتجاه أبي. وفور مرور الرائحة الحرِّيفة لتبغ ميلتون المحترق، بأنف والدي، يكمم والدي أنفاسه ويمسك بحلقومه. وفيما يحرِّك عينيه إلى الأعلى، كأنهما دخلتا في رأسه، تراه الآن ينهار بين يدي دايڤد وهاري المنتظرة.

مراقبين هذه التمثيلية الإيمائية التي قام بها توا، نهرع، ستيفان وأنا إضافة إلى بعض أقاربنا الصغار، نحو أبي بالمناديل والوسائد والصفحات المقتطعة من جريدة يوم الأحد، فنحركها في الهواء مقابل وجهه، محاولين إنعاشه.

وبعد لحظات على هذه الدراما، يعاود أبي الجلوس على الكنبة، آخذاً نفساً عميقاً، مستتبعاً ذلك بابتسامة، قبل أن يمرر كيس التبغ الخاص به إلى ميلتون، برهاناً على تكافل الشرق والغرب.

لكن عرض الفودفيل لا ينتهي هنا، فتكون وجبة الغداء بحد ذاتها، القسم الثاني من التمثيلية.

وبما أن سيليا قامت، ومنذ فترة طويلة، بنفي زوجها زير النساء ماكس، خارج المنزل، فقد مُنح أبي، كونه أكبر الرجال سناً في العائلة، حقوق السيِّد

الأعلى، الدور الذي واظب على لعبه بنبض هزلي واسع النطاق. فبعد انتهائه من الجلوس على رأس المائدة، وبكبرياء عظيمة، يبدأ بغرز طرف سكين شرائح اللحم، بباطن إبهامه مختبراً قوة السكين، الأمر الذي بالطبع يدفع أقاربي الصغار إلى حبس أنفاسهم. ثم يميل رأسه جانباً، مستهلاً بذلك خدعة يظهر بها وكأنه يبتلع السكين (مخبئاً جانباً كبيراً من حركته هذه في يده الأخرى ومنديل المائدة)، بينما عقدة حنجرته ترتعش صعوداً ونزولاً كفلّينة صنارة الصيد، لحظة ابتلاع السمكة للطعم. الآن، يسحب شفرته، يدير ظهره إلى الطاولة، ومع تسطيح لسانه تماماً، يتوجه إلينا فاتحاً فمه على وسعه كاشفاً عن كهف فارغ معتم. شاهدته يؤدي هذه الخدعة مرات عديدة، إلا أنه كان من البراعة، بحيث كنت أصدّق حقاً أنه قام ببتر لسانه بسكين اللحم– وابتلاعه أيضاً. ولربما ساهم مشهد لسان البقرة الهامد والكبير، المقطوع من جذوره، والمستلقي دون حياة بالقرب منه، بتضخيم قوة التوهم لدى المتفرجين. لكن أبي يغمز بعينه بعدئذ، ويفصل جزءاً صغيراً من مقدم لسان البقرة، ليستقر في فمه. يبدأ مضغ ما تناوله للتو، على مرأى من الجالسين المفتونين. وبعد لحظات على حركات المضغ المبالغ بها، يفتح فمه، وببطء متناه، يخرج لسانه، الذي يكون قد عاد إلى مكانه بطريقة سحرية.

تُغمر الطاولة بالتصفيق على أثر هذا العرض. ما عدا سيليا وهاري الجالسين كحجرين، بوجهين خاليين من المعنى، كتلك الوجوه الغرانيتية المنحوتة في جبل راشمور[1]. فلسيليا شفتان رفيعتان للغاية، لم أر مثيلاً لهما لدى أي بالغ آخر: شفتان حادتان قاسيتان كطرف مسطرة. أثناء طفولتها، مشت على الطرقات الموحلة في روسيا الباهتة، لكنها أُخبرت بأن طرقات أمريكا مبلطة

(1) الجبل الشهير في جنوب داكوتا في الولايات المتحدة، وقد نتأت من كتلته الصخرية وجوه منحوتة لرؤساء الولايات المتحدة السابقين جورج واشنطن، توماس جيفرسون، تيودور روزفلت، وإبراهام لينكولن.

بالذهب. وبعد سنوات من سماعها المتواصل لهذه القصة الخرافية، قررت ذات يوم، الانتقال وحيدة إلى أمريكا. وفور وصولها إلى الحي الشرقي الأدنى من نيويورك، أعلمها عقلها غير المتعلم، والحاد البصيرة بأن شوارع أمريكا ليست مكسوة بالبلاط وإنما ببراز الجياد. لذلك لم يكن هناك ما تقوله لبقية حياتها. أما التحلية الوحيدة التي سمحت لنفسها باختبارها، فكانت كتل السكر الممسوكة بين أسنانها أثناء رشفها للشاي من الكأس الهلامية قديمة الشكل.

وتماهياً مع العرض التالي، بعد الوليمة التي تكون استُهلِكت- ما عدا اللسان، الذي بعد أداء أبي واستعماله قطعة منه، لا نرغب نحن الأولاد بتذوق ذلك العضو الدنيء- ينتقل الرجال والأطفال إلى غرفة الجلوس، في حين تنشغل أمي وأختها بتنظيف الطاولة. وما إن يأخذ أبي مكانه في الغرفة، حتى يباشر بصنع قبعاته الورقية للأولاد من صحيفة يوم الأحد. ثم يجول بنظره على أنسبائه مقيِّماً الواحد تلو الآخر، مؤثراً المواظبة على الاحتفاظ بتركيزه، إلى أن يعلن ساعة الصفر للبدء بإنجاز قبعة لكل منهم.

صناعة قبعة من ورق الصحيفة، تشتمل على زهاء خمس وعشرين خطوة تُنَفَّذ بدقة. فخلال عملية تحويل الصفيحة الورقية المسطحة والمطبوعة إلى قبعة ثلاثية الأبعاد، تطفو أمام ناظريك أشكال ورقية مختلفة.

الخطوة الرابعة عشرة، تنتهي بقبعة قراصنة. بعد تحضيرها، يضعها أبي فوق رأسه بدراية، محولاً يده إلى مسدس، ويذهب لإفراغ جيوب ميلتون. وما إن تبرز جيوب ميلتون متدلية من بنطاله، مقلوبة، حتى تستقر قبعة القرصان فوق رأسه هو. بإمكان ميلتون القرصان المجرد من ملكيته الآن، السطو على ملكيات الآخرين. وبهذا، يكون أبي قد أوضح وجهة نظره السياسية.

مستلاً ورقة أخرى من الصحيفة، يبدأ مجدداً بالطي والثني والتحزيز. في الخطوة الخامسة عشرة، يقوم بطيٍّ أطراف قبعة القرصان، فتتحول إلى تاج

أسقف. راسماً علامة الصليب بمهابة في الهواء، يحمل أبي القبعة لتستقر على رأس هاري- الذي اقترن حديثاً بفتاة إيطالية كاثوليكية. ثم يأتي بمنديل من الكتان، يبسطه على الأرض، ويركع تحت قدمي هاري مقبلاً خاتمه، مطأطئاً رأسه ملتمساً بركة العريس. أما هاري، فيعمد إلى تقديم نسخته عن المباركة بطريقة مشوهة، بغية تحويل الأضواء إليه، والتفلت مما يعتقده هراء زوج أخته.

ثم يحين دور الورقة الثالثة، التي ينتقيها من صفحة الرسوم الكاريكاتورية في صحيفة الأحد. ويبدأ عملية الطي. في الخطوة السادسة عشرة، تكتمل بين يديه وبشكل ممتاز، قبعة بحار. يديرها هنا وهناك، مبدياً إعجابه بألوانها، ثم يثبتها مائلة على رأس دايفد. أما دوق كوني آيلند، فيستشف تماماً مغزى حركة أبي تلك.

هاري، الذي لا يفلح في إيجاد أي ملمح فكاهي في هذا كله، ينزع قبعته بحزم، بعكس أخويه اللذين يحتفظ كل منهما بقبعته طيلة فترة بعد الظهر. ميلتون، بين الحين والآخر، يحول يديه إلى مسدسين متوجهاً إلى أخي الصغير طلباً لماله، فجيوب إروين تغص بالفكة التي تركها أبي، وبذلك يتكرر هذا المشهد طيلة ما بعد الظهر- مما يملأ أخي بهجة.

أحب دايفد قبعة البحارة ودلالاتها، لذلك كان يضايق زوجته سيلفيا طلباً لقبلة أو عناق، كأي بحار وقور النفس مغادر شاطئ كوني آيلند. كانت تنزعج بشدة، ولا تبذل أدنى جهد لرصد الجانب المسلي من إلحاحه ذاك، فتدفعه بحزم بعيداً عنها.

ولئن لم يتقاسموا سوى ميزات وخصال قليلة (باستثناء كون زواجهم لا يستند إلى التعاليم اليهودية. خالتي أيضاً)، فإن إخوة والدتي أظهروا سعادة جمة لكون والدي العمود الفقري لتلك الاجتماعات العائلية، ولقيامه بأداء المشاهد الهزلية المختلفة، إذ خفف ذلك عنهم عبء إيجاد خيط للكلام. أما

أبي، في المقابل، فقد برر أنه بسلوكه الغريب ذلك، يوفر على أمي بذل الجهد لإيهامنا بوحدة عائلتها- مهمة مستحيلة لابنة صماء في عائلة صحيحة السمع لا يتقن أي من أفرادها إشارة واحدة.

لكن هناك سبباً لأداء أبي المسرحي أمامهم. فقد فسر لي الأمر ذات مرة، على أنه مسألة تحكُّم.

أخبرني قائلاً: «عندما أكون برفقة عائلة الأم سارة أعجز عن فهم ماذا يجري من حولي. يا لدهشتي، تراهم يتحدثون إليّ ويبتسمون، ناطقين كلماتهم وكأنني أبله، فلا نقيم حواراً فعلياً. وسرعان ما يشيحون بوجوههم عني، في حديث جانبي، فأشعر أنني قطعة أثاث مهملة. إلا أن الأمر يختلف تماماً حين أتولى زمام المبادرة بنفسي، فعندما أمثل تلك المشاهد الصغيرة معهم، أغدو المسيطر على سير الأمور، وأعرف بدقة ما الذي يدور حولي». ثم أضاف «القيام بدور المهرج ممتع أحياناً. طالما أنه وفق شروطي».

لكن ذات أحد، شهدنا عرضاً جديداً وغير متوقع خلال المسرحية الكوميدية القصيرة، لم يكن العرض من إخراج أبي، ولا بطولته، فضلاً عن أن أحداثه لم تتشابه واتجاهه في ابتكار مسرحية كوميدية ساخرة، إذ كانت إلى حد ما، ميلودرامية.

في ذلك اليوم، دخل ابن خالي ستيفان المنزل متأخراً- دون أمه- لم يتفوه بكلمة، فأسقط مغلفاً سميناً في حضن والده. ثم استدار بعدها بسرعة ليغادر شقة جدتي مغلقاً الباب وراءه بقوة. كان في المغلف أوراق الطلاق التي سعت زوجة دايفد لنيلها.

مذ ذلك الحين، لم ألتقِ صديق العمر، ستيفان، مرة أخرى.

-20-
أصوات من القلب

على الرغم من صممه، استطاع أبي إصدار أصوات ملفوظة، إذ لم يكن ثمة عيب في حنجرته. ما زلت أتذكر بصورة غامضة، تلك الأصوات المنبعثة منه في فرحه، كما أتذكر أصوات الأسى التي تدفقت منه فور تلقيه خبر موت الرئيس روزفلت. لكن الصوت الوحيد الذي تفجر ذات مساء، ناطقاً خوف والدي، وهي المرة الوحيدة التي عرفت فيها أبي خائفاً، لا يزال عالقاً في ذاكرتي إلى يومنا هذا.

كان الوقت مستهل المساء، وكنت أنتظر انتهاء أبي من الاستحمام ريثما تصل أمي، فقد ذهبت لزيارة والدتها وأختها في كوني آيلند.

ففيما كنت ألهو بالقبعة الورقية وأحاول في الوقت نفسه صناعة واحدة لأخي، مزَّق الصوت الأبكم لأبي، السكونَ الثقيلَ لشقتنا الهادئة في العادة، مما دفعني فوراً إلى النهوض. صرخ مجدداً، مرة تلو أخرى، لتصطدم صرخاته ببعضها بعضاً، مرتدة عن بلاط جدران الحمام الضيق، مكوِّنة بعد ذلك صوتاً هائلاً ضمّنه كل ألمه.

هرعت نحوه، لأجده، كما خلقه الرب، في المغطس، وقد كساه الدم. زجاجة شامبو تحطمت حين أوقعها خطأ خلال خروجه من الحمام. وما إن حاول التقاطها، حتى زلقت قدمه ليسقط على قطع الزجاج المسننة والصلبة. تدفق الدم غزيراً من تمزق في نسيج ذراعه بحجم بلاطة، وقد ظل النسيج متدلياً من الذراع بشكل مقزز. أما أنا، فكيفما نظرت، كنت لا أبصر سوى الدم الأحمر فاتح اللون منتشراً فوق كل بقعة آجر بيضاء في الحمام.

وإذ ثبت بيده قطعة النسيج الزلق في مكانها، أخذتْ يده الأخرى تشير إليَّ

لإحضار المنشفة. ومع كل إيماءة أخرى، كان ينزف المزيد من الدم من جرحه الغائر. فهمت مقصده، ولففت المنشفة حول ذراعه أقصى ما استطعت، في حين عمل هو على حفظ النسيج في موضعه الصحيح. جمع أطراف المنشفة، ثم شبكها في عقدة، ساداً بذلك الأوردة، مما قلل من خسارته للدم. أما أخي الواقف عند عتبة الحمام، فقد رأى هلعاً المشهد الدامي بأكمله.

رحت أخبط بقدمي أرضية الحمام. السيدة أبروموفيتش، جارتنا في الشقة أسفلنا، أدركت على الفور أن تلك الخبطات نداء استغاثة وليست هذه المرة، مجرد خبطات، لأفراد العائلة الصماء، بغية لفت انتباه أحدهم إلى الآخر. وصلت سيارة الإسعاف سريعاً. رافقت أبي طبعاً لأؤدي دور مترجمه، كما حرصت على اصطحاب أخي معنا، فخوفي من أن تدهمه نوبة صرع بعد كل ما أثار أعصابه، كان عظيماً.

أخذ المسعف الذي اهتم بتسكين جرح أبي مؤقتاً في طريقنا إلى مستشفى كوني آيلند، يغرقني بالأسئلة فور علمه بحال والدي.

«كيف حدث الأمر؟»، سألني في سيارة الإسعاف، التي أخذت تتمايل عند المنعطفات، وتخفض سرعتها في شوارع بروكلين.

طرحت السؤال على أبي.

«زلقت قدمه في مغطس الحمام وسقط على قطع زجاج مكسور»، فسَّرت للمسعف.

«سله كم فقد من الدم».

سألت أبي.

«كيف لي ان أحزر بحق الجحيم؟» أجاب بيد واحدة، فيما بقيت يده الأخرى على المنشفة المبللة بالدم. «هل هذا الشخص أبله؟».

«فقد الكثير من الدم»، أجبت المسعف.

«سل أباك ما فئة دمه».

توجهت بالسؤال إليه.

«هذا الشخص أبله»، ردّ عليَّ باشمئزاز مطلق.

«يريد أبي أن يعرف شيئاً، ما الخيارات؟».

«أ، ب، أو»، أجاب المسعف.

طرحت عليه الخيارات.

«قل لهذا الغبي أن يحشر هذه الخيارات في مؤخرته»، أشار أبي. «بالنسبة لي، إنها غيض من فيض الأبجدية. هات لي طبيباً فقط!».

شعرت بدمي يتدفق صاعداً على وجهي محولاً لونه إلى حمرة قانية من شدة الخجل.

«ليس متأكداً»، أجبت.

وما إن فتح باب قسم الطوارئ في المستشفى، حتى توجهت فوراً إلى مكتب الدخول، فيما أدخل أبي غرفة الطوارئ بشكل عاجل لمعالجته.

حاولت، لساعة واحدة تقريباً، تقديم الأجوبة الصحيحة على سيل الأسئلة التي طرحت عليّ حول أبي.

«هل أبوك أصم؟».

«نعم».

«هل يستطيع سماعنا إن تكلمنا بصوت عال؟».

«كلا. إنه أصم».

«هل يستطيع سماعنا إن صرخنا؟».

لم أكلف نفسي عناء الإجابة. فهذا السؤال طرح مرات عدة كلما كنت في مكان عام برفقة والدي، وما إن أجيب «كلا، أبي أصم»، حتى يبدأ الناس السمع بالصراخ في وجهه دون توقف، وحين لا يجدون منه تفاعلاً، يبتعدون بنفور.

«أناس صحيحو السمع أغبياء»، لطالما كانت هذه الجملة مقولته عند حدوث ذلك. «تجاهلهم».

«أين يعمل والدك؟ ألديه ضمان صحي؟ هل لديكم هاتف؟ هل لديك أُمّ؟ هل هي صماء؟ ما اسمها؟ كيف يمكن الاتصال بها؟».

استمر هذا طويلاً. وقدّمت أفضل ما استطعت.

«كيف حدث أنك صحيح السمع؟».

لم أفهم ما شأن هذا بموضوع جرح أبي.

«كم عمرك؟».

أجبت عن هذا السؤال بسهولة.

خِيطَ النسيج الجلدي ليثبَّت إلى ذراع أبي، بقطب كثيرة بدت كافية لتذكيري بسكك قطار اللعب، كما نُقلت وحدتا دم إلى جسم والدي. ثم تكلمت مع الطبيب، أو بالأحرى هو من تكلم معي.

«أخبر أباك بأنه فقد كمية كبيرة من الدم»، قال الطبيب.

«يا له من رجل بارع»، أشار أبي، فيما ذراعه المتضررة مغلفة بطبقة سميكة من ضمادات الشاش، وقد ربطت من المعصم إلى الكوع.

«يشكرك أبي على إخطاره بهذا الحقيقة».

«قل لأبيك يتحتم عليه أن يحفظ ذراعه جافة للأسبوع القادم، يبدِّل الضمادات مرتين في اليوم، ويضع المرهم كلما بدل الضمادة. سأقوم بإعطائه وصفة المرهم الملائم. قل للصيدلاني إنك تريد المرهم في أنبوب وليس في وعاء. قل لأبيك إن عليه تجرع ثماني كؤوس من الماء يومياً، وتناول كميات كبيرة من اللحوم، ككبد العجل، تجنباً لإصابته بفقر الدم نتيجة النزف الشديد».

وبينما كان الطبيب يخبرني بكل هذا، راقب أبي شفتيه مدركاً القليل مما قاله، وقد تنامى قلق في داخله.

«ماذا قال الطبيب؟»، ظل يلحّ في السؤال.

«لاحقاً»، أجبت. «أخبرك لاحقاً».

«لا! أخبرني الآن! لستُ طفلاً!»، كان يقذف إشاراته بغضب نحوي، مصاحباً ذلك بصوته الأبكم القاسي.

أخذ الناس في ممر المستشفى، وباستغراب فظ، يحدقون بأبي وإشارات يده المثارة. نظر آخرون مشمئزين منكمشين إزاء حدة صوته الأبكم، الذي ترددت أصداؤه في ممر المستشفى، ليدفع الجميع للتجمد أثناء مشيهم.

وفيما أخي إلى جانبي، وددت أن أصرخ في وجوههم، إلام تنظرون؟ لسنا مخلوقات غريبة.

لاحظ والدي أن عيني انحرفتا عنه، وفهم ما دار في خلدي، بقراءته لوجهي، الذي تخلله الخجل، والغضب، الشعور بالذنب والحرج.

«لا تكترث لأولئك الناس»، صرخت إشاراته فيَّ على نحو معتدل. «إنهم أغبياء. لا يفقهون أكثر من هذا. جهلاء بأساليب الصم».

وما إن شرعت بالشرح لوالدي ما قاله الطبيب، حتى قاطعني هذا الأخير قائلاً: «إنني مشغول جداً. ليس بإمكاني المكوث لمزيد من الوقت مع والدك. قل له...».

جذب أبي ذراعي. «*ما الذي يقوله الطبيب؟*» بعثتْ إشاراته صريراً كطبشورة على لوح ذهني.

توسلت الطبيب أن يتحلى بالصبر مع أبي. كما طلبت من هذا الأخير أن يبدي صبره تجاهي. طمأنت أخي بأن أبي سيكون على ما يرام. وبعد هذا كله، أخذ رأسي ينبض إيذاناً بصداع وشيك.

نقلت أخيراً التعليمات الضرورية من الطبيب إلى أبي، كما أسئلة أبي إلى الطبيب، ومن ثم إجابات الطبيب الفظة إلى أبي من دون أن أغفل إعادة

صوغها بتعديلات جمة.

أقلّ ما في الأمر أن أبي خالجه شعور بالرضى لنعود أدراجنا إلى المنزل.

جلست في عربة القطار متوسطاً أبي وأخي، وقد مال واحدنا إلى الآخر، بعيداً عن الركاب الآخرين. عملت ما في وسعي لأقدم إجابات وافية عن أسئلة طرقت بال أبي. إروين لم يطرح سؤالاً. فقد كان ممتناً ببساطة، لعودتنا إلى المنزل.

فجأة، ضمني والدي إلى ذراعيه وقبّل وجهي. «آسف، لكنني أحتاج إليك لتكون صوتي في عالم السمع، خصوصاً في الحالات الطارئة العظيمة». نظر بعمق في عينيَّ وأعقب ذلك بإخباري مدى اعتزازه بي ذلك اليوم. فضاء إشارة *الاعتزاز* فسيح. يرتفع الإبهام مقابل صدره، سالكاً طريقه من الخصر حتى العنق، في حين يتمدد الصدر إلى الأمام بحركة مضخمة تعبيراً عن الاعتزاز.

وبعد هذه الواقعة التي بدت وكأنها أبدية، وصلنا المنزل. قرع أبي الجرس، محفزاً لمبة محددة تتوهج في الشقة معلنة قدومنا. فتحت أمي الباب على الفور. كانت شديدة القلق وقد لاح على وجهها خوف أعزل. لم تكن تملك أدنى فكرة حول ما حلّ بعائلتها. وصلتْ الشقة الفارغة، لتجد الدم منتشراً، وتدرك أن مكروهاً فظيعاً وقع. لكن من الذي أصيب؟ من الذي أريق دمه بهذه الغزارة؟ لم تعرف. وليس هناك من تسأله. ليس لديها هاتف، ولا حتى سبيل لاستخدامه إن وجد، وقد تركنا المنزل في ذعر حال دون تفكيري بكتابة ملحوظة لها.

وعند رؤيتها أبي، ذاب خوفها في لجة الارتياح العميق الذي اكتنفها، الأمر الذي فطر قلبي. بشّ وجهها فرحاً، وأخذت تصدر أصواتاً أسمعها للمرة الأولى: أصوات من قلبها. ودون أن تنتبه لضماداته، ارتمت بين ذراعيه. طوقها أبي بذراع واحدة، وجذبها نحوه، دافناً رأسه في شعرها. بينما لم يعر أحدهما أي اهتمام، لي أو لإروين.

بالنظر إلى سني الصغيرة، تلقفت مغزى ردة فعلها تلك: فبعد كل ما حصل، لم تفقد شريكها في الصمت في عالم السمع الغريب. وحتى إن خاطرة خفقت في ذهني ذي السن اليافعة وقتذاك: *كيف سيكون عليه الأمر لو أن أحدهما فارق الحياة واضطر الآخر للعيش وحيداً؟ كيف سيصمد الآخر في وجه خسارة كهذه؟*

عرفت في قرارة نفسي، وبطريقة ما، أنني نضجت في ذلك اليوم، وفهمت مكامن العالم المعزول لأبي وأمي كما لم أفهمها في يوم من الأيام.

-21-
صائنة أخي

بُعَيْد تشخيص إصابته بداء الصرع، أصبح أخي رهن جرعة يومية من الفينوباربيتال، التي شكلت معوقاً أمام قدراته البدنية والذهنية. فلهذا الدواء قوة سخّرها النازيون لقتل الأطفال الذين يولدون بأمراض مستعصية أو عاهات خلقية، حفاظاً على معايير ما يدعونه بالعرق الآري. طبعاً، لم ندر بتلك الحقيقة وقتذاك، حين وُصِف الدواء علاجاً لأخي. لكن الأثر الذي خلفته الجرعات اليومية في إروين، كان واضحاً. فقد جعله الدواء مشوش الذهن متبلد الحسّ حتى لتكاد تظن أنه يمشي في نومه.

لذلك، لم يتماسك ذهنه في المدرسة. وبرزت متاعب جديدة بسبب حاله تلك. فلا سبيل له، في ظل ظروفه الخاصة، لمتابعة واجباته المدرسية، وقد أعيد مراراً إلى المنزل مرفقاً بملحوظة بخط يد المعلمة، تسأل فيها والدي القدوم إلى المدرسة للاجتماع به.

تلك الاجتماعات اضطرت أبي إلى الانصراف من عمله براتب نصف يوم، واضطرتني للحصول بدوري على إذن بالتغيب عن نصف الحصص الدراسية. الأمر الأول كان مشقة، أما الثاني فعنى حرجاً. وقبل كل اجتماع مدرسي، كان والدي يلحّ بأن نأخذ أخي لزيارة طبيب العائلة المختص، فنحظى، حسبما يعتقد، برأي خبير حول قدرات إروين في التعلم.

في هذه اللقاءات، وضع دوري مفسراً ومترجماً لأبي، في أدق الاختبارات وأصعبها. إذ ألزمني هذا الوضع في مكتب الطبيب، أن أفسر بالإشارة تخمين الطبيب حول قدرات أخي. ثم أن أقوم بعدها، بنقل الأسئلة التي يود أبي طرحها، إلى الطبيب، رد فعل على تخميناته. نتج عن هذا تأخر في تواصلهما،

دفع بكليهما إلى الشعور بالإحباط.

ولكي تُضاعف صعوبات هذا الوضع المشوب بعقدة لغوية مستعصية، لم تكف الممرضة عن الدخول بين الفينة والفينة، معلنة، وأنفاسها تكاد تنقطع، بأن غرفة الانتظار أتخمت بالمرضى، الذين يهددون بالانتقال إلى عيادة أخرى، يكون طبيبها غير مشغول. وبالطبع، وجب عليّ تفسير هذا التفصيل أيضاً لأبي.

«إذن فلتقل هي لأولئك الأغبياء بأن يذهبوا إلى طبيب آخر»، أعطى أبي تعليماته لي. وسواء كان جاداً فيما قاله أم لا، فقد أخرجت من فمي كلمات مبهمة مداهنة لطيفة، لا تختزن معنى في طياتها، بغية إرضاء الممرضة وهي تغادر الغرفة، آملاً ألا يكون أبي قد قرأ ما قالته شفتيَّ.

وخلال هذا، تتسمر عينا أخي عليّ متوسلتين، منتظرتين أن أشرح له ما يدور في الغرفة، فتجعلانني أفكر في الوقت ذاته أن أتحدث إليه. هذه الأوضاع، التي يتجاذبني فيها من جهة تذمر أبي ومن جهة أخرى تذمر الطبيب طلباً لانتباهي وترجمتي، تتسبب لي بضغط شديد، فلا تترك لي وبشكل مؤسف، فرصة منح أخي الطمأنينة التي يصبو إليها.

عندما كبرت، تلاشى شيئاً فشيئاً، شعوري بالاستياء حيال اعتماد أخي عليَّ. شعرت بالأسى من أجله- لحاله العاجزة تقريباً بسبب داء الصرع والعلاج، اللذين جعلاه متذبذباً بين النوبة تارة واسترداد العافية تارة أخرى، ولمحاولاته الحثيثة التشبّه بالأولاد الآخرين الطبيعيين، في الشارع. غير أن داء الصرع، وبصورة تدريجية، أرخى قبضته المحكمة عليه، حتى وإن دخل عامه العاشر، توقفت النوبات كلياً، بشكل فجائي يتعذر تفسيره، شبيه بطريقة بدئها. فالجيد أنه تخلص أخيراً من عذاباته اليومية: رضوض سقطاته، اللسان المتورم والمعضوض الذي انتفخ مالئاً فمه، الأسنان المتشظية الرقيقة، الغثيان والصداع

اللذان لازماه لساعات وساعات.

وما إن أفلت من طوق أدويته، حتى استعاد ثقته بنفسه ليباشر ممارسة هوايته، شغفه الطفولي: المزلجة. رويداً رويداً، ومع تعاظم ثقته بقدراته حديثة الولادة، بات يذهب في نزهات تزلج في أرجاء الحي. بالكاد استطاع في البداية، أن يجوب الحي كاملاً على كاحليه المتهادين. إلا أنه، وبعزيمته العنيدة أخيراً، أضحى متزلجاً حول الحي- يستهل رحلته بالشارع التاسع حتى جادة ب، ثم منعطفاً، نحو الشارع العاشر وصولاً إلى جادة ستيلويل، ليعود في نهاية رحلته إلى بنايتنا في الشارع التاسع. ومع ازدياد مهاراته، لم تعد المسافة البالغة ثلاثة أميال، بين بنايتنا وكوني آيلند، تقف حائلاً أمام مزلجته، بل كنت تراه يعود أدراجه إلى المنزل بالطريقة نفسها. أثناء اللقاءات مع طبيب العائلة، ومن ثم الاجتماعات مع معلمي أخي، كنت أبدي تفاؤلي، بمهارته الوليدة، وحسه



إروين على مزلجته

بالانضباط بها، علامة دالة على قدرته على إنجاز فروضه المدرسية.

أما زياراتنا للطبيب، فتسير تبعاً لمسلك محدد. بعد أن يتحدث إلينا، ويقوم بإجراء فحوص لا تنتهي لأخي إروين، للوقوف على قدراته الإدراكية، يقدم تعليماته لي بالطريقة نفسها: «قل لوالدك، لو حظي أخوك بالمزيد من الرعاية، فستتوافر له على الأقل، فرصة مواكبة صفه المدرسي الحالي».

وبعد كل زيارة للطبيب نتجه فوراً إلى مدرسة أخي، حيث يُستأنف دوري مترجماً وسيطاً بين جهتين. تترتب جولة بعد أخرى من الاجتماعات، وفي كل منها، أتلقى الأسئلة التأسيسية للمعلمة: «من سيكون مسؤولاً عن مساعدة الصبي لمواكبة زملائه في الصف؟». صَمْت. تبادل طويل للنظرات. هز كثير الحكمة للرؤوس. «من سيؤمن الوقت اللازم له، لِيُعينَه على استيعاب كيفية إنجاز فروضه؟». صمت آخر. العيون تتجنب بعضها بعضاً. الرؤوس تهتز. «ومن سيتولى مراقبة نشاطه لإتمام فروضه، بشكل يومي؟».

أفسر لأبي كل سؤال رمته المعلمة في وجهي.

«إذن؟»، تطلب المعلمة جواباً، فيما تنظر لأول مرة إلى أبي، خلال الحديث الذي يستهلك وقتاً طويلاً. عادة، في مثل هذه المواقف، لا ينظر الإنسان سليم السمع إلى أبي، بل تستقر نظراته عليَّ دونه. إذ يعتبر هؤلاء، أن أبي هو جِذْل الشجرة، أي المتبقي منها بعد قطعها.

«إذن». يومئ أبي بِحيرة، محدقاً في المعلمة، عاجزاً عن إيجاد إشارة يقولها. أما أخي، المدرك أنه نقطة الثقل في هذا التمرين، فينظر إليهما، وينظران بدورهما إليه.

ثم، وكأنهم شخص واحد، ينظرون جميعا إليَّ.

كانت الغميضة اللعبة الأكثر شعبية بين أولاد بروكلين، وقد لعبناها بشغف دائم، متخلِّين عن مرحلة الشباب. فقواعدها سهلة جداً. لا تبدأ اللعبة، إلا بعد

تحديد لاعب على أنه «شيء». والشخص غير المحظوظ الذي يتم اختياره، يحتفظ بكنية «شيء» (لم تبد الفتيات أي اهتمام يذكر بهذه اللعبة) إلى أن ينجح في لمس فتى آخر غير محظوظ، بينما يصيح «أنت الشيء». وهكذا تستتبع اللعبة، فيصبح الواحد تلو الآخر «شيئاً»، إلى أن يعترينا الملل أو ينال منا التعب في النهاية، فنفقد أي رغبة بمواصلة اللعب.

لعبة الشارع الهينة هذه، لا تستوجب مضرباً ولا قفازاً ولا طابة، ولا أي معدات أخرى، فهي تجري وفق مبدأ اكتساب التوتر عند وسم المرء بالـ«شيء» وإفراغه لحظة تَخَفُّف المرء من هذه الكنية، مُنزِلاً الدور عن كتفيه ليحط على كتفي شخص آخر. فاستئناف اللعب منوط بحقيقة أن ثمة مَن سيصبح «شيئاً».

وبصفتي طفلاً اعتاد على اللعب مع أولاد حي بروكلين، فقد أحببت هذه اللعبة. فلم يثر استيائي ولا أمانع حملي كنية «شيء» وإن لفترة قصيرة.

لكنني، ولما كنت الطفل ذاته ساكن الشقة رقم «3– أ»، فقد امتعضت بشدة لواقع أنني هناك وإلى الأبد، «شيء». ذلك أن استخدام أبي لي في مواقف محددة ماثل استعماله لأداة منتقاة بعناية، ولغرض محدد، من صندوق عدة النجارة. فوجدتني في «3– أ»، وحيداً ليس ثمة من ينوب عني، لأمرر له الدور، بمجرد لمسه، كما في الغميضة.

-22-
أبي.. جاكي.. وأنا

كان ذلك خلال الصيف المبهر من العام 1947. بلغت عامي الرابع عشر آنذاك، ووجدتني أتلقى هدية عيد مولدي من أبي، الهدية التي لطالما سحرت لب أحلامي، والتي لم أتخيل يوماً أنني سأحظى بها. فقد عاد أبي إلى المنزل بعد نوبة عمل ذات مساء، ووجهه ينضح ببهجة، وهو يحمل تذكِرَتَي بايسبول.

لم يستلزم تفسير الأمر أي إشارة.

خلت طفولة أبي من أي ممارسة للرياضة، أما شغفه بمتابعة مباريات الملاكمة في مرحلة شبابه، فلم يماثله أي إلمام برياضة أخرى. لكنه أحبّ بروكلين دودجرز منذ لحظة انضمام اللاعب جاكي روبنسون إلى الفريق في ذلك العام. جاكي روبنسون كان رجلاً أسود ولاعباً ممتازاً. فالعالم قد تغير في تلك الفترة، وهوذا رجل أسود يلعب لاعب ارتكاز أساسياً في فريقنا. من كان ليصدق ذلك؟

وضع الجريدة جانباً، ثم سلَّمني التذكرتين الثمينتين المطبوعتين على ورق مقوى سميك أُعلِن فوقه، وبحروف سوداء كبيرة، «بروكلين دودجرز يواجه سان لويس كاردينالز». ولئن كره جمهور بروكلين، الكاردينالز حتى النخاع، فإن ما كُتِبَ على التذكرتين أمكن استبداله بصيغة «بروكلين في طريقها إلى الحرب».

اتخذ أبي وضعية ضارب الكرة، ثم حرك بهزات خفيفة المضرب المتخيَّل الذي علا كتفيه، متوعداً لاعبي الفريق الخصم بإلحاق الخسارة بهم، وقد أضحت عينيه نصف مغمضتين، ليترصَّد بشكل أفضل، الكرة المتخيلة القادمة

فوق حقل اللعب، بدوران سريع في الهواء، والتي ما إن تصل إليه حتى سيسحقها بضربة، هكذا بدا، قاذفاً إياها خارج الملعب.

تملكتني حيرة. إذ لم أتمكن في تلك اللحظة من سبر غور إلمام أبي المفاجئ بجاكي روبنسون. فقد حفظت تفاصيل نشأة أبي، من خلاله هو، إذ سُرَّ بإخباري قصصه حين كان ولداً في مثل سني. هو، لكونه ولداً أصماً وأبكماً في أكاديمية داخلية ذات منهج تربوي عسكري صارم في مستهل القرن الماضي، لم تتوافر له فرص ممارسة الاستمتاع باللعب، بما في ذلك الرياضات. فقد ساد الاعتقاد بين معلميه أنه يتوجب عليه في المقام الأول، تعلّم الانضباط، ذلك أن الأطفال الصم والبكم في ذلك الزمان، عوملوا كحيوانات صعبة المراس من قبل معلميهم. كما توجب عليه أن يمضي وقتاً طويلاً في تلقن القراءة والكتابة– في عملية مرهقة للمعلمين، ومنهكة لكل طالب على حدة. ولذلك، عدّ اللعب نشاطاً ترفيهياً أذن به المعلمون لصحيحي السمع من الأولاد دون سواهم. أما الصم، فبسبب افتقارهم لإحدى حواسهم، كان ينظر إليهم كمتخلفين عن ركب الناس الطبيعيين، في عالم السمع؛ ولذا توجب عليهم العمل جاهدين للالتحاق بأقرانهم من ذلك العالم.

ولئن تملكتني حيرة لرغبة أبي حضور مباراة البايسبول، فإنني لم أسمح لهذا الشعور بكسر شوكة حماستي لهذا الحدث. فبالإضافة إلى كونها زيارتي الأولى لملعب إبيتس، تضاعفت سعادتي لأنني على وشك مشاهدة الدودجرز عما قريب للمرة الأولى على أرض الملعب. فالليلة تلك، ستكون حدثاً بالغ الأهمية في حياتي.

وبين ليلة وضحاها، أضحيت نبأ الحي، إذ عرضت على الأصدقاء تذكرتي مباراة البايسبول– لكن دون السماح بلمسهما. فكنت أنام والتذكرتين تحت

المخدة كل ليلة، ولم أدعهما تبتعدان عن ناظري خلال ساعات النهار.

أخيراً، جاء اليوم الموعود. ولن أنسى ما حييت مدخل ملعب إبتيس، والاستدارات الأنيقة لمبناه التي قادتنا إلى المكان المبجل. فما إن عبرنا الباب الخشبي الدوار، متشبثين بأرومة تذكرتينا كتشبثنا بالحياة، حتى صعدنا مع الجماهير المتحمسة في طريق حجري معتم الإضاءة، تحت سقف إسمنتي شاهق، خارجين إلى ميدان أشبه بميدان المصارعة الرومانية، أشرف على حقل معشوشب بخضرة عصية على التصديق. وقد انبسطت المساحة المعشوشبة تحتنا، تتخللها ممرات بنية اللون أعدت بشكل ممتاز، وقد حاذتها خطوط رسمت بمسحوق أبيض، وتمططت بشكل لا متناه، متلألئة كماسة طليت بأشعة شمس الصيف اللطيفة.

إذن، *هذا* ما يبدو عليه الأمر في الحقيقة.

استمعت، على غرار أولاد بروكلين جميعاً، لريد باربر[1] وهو يصف عبر المذياع مجريات كل مباراة خاضها الدودجرز ذلك الموسم. فبالفعل، لم يكن أحد يسير في الحي أثناء إحدى المباريات، دون سماعه صيحات «أولد ريدهيد»، المذهول أمام تسديدات الفريق وكراته، منبعثة من كل نافذة في الشارع. لذلك، أدركت في تلك اللحظة، أن المشاهد التي شُيِّدتْ بعين مخيلتي من خلال المذياع، كانت أقرب إلى صور ظلية بالأبيض والأسود فقط، بخلاف هذا المنظر البديع الماثل أمامي حياً بالألوان.

أما مقاعدنا، فقد كانت ممتازة، إذ جلسنا على مقربة من خط القاعدة الأولى في الملعب، وقد فصلت بيننا وبين جاكي روبنسون مسافة لا تتجاوز خمسين قدماً. أثبت جاكي حضوره منذ الرمية الأولى، بعيد صيحة الحكم برمي الكرة،

---

(1) ريد باربر (والتر لانيير باربر 1908–1992): عرف كذلك بـ«أولد ريدهيد»، وذلك بسبب شعره الأحمر. واحد من أهم معلقي مباريات البايسبول في أميركا خلال القرن العشرين.

إذ أرغم الضارب على الانتقال إلى قاعدة أخرى في يسار الميدان، منذ الجولة الأولى.

وسرعان ما تحولت المباراة إلى مبارزة بين الرماة. لكن الكاردينالز، وإن متأخرين، استطاعوا تعديل النتيجة. شوطاً إثر شوط، ولعبة إثر لعبة، غمرني أبي بسيل من أسئلته. وقد بذلت أقصى جهودي، فيما عين على المباراة والعين الأخرى على أبي، لأصف له وبإشارات مختصرة، أدق تفاصيل المباراة. صحيح أنني لم أشاهد بأم عيني مباراة بايسبول للمحترفين من قبل، إلا أنني وبصفتي مستمعاً لريد باربر، شعرت بأنني متخصص.

ثم وقع ما لم يكن في الحسبان. فأحد ضاربي فريق الكاردينالز، وبينما يركض نحو خط القاعدة الأولى في الملعب، محاولاً استباق كرة أرضية، اصطدم متعمداً بجاكي بروان، غارزاً مسامير نعل حذائه الرياضي، بقدم بطلنا، وذلك بعد وقت على استكانة الكرة في قفاز الأخير.

ستة وعشرون ألف متفرج بروكليني، وثبوا على أقدامهم مرة واحدة، لتنفجر المنصات احتجاجاً. صيحات الشتائم أُطلِقت من ستة وعشرين ألف فم، لتلتف عبر الممرات، وترتد عن العوارض، وينعكس صداها بعد اصطدامها بالسقوف.

صرخ الجميع «**جاكي! جاكي! جاكي!**».

أما صيحات أبي «آ–غي! آ–غي! آ–غي!» فلم تسمع في شلال الصوت الجماعي.

جاكي روبنسون تسمّر في مكانه في القاعدة الأولى للملعب، فيما تدفق دم أحمر فاتح اللون من ساقه، وقد بدا وجهه وكأنه نُحِتَ على قطعة من الرخام الأسود.

في وقت ما من ذلك اليوم، تلقى جاكي ضربة أخرى من رامي الكرة في فريق الكاردينالز، لتشتعل الحشود غاضبة.

«جاكي! جاكي! جاكي!»

«آ–غي! آ–غي! آ–غي!»

هذه المرة، التفت المتفرجون في المقاعد المجاورة ناظرين إلى أبي. الأكيد أنه كان يعي الأمر، غير أن عينيه لم تحدا عن جاكي، الذي ظهر الآن على أعتاب القاعدة الثانية. طأطأت رأسي محدقاً بقدميّ.

خلال عودتنا إلى المنزل في قطار الأنفاق، أشار أبي قائلاً: «أنا رجل أصم وأبكم في عالم سمع. لذلك، عليّ دائماً، أن أظهر للناس صحيحي السمع بأنني إنسان. إنسان جيد مثلهم. وربما أفضل».

كانت عربة القطار مكتظة. وكما هي الحال دائماً، أخذ الناس يصوبون نظراتهم، التي بدت خليطاً من الفضول، والصدمة، والنفور كذلك، إلى أبي. ولكن بما أنني كنت منشغلاً بمراقبة يديه، فلم أبال بهم.

«جاكي روبنسون رجل أسود في عالم بايسبول أبيض البشرة. عليه أن يظهر لهم أنه إنسان. إنسان جيد كما هم. وربما أفضل. لا فرق إن كان أسود البشرة. لون الجلد غير مهم. ما يقوم به جاكي على أرض الملعب هو المهم».

ولحظة ظننت أن أبي أنهى كلامه، نطقت يداه بأسى. «أمر قاس للغاية لرجل أصم. قاس للغاية لرجل أسود. عليهما أن يكافحا طيلة الوقت. دون توقف. أمر مؤسف».

لا إشارة خرجت من يديه بعد ما قاله. اكتفى بالتحديق في عيون ركاب القطار الذين حدقوا إليه بفظاظة، إلى أن أشاح كل منهم بنظره بجبن– حتى آخر واحد منهم.

شاهدنا بعدها العديد من المباريات لفريق دودجرز في بروكلين صيف

1947. وبطريقة ما، فقد تمكن أبي دوماً من الحصول على موقع ملائم قرب خط القاعدة الأولي في الملعب. وحتى هذه اللحظة، ما زلت أسمع بوضوح شديد صيحاته المبتهجة «آ-غي! آ-غي! آ-غي!»، تلك الصيحات التي اخترقت الهواء خارجة مباشرة من صميم قلبه.

-23-
ثلوج صامتة

ذات ليلة من شهر ديسمبر، أواخر عام 1947، أيقظني صمت عميق، غياب تام لأي صوت من أي نوع. كأنما غرفة نومي اختنقت بوسادة محشوة هبطت فوقها. كان لذلك الصمت وزن بالغ الثقل. صمت ملأ شقتنا الصغيرة كما يملأ الماء بشكل تام، حوض السمك.

ولئن أقمنا داخل شقة في الطابق الثالث في بروكلين، فقد كان هناك دائماً جلبة، ليل نهار. فخلال ساعات النهار، تتسلل إلى غرفتي عبر النافذة المشرعة، أصوات الأطفال وهم يلعبون، وأصوات البالغين المثرثرين في القيل والقال، وجدالاتهم وتذمرهم. أما أثناء الليل، فيأوي الأطفال إلى أسرَّتهم بسلام، في حين يواصل البالغون إقامتهم في الشارع تحت نافذتي، مثرثرين النمائم، متجادلين ومتذمرين بأصواتهم المميزة ذات اللهجة البروكلينية. لكن الأمر اختلف تلك الليلة. كان أخي يغطّ في نوم مطمئن، فاتجهت نحو النافذة لأرى المشهد الأكثر استثنائية: جدار أبيض منيع من الثلج المتساقط، سوف يُسَجَّلُ بعد عشرين ساعة على دهشتي، كأعظم تساقط ثلوج في تاريخ بروكلين، متخطياً الرقم القياسي لـ«العاصفة الثلجية عام 1888» بخمسة إنشات (وككل الأرقام القياسية، فإن «العاصفة الثلجية» تلك التي وسمت طفولتي، سوف تُحجب لاحقاً، بعد تسع وخمسين سنة، بفارق نصف إنش فقط.)

في ذلك الصمت المطبق، سمعت أبي يهمهم في نومه. اختلست النظر إلى غرفته لأراه يتقلب في سريره قبل أن يدخل في حال هياج شديد وقد حُجِز في حلم لم ينو إطلاق سراحه بتاتاً. وقد كانت يداه تنطقان حلمه بالإشارة.

في الصباح التالي، لزمنا المنزل بسبب الثلوج المنهمرة حديثاً، فسألته إن

كانت تراوده أحلام بالإشارة.

«لا أعرف»، قال. «لم أتساءل عن هذا الموضوع من قبل».

«هل تفكر مستخدماً الإشارة؟»، سألته.

«لست متأكداً»، أجاب. «كل تفكيري يحدث دفعة واحدة. أحياناً، أرى صورة مكتملة في ذهني».

ثم تردد قليلاً. «مهلاً. تلك ليست الحقيقة كاملة. فأنا أفكر أحياناً بمشكلة ما مستخدما صُوَر الإشارة. كما أنني أحدِّث نفسي معبراً عما يجول في خاطري، بالإشارة. لغتي تكمن في يديَّ. ذكرياتي كلها في يديَّ. تفكيري كاملاً في يديَّ».

وأتبع ذلك بقصة سردها لي:

«حين كنت شاباً زمن الكساد الكبير، تعرفت إلى فتى أصم كان يعمل في مصنع خطر. لم يكن أمامه خيار، إذ كان مجبراً على توفير المال لدرء الجوع عن عائلته. تكونت عائلته من عدة أفراد، ولما كان أبوه متوفياً، فقد ألزمته الحال القيام بدور الوالد.

عمل الفتى الأصم ستة أيام في الأسبوع، واثنتي عشرة ساعة في اليوم. أُنهِك جداً. وفي أحد الأيام، كان متعباً إلى درجة أنه سها عن الآلة التي تتطب حذراً، فالتهمت الآلة أصابع يده اليمنى. الأصابع الخمسة. بعد أن شفيت يده، خسر الفتى الأصم لغته. بات يتكلم بيد واحدة فقط. لم يتمكن الصم من فهم ما يقول بوضوح. كان أمراً باعثاً على الأسى. والآن تراودني كوابيس حول هذه المصيبة وهي تحصل لي».

توقف أبي عن التكلم بالإشارة محدقاً بيديه، وقد ارتسم الرعب على وجهه.

«كيف سأستطيع التكلم إذا ما تعرضت لحادثة فظيعة كهذه؟ لغتي في يدي.

كيف سأعبّر عن حبي لجميلتي سارة؟ ولو فقدت يديَّ، فكيف سألمس ولديّ وأحتضنهما؟».

ثم عبر نظره النافذة مستقراً فوق الثلج المكوَّم والمتجمع بكثافة أمام مبنانا. لم يكن ثمة حركة في الحي. لم يكن هناك شيء مرئي: لا الإسفلت في الشارع، ولا بالوعة مياه المجاري، لا الأرصفة ولا صنابير الإطفاء، لا وتد السياج الحديدي، ولا صفيحة الزبالة، ولا رواق المباني ولا السيارات. إنما بانت هنا وهناك، في البياض الفسيح، حدب متفرقة في دثار الثلوج، وأشكال ظليلة وشت بما يقع تحتها.

«تعال لترى ماذا بإمكان هاتين اليدين فعله أيضاً»، أشار مختطفاً مجرفة الثلج بيد ومزلجتي باليد الأخرى. أمسكت بيد أخي، ومشينا برفقة والدي خارجين من الشقة، نازلين السلالم، نحو ما بدا لأخي ولي، القطب الشمالي المتجمد.

-24-
أحلام كرة القدم

عند بلوغي السابعة، ابتاع لي أبي كرة قدم ويلسون أصلية، من الجلد. عجزت عن حملها، ذلك أن يدي كانتا ما زالتا صغيرتين. اعتقدت أمي أن الأمر سابق لأوانه، وأخبرت أبي بذلك. «سوف يكبر»، أشار. تجلت يده اليمنى مقفلة، وببطء شديد، من خلف غطاء شكلته يده اليسرى المفتوحة، ارتفعت إلى الأعلى، آخذة في النمو، منفرجة على وسعها، نضرة احتفاء بحياة جديدة. رأيت كل هذا بالإشارة: أوراق نبتة مبرعمة تتكشف للعيان إذ تصعد سويقة ذراع أبي اليمنى أعلى فأعلى، ملتمسة دفء الشمس. ثم، ومنعاً لأي شك حول مدى الحجم الذي سأبلغه يوماً ما، ثبت راحة يده اليمنى تحت مستوى خصره، ثم أخذ يرفعها شيئاً فشيئاً إلى أن تخطت رأسه– وابتسم.

حاولت، مراقباً إشاراته، أن أتصور نفسي قوياً مثله لا بل وأن أفوقه طولاً. فلطالما ظننت أن ذلك غير محتمل.

افتتاني بإشارات أبي، فاق انتباهي لذلك الشيءَ الكبير الأخرق المطاطي، الذي بدا غفلاً بين يديَّ.

فأبي أراد بكل جوارحه، أن أعيش الطفولة التي حرم منها– مرح لا تشوبه شائبة حظي به أخوه وأختاه أثناء لعبهم، واكتفى هو بمراقبتهم من بعيد.

كبرت. وكلما اشتد عودي أكثر، حثني أبي على ممارسة مختلف ألعاب الشارع في حينا، الألعاب ذاتها التي لا تزال إلى يومنا هذا تمارس في كل شوارع بروكلين وأحيائها.

وخلافاً لحال آباء أصدقائي، المرهقين بشدة بعد نوبة عمل يومية، أو منشغلي البال طول أمد فترة الكساد الكبير، كان أبي نهماً وأصبح مع الوقت، متابعاً

متوقد الذهن للألعاب الممارسة في الشارع. كما كان مشجعاً عظيماً لي. فبينما نلعب أنا وأصدقائي، تراه واقفاً على الرصيف، الذي جعلناه الحدود الجانبية لملعب كرة القدم خاصتنا وخط القاعدة الثالثة للعبة كرة العصا[1]. «حقل اللعب» ذاك، لم يكن مكسواً بالعشب الأخضر الناعم كما في ملاعب كرة القدم الحقيقية، وإنما بالحصباء الصلبة العنيدة، التي تخللتها أغطية فتحات المياه المصنوعة من الحديد الخام. والأنكى من هذا كله، أنه كان «حقل لعب» غير مضياف بدرجة كبيرة في حال الانزلاق أو السقوط فوقه.

كنت أسقط وأنزلق. وكل سقوط أو انزلاق لم يفلت من صوت أبي الأبكم الزاعق مشجعاً. «لقطة رائعة!»، «أنت بخير!»، وهي عبارات بدت للأصدقاء خالية من المعنى، إلا أنني فهمتها، لتصبح ملازمة لكل مبارياتي على السواء، دون حاجة الأمر لأي تعليق.

في يوم جدير بالذكر، وبينما كنت أسعى خلف تمريرة الفوز لحظة حطها على الأرض، ركضت باتجاه سيارة مركونة. آخر ما التقطه وعيي هو أنني كنت مفتاح الفوز لفريقي. لأستيقظ بعدها في مستشفى كوني آيلند. أبي الجالس إلى جانب سريري كان أول من شاهدت. «أحرزتَ نقطة» أشار. ثم أضاف، «والآن ماذا سنقول بحق السماء لأمك سارة؟».

في أواخر الصيف، وكنت بلغت عامي السادس عشر، أُدرِج اسمي في اختبارات كرة قدم، التي نظمت على ملعب مدرستنا الثانوية. الملعب، كما المدرسة، كان حديث العهد– بحيث إنه خلا من أي ورقة عشب. واكتشفت بعد فترة وجيزة، أنه لم يفتقر بالمقابل إلى أجسام أخرى، أبرزها الحصى. وقد لاحظت كذلك أن تلك الحصى، الموزعة كيفما اتفق، اتسمت بصلابة مطردة. إلا أنها لم تكن لتفوق صلابة الطريق المرصوفة بالحصباء، حيث تلقنت أسس

(1) كرة العصا: رياضة شبيهة بالبايسبول تمارس في الأحياء الشعبية في الولايات المتحدة الأمريكية.

لعب الرياضة تلك.

كان المدرب المشرف على تلك الاختبارات يدعى هاري أوسترو، وقد أدى خدمته العسكرية في الفرقة المجوقلة الجوية رقم 101 أثناء الحرب العالمية الثانية. كان أوسترو مظلياً خاض أكبر المعارك الجوية في التاريخ، عملية ماركت غاردن، التي ستُخلد بعد ذلك في فيلم بعنوان «جسر بعيد جداً». فبعد أن قاد فصيلته لاختراق خطوط العدو بنجاح، مني أوسترو بإصابة بالغة. لكنّ معلوماتي عنه، لم تتخطّ في ذلك الحين، حقيقة وجود صفيحة معدنية في رأسه، فقد مثلت تلك الصفيحة واضحة للعيان. أما هو فلم يتكلم مرة عن هذا الأمر. فالمدرب كان وسيبقى أكثر الرجال قسوة ممن عرفتهم (كان لا يزال يمارس رفع الجسم على الأرض، باليدين، ويؤدي هذه الحركة خمسين مرة، وقد ضاعفها مؤخراً إلى اثنين وتسعين) ولم يكن يتفوه بكلمة، إذ يكتفي بالدمدمة فقط.

أثّرت في معنويات الفريق ذلك اليوم– ليس لمهاراتي المتواضعة، بل لقدرتي على الصمود في وجه الأوامر المنهكة بدنياً وذهنياً، التي فرضت علينا– وأمضيت الأشهر الثلاثة التالية في خوف مهلك. فككل أعضاء الفريق، لم أخش الفريق المنافس، بل كانت كل خشيتنا من المدرب نفسه.

حضر أبي جميع المباريات. ومع أنني لازمت مقاعد الاحتياط، ولم أقم إلا بالقليل من المهام على أرض الملعب، غير أن ذلك لم يثنه عن المجيء. وسواء كان الطقس مشمساً أم ماطراً، أم حتى مثلجاً ممزوجاً بالمطر، بل وقد تخللته عاصفة ثلجية في إحدى المرات، كنت لتجده هناك. لكنني لم أستطع رؤيته، إلا أن جلوسي على مقاعد الاحتياط، وظهري مواجهاً المدرجات، لم يحل دون سماعي لصوته الحلقي شاقاً طريقه وسط صرخات المتفرجين.

كانت المدرسة الثانوية عالماً جديداً بالنسبة لي. فزملائي اليافعون، قلما رأوا رجلاً أصماً من قبل، وقد بغضت منظرهم اللعين حين تتيبس هاماتهم، كما

الجميع، إزاء صوت أبي الغريب. لكن أعضاء فريقي، ألفوا أبي شيئاً فشيئاً، تماماً كأصدقاء الحي. فكانوا يحيُّونه على مثابرته في متابعة مبارياتنا ولكونه مشجعاً مخلصاً للفريق.

كانت كرة القدم جواز المرور للحياة السوية في المدرسة الثانوية. فالأولاد في مثل تلك السن، يظهرون ميولاً شديدة للتكيف، كي يبدوا كالآخرين، كجزء من زمرة الناس، أما أنا، ولصمم والديَّ، فقد تاق الطفل فيَّ أكثر من أي شخص آخر، للاختباء خلف حاجب الحياة السوية. وبسبب كرة القدم، لم أعد أُعرَفُ بابن الرجل الأصم، وبالمقابل، بت أُعرَف لاعب كرة قدم.

عند انتهاء الموسم الأول، منحت حرف كرة القدم، خاطته أمي على سترتي المدرسية. وقد ارتديتُ السترة تلك حتى اهترأت وأضحت مجموعة من الخرق.

ازددت في العام التالي، إنشين طولاً، وأُضيفَ إلى قامتي الهزيلة عشرون باونداً. بعبارة أخرى، فقد نضجت واشتد عودي بما فيه الكفاية ليضعني المدرب على أرض الملعب مراراً وتكراراً، إذ أدرك أنني لن أُقتَل على الأقل.

حضر أبي كل مباراة كالعادة. واستوجب الوضع الجديد، أن نمضي الأمسيات عقب خوضي كل مباراة محللين حسنات أدائي وسيئاته. التقط أبي مفاتيح اللعب بسرعة، ليصبح تلميذاً فطناً في كرة القدم. غير أننا، ولكي نَصِفَ مجريات المباراة، أجبرنا على تعليم أنفسنا معجماً كاملاً من الإشارات الجديدة.

في الليلة التي سبقت المباراة النهائية ذلك الموسم، ودون علم منا، تعرض نجم الفريق، الظهير المساعد، لسقطة عن السلالم، فهبطت يده التي بُسِطت بفعل السقطة، على قنينة حليب مكسورة. وعندما حضر في اليوم التالي قبيل المباراة– على أرض خصمنا اللدود، مدرسة نيو أوتركت الثانوية– كانت

ذراعه ملفوفة بالضمادات، ووضعه غير مناسب البتة. أصيب الفريق بالصدمة. فقد كان جو دارينزو في المرحلة الدراسية الأخيرة، وكانت تلك ختام مباراته مع المدرسة. كان أفضل ظهير مساعد في بروكلين وقائداً للفريق. جلسنا في غرفة تبديل الملابس قبل رمية الافتتاح، مكتئبين وقد دهمنا إحساس بالخسارة الوشيكة.

وقف المدرب، وقد حطت ذراعه فوق كتف جو، ليعطي توجيهاته للفريق.

«أيها الرجال، هذه أهم مباريات الموسم أهمية».

نعرف هذا.

«لم يتمنّ جو أي شيء في العالم سوى خوض هذه المباراة. لكنه لا يستطيع».

نعرف هذا.

«جو جزء مهم جداً من هذا الفريق. لكن الفوز أو الخسارة منوط بالفريق ككل، وليس بلاعب واحد».

نعرف هذا.

«وكفريق، فإن باستطاعتنا الفوز في هذه المباراة».

أما هذا فلسنا متأكدين منه.

ثم أخبرنا بأنني سألعب في مركز جو في الفريق.

ذلك ما لم أكن أعرفه. وقد جهل الأمر أيضاً أعضاء الفريق وأبي. لكن عندما رآني أبي في الباكفيلد[1] خلف لاعب الوسط[2] مباشرة، في الرمية الأولى للمباراة، عرف أنها ستكون مباراة للذاكرة. وأخذ يتخيل إشارات جديدة، إذ

(1) الباكفيلد: الجزء الخلفي من أرض الفريق المهاجم.

(2) لاعب الوسط هو اللاعب المهاجم في منتصف خط الهجوم المؤلف من خمسة لاعبين في لعبة كرة القدم الأمريكية.

حدس أن أمامنا الكثير لنتحدث عنه بعد المباراة.

الكثير. لكن لم يستحوذ بالي على أدنى فكرة حول هذا الكثير، إذ وقفت مشدوهاً منتظراً تسلمي كرة افتتاح المباراة. نظر لاعب الوسط إليّ، من فوق إلى تحت، وقد أطل برأسه من بين ساقيه، وكست وجهه مسحة واضحة من الشك. لكنه أراد طمأنتي بنظرته تلك. ما أعقب ذلك من سير المباراة، يحضر بشكل ضبابي. غير أن ما يستوي واضحاً في ذاكرتي، هو أنني تعرضت للكثير من الصراخ. المدرب صرخ بي. جو، ومعطفه متدل على كتفه، وذراعه في حمالة الكتف، وقد جاب بمحاذاة خط نطاق اللعب، صرخ بي. وحتى أبي، الذي حظي بمكان قرب خط اللعب، صرخ بي، مسجلاً بلا هوادة كل خطأ ارتكبته على فيلم كاميرته ذات الزنبرك اليدوي.

فالتمريرات التي قمت بها اتخذت سبيلاً لولبياً بصورة ممتازة، لتصب مباشرة بين يدي لاعب الدفاع المنتظر. وكل جَرْي نفذته صُدَّ على خط المناوشة[1]. وكل إفساح لمجال لاعب باكفيلد آخر، حاولته، أتى متخبطاً.

لكن زملائي في الفريق، قدموا مباراة يحتذى بها، تجاوزت مهمتهم في ترميم أخطائي. وفي الربع النهائي كنا عادلنا النتيجة. لكن المدرب، وخلال الدقائق السقيمة للاستراحة، قدم لنا خطته اليائسة، فإما الفوز وإما الخسارة. بنى تصوره على افتراض أنني، ولأدائي الباعث على الشفقة، لن أثير انتباه أي من لاعبي الفريق الخصم. فخطورتي لا تكاد تتجاوز خطورة قائدة فرقة المشجعات. وعليه، فإن أحداً لن يستغرب عدم تلقّيَّ لتمريرات من لاعب المركز، وهذا طبيعي، بل ستذهب التمريرات إلى الظهير المؤخر على يميني. ولأضخِّم واقع أنني بخفي حنين، انحرفت على أرض الملعب إلى اليسار (فمهارتي في الإشارة جعلت مني مومئاً ممتازاً، لأحظى في نهاية المطاف بدور

(1) خط الاصطدام بين الهجوم من جهة والدفاع من جهة أخرى.

مناسب خلال ذلك اليوم البائس). في غضون ذلك، قام الظهير الخلفي بخطوة عظيمة إذ مرر الكرة إلى طومي لاسبادا، لاعب التسلم المتحرك، الذي تقدم في اتجاه معاكس. وفيما هذا الاستعراض الأبله يسير قدماً في منطقة الباكفيلد، نفذ لاعبو الهجوم في فريقنا حركة أشبه برقصة الباليه، مراوغين هنا وهناك، مربكين ليس لاعبي الخصم وحسب، بل وحتى أنفسهم أيضاً.

في خضم هذه الضوضاء، وبرباطة جأش مدروسة، انحرفت في مساري نحو اليمين، ليودع طومي القادم بالاتجاه المعاكس الكرة في يدي بحيلة يدوية ماهرة، حتى إن لاعب خط الدفاع المقبل نحوه لم يتنبه للأمر. أدرك طومي، بالنظر مرة واحدة إلى وجه المدافع ذي التعبير الوحشي، أن نهايته مسحوقاً على الأرض، وشيكة لا محالة. فبرغم كون طومي قاسياً كالأظافر، إلا أنه واحد من أصغر لاعبي الفريق– وليس مغفلاً. سمعته يصرخ، «*الكرة ليست معي!*»، وكان هتافه المدوي هذا، نداء لي كي أتسلل من تلك المنطقة بسرعة.

خطتنا الكاريكاتورية وجدت سبيلها إلى النجاح، فلم أكن مُراقباً من أحد– وأخذت أجري بكل عزم بمحاذاة خط مجال اللعب، غير ملاحَظ، لم تلمسني يد، لأسجل تاتشداون[1]. ربحنا المباراة تماماً كما قال المدرب. اهتاجت الحشود على المدرجات. وفي دفق الهتافات الكثيرة، استطعت تمييز صوت أبي الجاف بوضوح، شهيق صياحه.

في ذلك المساء، لقنني أبي ضاحكاً، أكثر الإشارات غرابة بين كل ما تعلمته خلال سنوات حياتي.

(1) تاتشداون: وتساوي ست نقاط، ويتم تسجيلها عندما يقوم اللاعب بالجري بالكرة أو القيام بتمريرة في المنطقة النهائية للفريق المنافس.

-25-
سِفر الخروج

اتسمت سنتي الأخيرة في الثانوية، بحصولي على منحة كرة قدم دراسية إلى جامعة برنديس، حديثة العهد في نيو إنغلند، والتي ضمت طلاباً في السنة الثانية الدراسية، وطلاباً في السنة ما قبل الأخيرة كما طلاباً في المرحلة الدراسية الأعلى مقاماً. غير أنها افتقرت إلى الطلاب الجدد، ولاعبي كرة القدم، ممن لا يمانعون الانتساب إلى كلية غير مرغوب باعتمادها، لسنتين إضافيتين.

حصلت أيضاً على منحة كرة قدم دراسية في جامعة نيويورك– لكن موقع مبناها في برونكس عنى أنني إن قبلت العرض، فليس عليّ إلا مواصلة العيش في بروكلين والانتقال إلى الجامعة كل يوم بالقطار. وهو ما لم يكن قطعاً في الحسبان.

وفي كلتا الحالتين، فقد أبهج ذلك أبي. إذ سيكون ولده أول من ينتسب إلى الجامعة من طرفيٍّ العائلة.

«عليك أن تظهر كَرَجُلِ كلية»، أشار، «لا أريدهم أن يظنوا أنك فلاح جلف من الغابات». بروكلين؟ غابات؟ لم أناقشه. فارتيادي الكلية حمل من الإثارة في نفسي ما حمله في نفس أبي. فلن أنكر عليه سعادته في رؤيتي مرتدياً ما يتلاءم وطالب كلية. لذلك، تحولت المرة الوحيدة، التي نزور فيها متجر السيد بلومينغدال ومتجر السيد آر وآتش مايسي سنوياً، إلى طقس أسبوعي خلال عطلة الصيف عقب تخرجي في المدرسة الثانوية. وقد نقب أبي رفوف البزات ممسكاً بصور فوتوغرافية لطلاب كلية، منتزعة من مجلات ما، توقاً للعثور على واحدة تجعلني أبدو شبيها بأولئك– والأهم ربما– ألا تبلى لأربع سنوات.

وفي أحد أيام شهر أغسطس، رافقني أبي إلى محطة غراند سنترال، حاملاً

بيده حقيبة سفر ابتعناها حديثاً، لأستقل القطار إلى بوسطن. كنت أرتدي بزة من الصوف الثقيل. وقد بلغت درجة الحرارة آنذاك تسعين درجة فهرنهايت، إلا أنني لم أطلق أي كلمة تذمر بالإشارة. ما إن صاح قاطع التذاكر «إلى متن القطار!» حتى نظر إليّ أبي للمرة الأخيرة وقال بإشارته «تبدو حقاً طالب كلية». ثم أضاف «أراك قريباً». لكنني لم آخذ عبارته تلك على محمل الجد. فخلال السنوات الأربع التي ستلي هذه اللحظة، لن يفوت أبي مباراة كرة قدم لفريق كليتي، ولسوف يأتي في كل مرة حاملاً لي رزمة ثقيلة، أمضت أمي أسبوعاً كاملاً في إعدادها.

وطأت القطار في ذلك اليوم، لتكون تلك خطوتي الأولى، خارج عالم والديَّ الصامت المألوف جداً والذي سيصبح غريباً، ونحو عالمي الخاص، عالم السمع.

منذ ذلك الحين فصاعداً، سأصير كلما التقيتهما، مجرد زائر لعالمهما المتسم بالصمت السرمدي. فقد كان بالنسبة لي، عالم جمال رائعاً مشبعاً بحب لا حدود له، وليساعدني الله، وخزي دائم. كما كان عالماً عسيراً فرض على طفل تأدية دور الناضج.

الإشارة المعبرة عن *المسؤولية* درامية كما وتبعث في النفس أثراً قليلاً من الشك، لمعناها. وهي واحدة من أولى الإشارات التي لقنني إياها أبي. كان ليضع أطراف أصابع يديه على كتفه، ضاغطاً بعزم، وبلا هوادة، إلى الأسفل. فيهبط كتفه، وكأنما ألقي فوقه حمل ثقيل، ويتخذ وجهه سحنة الصبور المتحمل. وهذا ما كان متوقعاً مني على الدوام: أن أتحلى بحسّ المسؤولية– لأجل أبي ومتطلباته، ولأجل مرض أخي، ولأجل أخي نفسه. ثمة أوقات شعرت فيها بهذه الحمولة تسحقني، أيامٌ كنت فيها أهرع خارجاً من شقتنا متوجهاً إلى سطح المبنى لأتوارى عن الأنظار لساعات.



أمي وأبي بعد إحدى المباريات في جامعة برنديس عام 1951. وكنا قد فزنا.

وها أنذا الآن أجلس على مقعد وثير في عربة السكة الحديد، وتحتي مباشرة العجلات الحديدية التي تقوم بنقلي بقسوة، وفي كل دورة، بعيداً عن المنزل الوحيد الذي أقمت به، فأشعر بأن حمولة المسؤولية دائمة الحضور، تُرفع في هذه اللحظة عن كاهلي، لأتحرر من مسؤوليتي تجاه أبي وأخي، اللذين سيكون عليهما تدبر أمر شؤونهما.

إلا أن إحساساً بالفقد غير متوقع، عكر صفو شعوري بالارتياح. كانت تلك المرة الأولى التي ينتابني فيها شعور مماثل.

-26-
دوق كوني آيلند

كان خالي دايفد الأخ المفضل لأمي بين إخوتها الثلاثة. «إنه ساحر، مشعوذ»، تقول عن أخيها الذي يصغرها بعام واحد. فدايفد كان مشعوذاً بالنسبة لأمي لأن مجرد طرفة عينيه الشيطانيتين البنيتين، قادرة على قلب تعاستها فرحاً. فقد تعاطى مع صممها بعدم اكتراث لافت للأنظار. وبينما ملأ أفرادَ العائلة الآخرين شعورٌ مغاير، تصرف دايفد وكأن صممها لا يفوق في أهميته أو دلالته لون عينيها أو بُنْيَةَ شعرها.

كل فرد في عائلة أمي كما كل أصدقائه الكثيرين، كانوا ينادون دايفد بـ«دوق كوني آيلند»، اعترافاً منهم بأسلوبه الدمث ومظهره الأنيق، ونهجه في التمسك بذلك النمط الرفيع دون حصوله على عمل ثابت.

دايفد وأمي كانا سبَّاحين باهرين. فما إن تبزغ الشمس فوق شاطئ كوني آيلند، حتى تراهما ماسكي أيدي بعضهما بعضاً، ضاحكين، طارحين نفسيهما في المحيط الأطلسي، وسابحين إلى أن يتواريا عن الانظار. فذراعا أمي القويتان، السمراوان، تشقان الماء، حتى لتغدو هي وغطاء رأسها الأبيض، أصغر فأصغر فتختفي ودايفد عند حافة الأفق.

كنت أنتظرها بصبر على الشاطئ، وأبي وأخي إلى جانبي. وحتى تخرج أمي من الماء للعيان، يقوم أبي العظيم الاستعمال ليديه، بمساعدتنا لبناء أكثر القلاع تعقيداً في الشكل وتطلباً لشحذ الخيال.

لم ينضم أبي مطلقاً إلى أمي في الماء، فهو بالكاد استطاع السباحة لثلاث ضربات متتالية، دون أن يتوقف لاستنشاق الهواء. غير أن دايفد، وقبل نزوله إلى الماء، كان يقوم باختطاف ذراع أبي محاولاً سحبه إلى البحر، فما يكون

من إروين إلا التمسك بيد أبي الأخرى، غارزاً أصابع قدميه في الرمل، ليشدّ أبي إلى الناحية الأخرى. كان غرض هذا الاستعراض التسلية فقط– إذ لا سبيل لإقناع أبي بمشاركة دايڤد السباحة في الماء. «ترعرعت في برونكس» كان يفسر والدي الأمر إذا ما سئل عن سر بقائه على الشاطئ. «لا محيط هناك». فبهذه الكلمات، يكتفي شارحاً كل شيء، ذلك أن برونكس إقليم معزول عن المياه التي تنعم بها بروكلين العالمية، التي يحدها جسر حجري بديع من جهة، والمحيط الأطلسي العظيم الذي يغتسل على شواطئها من جهة أخرى.

وبينما الشمس في أعالي السماء، تتراءى لي أخيراً نقطة بيضاء تتمايل في البحر بين الأمواج الطويلة. سرعان ما أكتشف أن النقطة هي أمي، سابحة نحو الشاطئ، متقدمة بذراعين بنّيتي اللون تمخران عباب الموج، يتبعها دايڤد كظل لها.

لكنها أحياناً تباغتني على حين غرة. ممتطية موجة قادمة كدلفين، فتنزلق عن الأمواج المتكسرة، كمخلوق بحري، لتأخذ بين يديها جسمي الحار بفعل الشمس الدافئة، في عناق جليدي رطب.

«أين ذهبتِ؟»، أسألها دائماً.

«إلى إيرلندا»، تتهجأ أصابعها الكلمة حرفاً حرفاً، بوجه جدي. «إنها أرض خضراء جداً». أما دايڤد فبالإضافة إلى كونه سباحاً ممتازاً، وساحراً، فقد كان أيضاً عظيم البراعة باستخدام يديه. فبإمكانه تنفيذ خدع سحرية عجيبة، وألعاب خفة يد مدهشة لا مثيل لها، تحبس أنفاسي.

استهل الخال دايڤد طقوسه في انتشال الأشياء من أذني عند عيد مولدي السادس، واستتبع ذلك مع احتفالي بكل ذكرى عيد مولد جديد. ففي تلك السنة، أخرج من أذني قرشاً. وعندما بلغت السابعة، ارتفعت قيمة قطعة النقد

المستخرجة لتصبح خمسة قروش. وعند بلوغي الثامنة، انتشل من أعماق أذني قطعة نقد من عشرة قروش، وفي التاسعة، ربع دولار. وفي العاشرة، نصف دولار.

أما في عيد مولدي الحادي عشر، فرفع خالي دايفد وبعد خزعبلات كثيرة، كُمَّ ذراعه اليمنى إلى الأعلى، مستعرضاً بحركة مضخمة يده الفارغة تحت أنفي. هزّ أصابعه الخمسة في الهواء، ثم أتبع ذلك وببطء مطلق، بلف أصابع يده بادئاً بالإصبع الوسطى، ثم الإصبع التي على يساره، وأخيراً خنصره، جاعلاً منها شكلاً كروياً. أما سبابته وإبهامه، فقد اتخذا شكل فك كماشة.

أدنى كماشته من أذني بأناة، ثم أدخلها في أذني بعد مجهود من النخر والفتل، ليستخرج بها دولاراً براقاً من الفضة. كان فعله ذلك بديعاً.

وبعدما أسند القطعة النقدية إلى حافتها بشكل عمودي، مدها بنقرة ماهرة من إصبعه تاركاً إياها تغزل على سطح انسيابي قريب. «تذكرني هذه القطعة النقدية بك»، قالها قبل أن يكف الجسم الصغير عن دورانه. إلا انني هززت رأسي بحركة احتفالية دون أي تأمّل بمغزى جملته تلك.

بعد مرور سنوات عديدة، سيكون كل منا قد انتقل للإقامة في لوس أنجلوس، وسيجلس خالي إلى جانبي في سيارة أقودها ليسألني إن كنت أذكر ذلك اليوم، حين أخرج الدولار المعدني إياه من أذني في عيد مولدي الحادي عشر.

وسيشرح لي ما عناه حين شبهني بقطعة النقد التي جعلها تغزل أمامي. فكوني طفلاً، يقول خالي، لطالما بدوت بالنسبة له، شخصاً بوجهي عملة واحدة: وجهان كل منهما نقيض الآخر. كنت مشطوراً إلى جزءين، نصف يسمع ونصف أصم، متصلان على الدوام. كما استرعى انتباهه، وبفطنة رفيعة، تأرجحي وتذبذبي بين طفل بسنواته القليلة، وبالغ دُفعَ بي كي أكونه فكراً وسلوكاً. وكلما نظر إليّ، كان يرى شخصاً ما واقفاً على تقاطع طرق

الصوت والصمت، والطفولة والبلوغ، متيقناً من أنني سأكافح لأتلمس طريقي بنفسي.

بفضل رؤيته، أدركت، ربما كما لم أفعل قبلاً، قسوة ما عانيت، خلال سني طفولتي، لكي أتفلت من حاجة أبي الأبدية لي. كان صراعاً خضته، دفاعاً عن استقلاليتي، وعن حقي كوني طفلاً. لكنه كان صراعاً عاركت خلاله بيد صغيرة مقيدة وراء ظهري، إذ لم أسمح لنفسي بالتفكير لحظة بالتخلي عن والدي، وعن صممه الذي أثقل كاهلي.

خلال الجولة التي قمت بها وخالي، عبر ملهولاند، وسيبولفيدا باس، ومن ثم مرورنا بالغَور، متجهين قدماً نحو مسكنه، فكرت بالجانب الآخر من معادلة طفولتي: حاجة أمي لي. فكوني طفلها البكر صحيح السمع، سَدَّ وجودي حاجة لديها اقتصرت على الشق العملاني، والطبيعة البشرية النفعية. وبخلاف والدي، انحصر استخدام أمي لي بشد ورخي براغي وعزقات تفاعلها اليومي مع العالم صحيح السمع: ما سعر هذا؟ وهل ذاك متوافر؟

لربما كان الفرق بين أبي وأمي متعلقاً بحقيقة أن أمي لم تصب بالصمم لاحقاً في صغرها. فلا ذاكرة لديها تعنى بالصوت، الذي اكتنفه الغموض في مخيلتها وبدا غيرَ مُدرَك، تجريدياً، محض فكرة. أما أبي، فلم تتشابه حاله وأمي، إذ أصيب بالصمم في مرحلة لاحقة من حياته. فاحتفظ بحاسة سمعه حتى سن الثالثة. لذلك، فإن ذكرى الصوت، مدفونة في مكان ما من ثنايا دماغه. وتلك الذكرى المراوغة، المتملصة المتشظية، لن تقبل بإطلاق سراحه. فقد حامت بلا كلل في أفق وعيه العقلي. فيحاول من خلالي أن يعثر عليها، ليفضّها أمامه كهامة مكتملة. وقد دفعه توقه الدائم لأن يترقب مني سّدَّ حاجته الفكرية بهذا الشأن.

احتاج إليّ والدي لمعاونته على استذكار الصوت. على فهم الصوت.

الصوت بخلاصته الصافية. الصوت بأشكاله كافة. بسائر تبدّلاته. بصيغه الشبحية والبدنية. وحتى لون الصوت، أو وفقاً للحس المتزامن ربما، صوت اللون.

صارع خلال فترة حياتي طفلاً، لسبر غور اللغة الناطقة. كيف بإمكانها أن تكون لغة غير مرئية منبثقة من الفم، فَتُسمع، وتغدو ذات شأن؟ كيف للصوت غير المرئي، أن يشقّ طريقه عبر جزيئات الهواء اللامرئية بشكل متساو، ليدخل الأذن، مندفعاً عبر مليارات الشعيرات، مداعباً إياها في قناة الأذن، كعشب بحري يتمايل مرتعشاً بتأثير أنغام التيارات المائية غير المرئية؟

والسؤال الأكثر غموضاً: كيف يمكن للذبذبات في الأذن تحويل الصوت إلى الذهن، حيث يتم *سماعه*؟

بدأ بإطلاق أسئلته حين كنت في السادسة من العمر. ولم تتوافر في جعبتي إجابات مرضية عنها، تلك الأسئلة، التي لن ينقطع سيلها قبل مغادرتي عالم الصم إلى الأبد، بعد اثنتي عشرة سنة، على أعتاب الكلية.

عندما أضحيت مجرد زائر لذلك العالم، بدلاً من كوني مقيماً موثوقاً به، تبدل أمر ما، فتوقف سيل أسئلته. لأدرك بعد سنوات، أن رحيلي عن العائلة ترافق مع نهاية تنقيبه الجامح لفهم طبيعة الأصوات. إذ لم يعد يتوجه إلي بمزيد من الأسئلة.

وإلى هذا الحين، كلما فكرت بأبي، أستعيد بصورة جلية، كثافة وحدة طفولتي، متذكراً هدية خالي دايڤد في عيد ميلادي الحادي عشر: الدولار الفضي.

حبذا لو ادخرت ذلك الدولار. لكنت غزلته. فعلى أيّ وجه سيستقر الآن؟

-27-
الموت رجل غريب

عرفت بشأن الموت مبكراً ومتأخراً.

كنت في السادسة حين شاهدت رجلاً واقفاً على حافة سطح مبنى سكني في الحي. كان قد مضى وقت على وقوفه، ساكناً هامداً، فوق الحاجز القرميدي الواطئ، الفاصل كخط بين السطح المورّق بالقطران والمصون بالحصى، الذي بدا مقابلاً لظهر الرجل، والهواء فوق بروكلين الذي لسع قدميه. فلو حدق مباشرة إلى الأمام، كان باستطاعته رؤية المحيط الأطلسي بمحاذاة كوني آيلند، أما لو نظر إلى الأسفل، فكان سيرى الرصيف الإسمنتي في شارع وست ناينث، على مسافة ستة طوابق من قدميه.

راقبت، منوَّماً مغناطيسياً، وقد اعترتني حالة من عدم الفهم، إلى جانب زمرة من الجيران على رصيف الشارع المقابل للبناية. تسمرنا حيث نحن، شاخصين بأعيننا نحوه، بينما دلق البنزين على رأسه وكتفيه، قبل أن يشعل عود ثقاب، بلحظة واحدة، ليتحول إلى كتلة تحترق.

وقد صُعِقْتُ كافراً بما رأيت، مشدوهاً غير فاهم ما كانت عيناي تخبران دماغي، وأثناء ذلك، تقدم بهدوء خارج السطح ككرة من نار. مجرجراً في إثره شرارات وقطعاً من الثياب المشتعلة، ليسقط مباشرة على وتد سياج حديدي منخفض مقابل البناية. انبعج السياج بفعل اصطدام الجسم به. وقد طُرِحَتْ جثته أمامنا مخترَقة بقضيب وتد السياج، وقد طُوِّقت بدخان كثيف، أما ملابسه فقد استحالت رماداً، فطلاء السياج الأخضر تقرح، ثم بقبق منفصلاً. وظللت لأسابيع عقب هذا الحادث، أمر بقطع متفحمة من القماش التي انتشرت حول المبنى.

كان الرجل غريباً. قدم إلى حينا ليموت هناك. لم يخبرني أبي السبب. فلمرة واحدة، صمتت يداه عن الكلام.

بعد سنوات عديدة، وإثر انضمامي إلى الكتيبة الجوية رقم 82، كمظلي، أتى والداي لزيارتي في فورت براغ، قرب فاييتفيل في نورث كارولينا، حيث رابطت هناك. وغني عن القول، إن توقيت زيارة والديّ، تزامن عن عمد، مع القفز الشامل بالمظلة، وهو مشهد لطالما أثار إعجاب المتفرجين. كان سرب تلو آخر من طائرات سي– 119، يقلع من قاعدة القوات الجوية، فلا يكاد يفصل، بين السرب المحلق والسابق له، سوى ارتفاع خمسين قدماً في الهواء، مسافة كافية فقط، للحؤول دون مضغ مراوح الطائرة لأجساد القافزين في الهواء أمامها. وفي تشكيل فخم، حلق المظليون فوق نطاق الهبوط الرملي البالغ ثلاثة أميال. وقد قفز آلاف المظليين من البابين التوأمين للطائرات. كانت السماء مملوءة، من الأفق إلى الأفق، ببتلات بيضاء حريرية هابطة بتمهل. لكن أحد المظليين وقع في مشكلة. إذ تشابك الحبل الإستاتي[1] مع حزام الكتف في مظلته.

تدلى الجندي لساعات وساعات من طرف حبل الكنفا السميك، وعبثاً حاول الطاقم ومساعد الطيار وخبير القفز سحبه إلى الطائرة، مجربين مقاومة التيار المعاكس لمروحتي الطائرة التوأمين. لم يُجدِ الأمر نفعاً، إذ إن ضغط الهواء الدوّامي الساحب للخلف بفعل المراوح، فاقت طاقته ببساطة كل قوة مضادة.

وما إن نفد وقود الطائرة التي حلقت لساعات في مسارات دائرية، حتى رُشَّت طبقت من الزبد على مدرج المطار وأجبرت على الهبوط. وبما أنها

(1) الحبل الإستاتي: حبل يشد أحد طرفيه إلى مظلة الهبوط، والآخر إلى الطائرة لفتح المظلة بعد مغادرة الطائرة.

تمايلت فوق المدرج، ارتد الجسد الذي في أعقابها صعوداً وهبوطاً في الزبد.

أُعلِن لاحقاً أن الجندي أغفل بعدم إدراكه للحظة هبوط الطائرة على أرض المدرج. لكننا عرفنا جميعاً أن هذا هراء.

تكلم أبي في ذلك المساء عن الموت. كان أمراً مستغرباً، إذ لم يتطرق إلى هذا الموضوع من قبل. وحتى عندما توفي والده وحضرنا جنازته في برونكس، بالكاد أطلق إشارة عما يجول في خاطره. ولما فارقت والدته الحياة، بكى إلا أنه لم يتكلم.

لكنه في تلك الليلة، وخلال تناولنا العشاء، بادر بالحديث عن الموت. وإشارة الموت من أكثر الإشارات تأثيراً ووقعاً في النفس نظراً لتعبيرها الوصفي البصري الحاد والمفاجئ. فمدلولها لا يترك مجالاً للشك. أبي، بتعبيره عما يختلج في صدره حول الموت وسكراته تلك الليلة، أبقى على يديه مفتوحتين أمامه، مثبتاً راحة اليد اليمنى إلى الاسفل، الموت، وراحة اليد اليسرى إلى الأعلى، الحياة. ثم حدق متأملاً وضعيتهما، وعَكَسَهما.

«الموت» أشار، «غريب. كالغريب الذي قدم إلى حينا ليموت».

بعد ذلك، بعد ذلك بكثير، وفي فصل مختلف من فصول السنة، سيمضي والدي ليلته الأخيرة، في المستشفى ذاته، في كوني آيلند حيث شهد ولادتي. لن يجد شخصاً حوله ليعبر له بلغته الخاصة، عن تسليمه بالأمر، عن أسفه ومخاوفه.

تسع وعشرون سنة مضت على وفاة أبي وحيداً في بروكلين، في جناح مستشفى مملوء بالغرباء ممن لا يستطيع التحدث إليهم وممن لا يمكنهم قراءة يديه. لو كان يملك القوة، لنهض بالتأكيد عن سريره، ومشى خطوات قليلة نحو نافذة الجناح ليلقي نظرة على شاطئ كوني آيلند، حيث وقعت عيناه للمرة

الأولى قبل خمسين عاماً، على فتاة صماء ضحوك ذات شعر أسود لتصير في ما بعد زوجته.

لازمناه أمي وأنا، طيلة ذلك النهار (أخي كان لا يزال يعمل في فرجينيا)، وكنا قد تركناه فقط لتناول الطعام. أشارت له أمي وهي تغادر طرف سريره «سنعود بعد *قليل*». عندما عدنا إلى غرفته، بعد أقل من ساعة، كان سريره قد أضحى فارغاً وقد جُدِّدَ على نحو نظيف ومرتب.

لم يكن ثمة أحد ليدلنا أين أبي.

«جربوا معرض الجثث»، نصحتنا ممرضة وهي تعبر على عجل.

هبطنا في المصعد وصولاً إلى الدور السفلي، حيث معرض الجثث. وبدت أمي إلى جانبي، مسعورة.

دلفنا خارج المصعد، لتستقبلنا ردهة دائرية الشكل معتمة الضوء، خالية من أي إنسان– ومشبعة من البداية حتى النهاية بأسرة متحركة مغطاة بملاءات. ولهول المشهد، انحنت أمي كمدية جيب، كأنما أُغلقت على نفسها ولن تفتح أبداً. ضممتها إليّ.

استقامت في النهاية وهزتني لندنو من أول سرير. رفعتْ الملاءة، وألقتْ نظرة سريعة على الوجه الكامن تحتها، ثم خطتْ قدماً. من سرير لآخر، تابعتْ الفعل نفسه: رفع الملاءة من إحدى الزاويا، إلقاء نظرة سريعة، والانتقال. لكنها توقفت أخيراً، لتقذف بنفسها فوق الجسد البارد والصامت لأبي الميت.

على مدخل مقبرة بروكلين حيث ووري أبي الثرى، وقف بضعة رجال من اليهود الأورثوذكس، ببؤس، إلى جانب الطريق تحت رذاذ مطر خفيف، آملين جني بضع دولارات من تلاوة الكاديش، الصلاة اليهودية التقليدية. طلبت أمي مني الاتفاق مع أحدهم ليقرأ ما اعتبرته كلمات سحرية على قبر زوجها.

وفوق قبر أبي المفتوح، فإن خيطاً متصلاً من الكلمات، غير المسموعة لأمي والمبهمة للباقين– أخي، زوجتي، أطفالي، خالتي، أختيّ أبي وأخيه– لفظت بنبرة رتيبة لا نهاية لها، إلى أن نقرتُ على كتف الرجل الغريب الملتحي ذي الزي الأسود، شكرته، وأعطيته المبلغ المتَّفق عليه لقاء خدماته. ثم ألقينا نظرة من مكاننا على نعش أبي المستقر على سكَّتين، وكل منا يفكر بالرجل الذي في الداخل، الصامت، كما سيكون مصيرنا جميعاً.

عاشت أمي لثماني وعشرين سنة بعد وفاة أبي، وقد تمتعت بصحة بدنية جيدة نسبياً حتى بلوغها التاسعة والثمانين. ففي ذلك العام، دهمتها سلسلة من الانتكاسات الطبية لتجعل من أمر اعتمادها على نفسها مسألة مستحيلة.

أحب أخي والدتي بعمق، إلا أن عمله بدوام كامل في مدينة نيويورك، دفعه للموافقة على أن أصطحبها إلى بالم سبرينغز (حيث انتقلنا للعيش انا وزوجتي منذ أعوام)، حيث أستطيع تقديم الرعاية اللازمة لها بما أنني أحلت على التقاعد.

لكن لم يمض وقت طويل على إقامتها معنا وعيشها حياة جديدة، حتى تعثرت أرضاً ذات ليلة، لتتسبب سقطتها بكسر في الورك– وهي الحادثة الأولى ضمن حوادث عديدة وحالات مرضية مرت بها قبلاً، التي ستستنزف ببطء وبصورة منتظمة، جسدها وروحها المعنوية.

وخلال السنوات الست التالية، ستومئ لي بين الحين والآخر بشكل متقطع، «أريد أن أموت!».

«لا، لا يمكنك»، أرد عليها بتفاهة. «لديك الكثير لتعيشي لأجله». فأسرد بحيوية شديدة كل الأشياء التي أظن أنها تستحق العيش لأجلها.

وتشيح بوجهها بعيداً عني، غير مقتنعة.

وفي غمرة الإحباط الذي يتملكني، أضفت في أحد الأيام، إلى لائحة الأشياء التي عليها العيش من أجلها، «*انتظري*، وضعت كتاباً».

«وضعتَ أنتَ كتاباً؟» أشارت مشككة. «ما موضوعه؟».

«عاصفة ثلجية في بروكلين»، قلت «وصبي يحلم، وأم توقظه بقبلة منها».

«يبدو مثيراً للاهتمام. سأنتظر حتى أقرأه».

عاشت أمي إذن، لِستِّ سنوات أخرى، منتظرة أولاً ذلك الكتاب، وشهدت نشره، لتقول بإشاراتها مجدداً وبعد إتمامي كتابي الثاني: «أريد أن أموت!».

درج إروين على السفر مرتين كل عام لرؤية والدتنا. فخلو حيِّز حياته من وجودها كان خسارة بالغة الأثر بالنسبة إليه. فشقته في مدينة نيويورك شكلت مسكناً مريحاً لها، وقد اعتاد على زيارتها ليلة في الأسبوع، لاصطحابها لمشاهدة فيلم، ومن ثم مشاطرتها العشاء أيام الآحاد. لذلك، شعر بالأسى لزياراته التي أصبحت نصف سنوية، ولعشرة أيام، وفهم أنها سرعان ما ستنتهي، إذ لزمه الكثير من الوقت ليعوض لها عن غيابه، وكان أمراً قاسياً عليه.

قبيل وفاتها، كانت قد أُدخِلت المستشفى في واحدة من زياراتها المألوفة والتواترية لإجراء تقييم عام. وذات صباح، جئت لزيارتها فوجدتها نائمة باطمئنان. يداها المعرَّقتان، المشوبتان ببقع الكبد، استلقيتا إلى جانبيها. وما إن جلست بجوارها على السرير حتى عادتا إلى الحياة وبدأتا تتكلمان بإشارات لم أفهمها. كنت أراها ووالدي يتكلمان غالباً بإشارات خاصة بهما. إشارات لم يسمح لي بفهم معناها. مع ذلك، فقد استطعت قراءة إشارة واحدة منها: الموت.

فبينما كنت أشاهد أمي، راقدة في السرير، نائمة، مومئة في الهواء، تأكدت

أن إشاراتها الغامضة، تحمل مغزى ما لأبي. راقت لي فكرة أنها تخاطبه بيديها، بلغتهما السرية، وأنه لم ينتظر طويلاً حتى تكلمه.

فور إخطارنا بأنه لم يتبق من عمرها سوى أسبوع من الزمن، هرع أخي من مدينة نيويورك ليكون إلى جانبها. وخلال أسبوع وفاتها، أمضيت معه وقتاً استذكرنا فيه معاناتنا المشتركة كولدين صحيحي السمع لوالدين أصمين أبكمين. كانت تلك أول مرة نتحدث فيها بهذا الشأن. تكلمنا عن الموضوع كثيراً ولوقت متأخر، مستعيدين نشأتنا بين والدين أطلق سكان الحي عليهما لقب «طرشان الشقة 3– أ».

أمي متوفية منذ سنوات، وأبي سبقها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، إلا أنني وأخي، لا نزال غير متفقين تماماً على الأثر الذي خلفته تلك التجربة– تربيتنا في الشقة «3– أ» لوالد أصم ووالدة صماء منذ سنوات عديدة– في حيواتنا. لا يثار نقاش حول انطباعاتنا المختلفة بشأن ما عناه الصمم بالنسبة لهما، ولا حول اصطدامنا بحقيقة أنهما أصمان، ففي سننا هذه، أدركنا أننا لن نكون متفقين.

غير أننا نتفق على أمر واحد، وهو مدى حبنا لهما، ورهبة افتقادنا إياهما.

بعثرت رماد والدتي في أماكن أربعة، اعتقاداً بأنه سيروق لها أن تُذكر فيها، نقاط بوصلة حياتها الأربع.

ذات يوم بارد مرير ومثلج على غير العادة في أوائل أبريل، نثرت بعضاً من رمادها، الدافئ بصورة غريبة، والثقيل بين يديَّ، في دائرة فوق رمال كوني آيلند، مقترباً من محور الدائرة التي تحلق فيها الصم، على كراسي الشاطئ قبل حوالي ثمانين عاماً، حين كانت أمي شابة جميلة، بقوامها الرشيق الممتاز

التقاسيم في ثوب سباحة ضيق، وقد امتدت حياتها، فيما بدا، حتى المستقبل البعيد. تخيلت الخطوات التي أحدثتها قدمها الصغيرة على رمل الشاطئ. وإذ هبت الريح من حولي، راقبت رماد عظامها البيضاء، وهو يغادر في التيار الهوائي، مختلطاً بندف الثلج المتساقط الناصع البياض، الذي ستمتصه في ما بعد، الرمال المنتظرة والفارغة، إلى الأبد.

ثم اجتزت بصعوبة في الأمواج المتكسرة، وقد اكتوت ساقاي بلسع المياه الباردة لتغدوا مخدرتين على الفور ومتبلدتي الحسّ. وقفت في المياه التي طَمرت أمواجها الجليدية ركبتيَّ، قبل أن تخمد على الشاطئ لينحسر مدها، مطلقاً العنان ليدي لتفرج عن المزيد من حبيبات رماد أمي. وقد طَفَتْ على المياه لِتُسحَبَ بعيداً في المحيط الشاسع، باتجاه إيرلندا، المحيط نفسه الذي سبحت فيه أمي قبل ثمانين عاماً بلا كلل، تاركة إيانا في الخلف ذات صباح، قبل أن تعود إلينا بعد الظهر. بقيت على الشاطئ متذكراً حين كنت صبياً ينتظر أمه على طرف هذا المحيط، إلى أن ترصد عيناه غطاء رأسها الأبيض متأرجحاً فوق الأمواج، فيما يداها النحيلتان بندقيتي اللون، تجذفان بوهن في الماء، وكتفاها تتلالآن، بماسات تكشفها أشعة الشمس، ما إن تقترب مني.

لاحقاً، في ذلك اليوم، وأثناء تساقط الثلوج، دفنت بعضاً من رماد جثمانها، داخل ثقب صغير صنعته بين أكمة اللبلاب التي تجمعت فوق قبر أبي، في مقبرة بروكلين الضيقة المملوءة بشواهد قبور هزيلة كست رؤوسَها ندفُ الثلج. في لجة الصمت العميق للمقبرة الخالية من الناس، سارعت الثلوج لحجب قبره الصغير حيث رقدت بقاياها، فوق التلة الأكبر لنعشه. وبينما أشاهد المنظر راكعاً، حاني الرأس، تابع الثلج تساقطه بصمت، مغطياً المكان بدثاره الناعم.

عدت بعدها إلى كاليفورنيا، لأكمل نثر رمادها، على حافة صخرة مكشوفة في جبل سان جاسينتو، الشاهق بارتفاع عشرة آلاف قدم فوق بالم سبرينغز،

حيث عاشت معي، بمتعة عظيمة بين الحين والآخر، وتسليم بالواقع، لآخر ست سنوات من حياتها. خلال تلك السنوات، بُدِّلت الأدوار المخصصة لكل منا كلياً، فبت أنا ولي الأمر، وصارت هي الطفل، لأتعرف إليها، ومن خلالها، على طفولتي، بصورة لم تحدث من قبل. فأستعيد أبيات الشاعر ت.أس.إليوت: «ليس علينا الانقطاع عن سبر الأغوار/ ففي نهاية اكتشافنا/ نكون وصلنا إلى نقطة البدء/ لنتعرف إلى حيث نحن، لأول مرة».

أخيراً، في سانتا مونيكا، حيث أملك أيضاً وزوجتي منزلاً (وكانت أمي تقوم بزيارتنا غالباً قبل اعتلالها)، نشرت بعض رمادها في خط متخيل بدأتُه بأسفل مجموعة من أشجار النخيل المتكئة على بعضها بعضاً، في نموذج مماثل للنسيج المتراص، لعائلتي المعزولة. آثار الرماد تابعت طريقها في خط رفيع نحو رمال شاطئ كاليفورنيا لتنتهي في المحيط، حيث غمرتني مياه الأمواج، متيحة للبحر استعادة القليل مما تبقى من رماد أمي في يدي الكأسية الشكل.

الآن، من هذا الجرف الشديد التحدر، حيث أقف على شارع، بارتفاع مائة قدم، نائياً عن زحمة السير الصاخبة على الطريق الساحلي للباسيفيك، حيث السائقون، ولا شك في الأمر، منشغلو البال بمؤشر داو جونز وليس بالموت، أحظى بمجال رؤية لا تشوبه شائبة، يمتد فوق اشجار النخيل المقيمة في الرمال المتموِّجة، داخلاً في المحيط السرمدي. يجول نظري من خط الشاطئ، مرتحلاً في زرقة المحيط الخلفية ومن ثم في الأفق الرمادي المائل إلى الزرقة الذي ينزف داخل سماء رمادية– زرقاء.

خاتمة

تباغتني تلك الأوقات، عندما يكون المنزل في سبات، عندما أستعيد رائحة جسم والدي. فتلك الرائحة مزيج من عدة عطور، مقدار ضئيل منعش من الـ«أولد سبايس» ممزوج برائحة صابون الحلاقة فيتاليس، في إبريق، ورائحة صابون لافا الحادة التي استعملَها كل مساء مع فرشاة قاسية، ليزيل سخام الطباعة المتكوم تحت أظافره وفي طيات جلد يديه القويتين.

كنت أجلس صبياً فوق كرسي الحمام المغلق، مراقباً أبي بافتتان وهو يفرك يديه حتى يصبح لونهما وردياً وتكونان مفعمتين بالنشاط.

«صوتي يكمن في يديَّ»، يقول. «اليدان المتسختان لن تنطقا بجمال ووضوح. فعلى يدي أن تكونا نظيفتين، نظيفتين دوماً».

ثم يجفف يديه بعناية، مهتماً بكل إصبع من أصابعه القوية على حدة، ويتبع ذلك بنظرة عذبة نحوي تنبع من عينيه. فتُضَخُّ الحياة في يديه الفصيحتين، ويتخذ الهواء شكلاً ينضح بحبه العظيم لي.

أتذكر أن يديَّ استيقظتا على حين غرة في حياتي، وبمعزل عني، دخلتا في حديث مع والدي. وإذ يفصل الضباب عن ذاكرتي، تتراءى يدا أبي وهما تبادلانني الإشارة.

***

بعد سنوات طويلة على رحيل أبي، وكنت قد أُخِذْتُ بفكرة عرضية في أن أصبح فناناً، فإذ بي أقرأ كتاباً حول كيفية رسم صورة إنسان. المؤلِّف، في مقدمة الكتاب، يفخِّم الشكل البشري، لما فيه من جمال وتعقيدات مطلقة، ولأنه ظل محط أنظار الشعراء والعشاق في التاريخ، احتفالاً به، والأطباء والمهندسين تشريحاً وتحليلاً له.

ثم يشرع الكتاب تباعاً، وعلى قدم وساق، بالتوقف لدراسة الأعضاء: العينان، الأذنان، الفم، ثم نزولاً في الجسم.

قلبت الصفحة، لأجد أخيراً اليدين.

مستعرضاً الصفحة التالية تلو الأخرى، رأيت رسوماً بديعة، مشغولة بخط قلم الرصاص ببساطة خادعة، وقد ظهرت فيها يد الإنسان وهي تتحرك.

أما الوصف المرافق لهذه الفقرة، فبدأ بجملة «اليدان تتكلمان لغة غنية».

بشكل عفوي، ترقرق الدمع في عينيَّ، وضعت قلم الرصاص جانباً. ورحت أبكي.

يدا أبي

كانت كلمات الكتب شديدة التباين مع كلمات لغتي الأولى. فالإشارة لغة حية، معاصرة، لغة إيمائية بصرية، تشتمل على أشكال يدوية، أوضاع يدوية، تعبيرات وجهية، وحركات جسمانية. ولأصوغها ببساطة، أجد أنها أكثر اللغات جمالاً، وفورية، وأكثرها قدرة على التعبير، ذلك أن الجسد بأكمله يندرج داخلها. الإشارة كصورة، تعادل ألف كلمة. إشارات والديّ كانت تمضي عبر يديهما ووجهيهما وجسديهما لتصبّ مباشرة في وعيي. وهكذا، كوني طفلاً لم أتلقَ اللغة تلك المتكونة من سلسلة وحدات متقطعة تضاف إلى أفكاري، بل امتصصت معنى الإشارة ككل، مرة واحدة، من خلال عينيّ.



المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA

9 789948 019534